

تشي چيڤارا

الثائر من أجل الحرية

تشي جيفارا.. الثائر من أجل الحرية

المؤلف:

جمال إبراهيم

الناشــــر



للنشر والتوزيع

3 ميدان عرابى ـ القاهرة

تليفون: 01223877921 ـ 01112227423

فاكس: 20225745679+

darelhorya@yahoo.com

التنفيذ الفنى



رقم الإيداع: 2012/19560

الترقيم الدولى: 977-977-5832-64-1



تشي چيڤارا

الثائر من أجل الحرية

جمـال إبراهيـم

الحرية للنشر والتوزيع

ولد ارنستو تشى جيفارا من أم اسمها «سيليا دى لا سيرنا» وأب اسمه «إرنستو جيفارا لينش» يوم ١٤ يونيو ١٩٢٨م فى روساريو فى الأرجنتين، وهو الأكبر بين خمسة أطفال فى عائلة من أصول إيرلندية وأسبانية باسكية.. (ارنستو تشى جيفارا) نسبة إلى ألقاب والديه فى بعض الأحيان مع إضافة «دى لا سيرنا أو لينش» له. فى إسقاط الضوء على طبيعة تشى "غير المستقرة" ذكر والده أن "أول شىء يمكن أن نلاحظه هو أن ابنى يجرى فى عروقه دماء المتمردين الايرلنديين..

وبحكم نشأته فى أسرة ذات الميول اليسارية كان جيفارا يتعامل مع طائفة واسعة من وجهات النظر السياسية. حتى فى الوقت الذى كان فيه صبياً كان والده مؤيدا قويا للجمهوريين من الحرب الأهلية الإسبانية وغالباً ما استضاف العديد من اللقاءات بين قدامى المحاربين فى منزله.

●●

تعلم جيفارا الشطرنج من والده وبدأ فى المشاركة فى البطولات المحلية حين بلغ من العمر اثنى عشر عاماً. خلال فترة المراهقة وطوال حياته كان جيفارا متحمساً للشعر، وخصوصاً للشاعر «بابلو نيرودا»، وجون كيتس، وأنطونيو ماتشادو، وفيديريكو غارسيا لوركا، وغبريالا

ميسترال، وقيصر باييخو ووالت، ويتمان»، وكان يمكنه اقتباس أبيات من الشعر «لروديارد كبلنغ» وأيضاً «لخوسيه هيرنانديز» عن ظهر قلب.

كان منزل جيفارا يحتوى على أكثر من ثلاثة آلاف كتابا، مما سمح له أن يكون قارئا متحمسا وانتقائيا، حيث اهتم بالقراءة عن كارل ماركس ووليام فوكنر وأندريه جيد واميليو سالغارى وجول فيرن. إضافة إلى ذلك، كان جيفارا يقرأ أعمال جواهر لال نهرو وفرانز كافكا وألبير كامو وفلاديمير لينين وجان بول سارتر، وكذلك أناتول فرانس وفريدريك إنجلز وهربرت جورج ويلز وروبرت فروست.

قام جيفارا بتدوين أفكار العديد من هؤلاء الكتاب فى كتاباته الخاصة بخط يده مع مفاهيمه وتعاريفه، وفلسفات المثقفين البارزين من وجهه نظره، وقام أيضاً ببعض الدراسات التحليلية لبوذا وأرسطو، بجانب دراسته لبرتراند راسل عن المحبة والوطنية، والمجتمع من جاك لندن وفكرة نيتشه عن الموت. فتنت جيفارا أفكار سيغموند فرويد حيث أخذ عنه فى مجموعة متنوعة من المواضيع مثل الأحلام والرغبة الجنسية والنرجسية وعقدة أوديب.

●●

سافر جيفارا عندما كان طالبا فى كلية الطب فى جامعة بوينس آيرس الذى تخرج منها عام ١٩٥٣، إلى جميع أنحاء أمريكا اللاتينية مع صديقه ألبيرتو غرانادو على متن دراجة نارية وهو فى السنة الأخيرة من الكلية، وكونت تلك الرحلة شخصيته وإحساسه بوحدة أمريكا الجنوبية وبالظلم الكبير الواقع من الإمبرياليين على المزارع اللاتينى البسيط، وتغير داخلياً بعد مشاهدة الفقر المتوطن هناك.

أدت تجاربه وملاحظاته خلال هذه الرحلة إلى استنتاج بأن التفاوتات الاقتصادية متأصلة بالمنطقة، والتى كانت نتيجة الرأسمالية الاحتكارية والاستعمار الجديد والإمبريالية. رأى جيفارا أن العلاج الوحيد هو الثورة العالمية. كان هذا الاعتقاد الدافع وراء تورطه فى الإصلاحات الاجتماعية فى غواتيمالا فى ظل حكم الرئيس جاكوبو أربينز غوزمان، الذى ساعدت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى نهاية المطاف على الإطاحة به مما سهّل نشر ايديولوجية جيفارا الراديكالية. بينما كان جيفارا يعيش فى مدينة مكسيكو التقى هناك براؤول كاسترو المنفى مع أصدقائه الذين كانوا يجهزون للثورة وينتظرون خروج فيدل كاسترو من سجنه فى كوبا. ما إن خرج هذا الأخير من سجنه حتى قرر جيفارا الانضمام للثورة الكوبية. رأى فيدل كاسترو أنهم فى أمس الحاجة إليه كطبيب، وانضم لهم فى حركة ٢٦ يوليو، التى غزت كوبا على متن غرانما بنية الإطاحة بالنظام الدكتاتورى المدعم من طرف الولايات المتحدة التى تدعم الديكتاتور الكوبى فولغينسيو باتيستا. سرعان ما برز جيفارا بين المسلحين وتمت ترقيته إلى الرجل الثانى فى القيادة حيث لعب دوراً محورياً فى نجاح حملة على مدار عامين من الحرب المسلحة التى أطاحت بنظام باتيستا.

كانت الخطوة الأولى فى خطة كاسترو الثورية الهجوم على كوبا من المكسيك عبر غرانما وهو مركب قديم «يرشح». قاموا بتحديد يوم ٢٥ نوفمبر ١٩٥٦ للهجوم على كوبا. قام جيش باتيستا بالهجوم عليهم بعد الهبوط مباشرة، وقتل العديد من الإثنين والثمانين مقاتلا فى الهجوم الذى وقع ولم ينج منهم سوى ٢٢ رجلاً.

ظلت مجموعة صغيرة من الثوار على قيد الحياة لإعادة القوة القتالية الرثة للمجموعة فى عمق جبال سييرا مايسترا حيث تلقت دعماً من

شبكة حرب العصابات فى المدن ومن فرانك بابيس وكذلك حركة ٢٦ يوليو والفلاحين المحليين مع انسحاب المجموعة إلى سيراليون، تساءل العالم عما إذا كان كاسترو حياً أو ميتاً حتى أوائل عام ١٩٥٧ عندما تمت المقابلة مع "هربرت ماثيوز" وظهرت فى مقال بصحيفة نيويورك تايمز، لم يكن جيفارا حاضراً للمقابلة، ولكنه فى الأشهر المقبلة بدأ يدرك أهمية وسائل الاعلام فى نضالهم، فى هذا الوقت كانت اللوازم فى انخفاض وكذلك الروح المعنوية، وعانى جيفارا من حساسية بسبب لدغات البعوض التى آسفرت عن خراجات مؤلمة بحجم الجوز على جسده.. مع استمرار الحرب، أصبح جيفارا جزئاً لا يتجزأ من الجيش والمتمردين وأقنع كاسترو بقدراته ودبلوماسيته وصبره. واقام جيفارا مصانع لتصنيع القنابل اليدوية، وقام ببناء أفران لصنع الخبز ودرس المجندين الجدد التكتيكات ونظم المدارس لتعليم الفلاحين الأميين القراءة والكتابة.وعلاوة على ذلك أنشئ جيفارا العيادات الصحية وورش عمل لتعليم التكتيكات العسكرية وصحيفة لنشر المعلومات. وأطلقت عليه مجلة تايم لقب: «عقل الثورة» فى هذه المرحلة تمت ترقيته من قبل فيدل كاسترو إلى القائد الثانى فى الجيش باعتباره المحارب الوحيد فى مرتبة قائد إلى جانب فيدل كاسترو كان جيفارا قاسياً للغاية بشأن انضباط المنشقين الذين تم أطلاق النار عليهم من دون تردد، تمت معاقبة الهاربين على أنهم خونة وجيفارا كان معروفاً بارسال فرق إعدام لمطاردة الذين يسعون للهروب بدون إذن، نتيجة لذلك أصبح جيفارا يخشى لوحشيته وقسوته.

●●



اختفاء جيفارا..

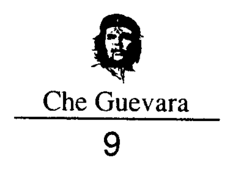
نشرت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية شائعات تدعى فيها اختفاء إرنستو جيفارا فى ظروف غامضة، ومقتله على يد زميله فى النضال القائد الكوبى فيدل كاسترو، مما اضطر الزعيم الكوبى للكشف عن الغموض الذى اكتنف اختفائه من الجزيرة للشعب الكوبى فأدلى بخطابه الشهير الذى ورد فى بعض أجزائه ما يلى:

«لدى هنا رسالة كتبت بخط اليد، من الرفيق إرنستو جيفارا يقول فيها: أشعر أنى أتممت ما لدى من واجبات تربطنى بالثورة الكوبية على أرضها، لهذا أستودعك، وأستودع الرفاق، وأستودع شعبك الذى أصبح شعبى. أتقدم رسميا باستقالتى من قيادة الحزب، ومن منصبى كوزير، ومن رتبة القائد، ومن جنسيتى الكوبية، لم يعد يربطنى شىء قانونى بكوبا».

فى أكتوبر ١٩٦٥ أرسل جيفارا رسالة إلى كاسترو تخلى فيها نهائيا عن مسؤولياته فى قيادة الحزب، وعن منصبه كوزير، وعن رتبته كقائد، وعن وضعه ككوبى، إلا أنه أعلن عن أن هناك روابط طبيعة أخرى لا يمكن القضاء عليها بالأوراق الرسمية، كما عبر عن حبه العميق لكاسترو ولكوبا، وحنينه لأيام النضال المشترك.

أكدت هذه الرسالة إصراره على عدم العودة إلى كوبا بصفة رسمية، بل كثائر يبحث عن ملاذ آمن بين الحين والآخر. ثم أوقف مساعيه الثورية فى الكونغو وأخذ الثائر فيه يبحث عن قضية عالمية أخرى. وقد قال فى ذلك:

«إن الثورة تتجمد وإن الثوار ينتابهم الصقيع حين يجلسون فوق الكراسى، وأنا لا أستطيع أن أعيش ودماء الثورة مجمدة داخلى».



الذهاب إلى الكونغو..

قرر جيفارا المغامرة إلى أفريقيا فى عام ١٩٦٥ ليقدم علمه وخبرته بوصفه خبير فى حرب العصابات إلى الصراع الجارى فى الكونغو. وفقا للرئيس الجزائرى أحمد بن بلة: «كان جيفارا يعتقد أن أفريقيا هى الحلقة الضعيفة للإمبريالية، وبالتالى قد تنطوى على إمكانات هائلة للثورة».

الرئيس المصرى جمال عبد الناصر الذى كانت تجمعه علاقات أخوية مع تشى التى يعود تاريخها إلى عام ١٩٥٩ خلال زيارة إلى مصر، كان يرى خطط جيفارا للقتال فى الكونغو بأنها «غير حكيمة» وحذر من انه سيصبح مثل «طرزان» هناك وهى تجربة محكوم عليها بالفشل. على الرغم من التحذير قاد جيفارا عملية الدعم الكوبى للحركة الماركسية سيمبا التى انبثقت بعد استمرار أزمة الكونغو. وصل جيفارا ورجله الثانى فى القيادة فيكتور دريكى و ١٢ أخرون من الحملة الكوبية إلى الكونغو فى ٢٤ أبريل ١٩٦٥ ليكونوا وحدة قوامها نحو ١٠٠ من المنحدرين من أصل كوبى انضمت إليهم بعد ذلك بقليل. كما تعاون لفترة مع زعيم المتمردين لوران ديزيريه كابيلا الذى سبق له ان ساعد مؤيدى باتريس لومومبا الذى تم اغتياله من قبل وكالة المخابرات المركزية الأمريكية الذى قاد حركة تمرد من قبل وكتب عليها الفشل.

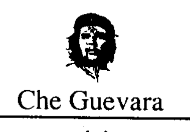
لقد كان جيفارا معجباً بالراحل لومومبا وأعلن ان "قتله يجب أن يكون درسا لنا جميعا، ولكن سرعان ما خاب أمله فى انضباط قوات كابيلا.

عمل مرتزقة جنوب أفريقيا بقيادة مايك هور بالتنسيق مع المنفيين الكوبيين ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية وكذلك جيش الكونغو

الوطنى لاحباط جيفارا. كانوا قادرين على رصد رسائله، وحتى استباق هجماته وقطع خطوط الامداد. على الرغم من أن جيفارا سعى إلى اخفاء وجوده فى الكونغو إلا أن حكومة الولايات المتحدة كانت على علم بمكانه والأنشطة التى يقوم بها: وكالة الأمن القومى كانت تعترض جميع الاتصالات الواردة والصادرة عبر معدات على متن السفينة "يو اس ان اس الجندى خوسيه واو فالديز"، وكانت تجوب عائمة لهذا الغرض للاستماع بشكل مستمر فى المحيط الهندى قبالة دار السلام.

كان هدف جيفارا هو تصدير الثورة عن طريق إيعاز القوى المحلية المعادية لموبوتو المقاتلين سيمبا عن الفكر الماركسى واستراتيجيات نظرية فوكو عن حرب العصابات. فى يوميات الكونغو التى كتبها يذكر عدم الكفاءة والتعنت والصراع الداخلى بين القوات الكونغولية المحلية من ضمن الأسباب الرئيسية لفشل الثورة. ثم غادر جيفارا الكونغو من نفس العام بسبب مرضة بالزحار وكان أيضا يعانى من الربو الحاد وسبعة أشهر من خيبة الأمل والإحباط وذلك بصحبة الناجيين الكوبيين (ستة أعضاء من فرقتة كانوا قد ماتوا). كان جيفارا يفكر فى إرسال الجرحى إلى كوبا، والقتال فى الكونغو وحده حتى الممات، على سبيل تقديم المثل الأعلى للثوار والثورة، ولكن بعد أن حثه رفاقه وضغطوا عليه من قبل اثنين من المبعوثين التى بعث بهم كاسترو وافق فى آخر لحظة على مضض أن يتراجع عن خطته. فى الحديث عن الكونغو، خلص جيفارا إلى أن "العنصر البشرى فشل. لا توجد إرادة للقتال، والقادة فاسدون، باختصار لم يكن هناك شىء يمكننى القيام به.

كان جيفارا مترددا بشأن العودة إلى كوبا، وذلك لأن كاسترو نشر رسالته للجمهور والتى كانت "رسالة وداع" والتى كان يجب نشرها فقط،



فى حالة وفاته حيث قال انه قطع كل العلاقات من أجل تكريس نفسه للثورة فى جميع أنحاء العالم.. نتيجةً لهذه الرسالة، أمضى جيفارا الأشهر الستة المقبلة فى الخفاء فى دار السلام وبراغ. خلال هذا الوقت أعد مذكراته عن تجربة الكونغو، وكتب مسودات لكتابين آخرين واحد عن الفلسفة والآخر عن الاقتصاد. ثم زار عدة بلدان فى أوروبا الغربية لاختبار أوراق هويتة المزيفة، التى زورها فى الاستخبارات الكوبية لسفره إلى اميركا الجنوبية لاحقاً. عندما كان جيفارا يستعد للذهاب إلى بوليفيا كتب رسالة إلى أطفاله الخمسة لتقرأ عند وفاته، والتى انتهت بوصيه:

«وفوق كل شئ كونوا قادرين دوماً على الإحساس بالظلم الذى يتعرض له أى إنسان مهما كان حجم هذا الظلم وأياً كان مكان هذا الإنسان هذا هو أجمل ما يتصف به الثورى وداعاً إلى الأبد يا أطفالى وإن كنت لا زلت آمل أن أراكم مرة أخرى لكم جميعاً قبلة كبيرة كبيرة وحضن كبير كبير من بابا»..

اعتقاله واعدامه

تحول فيليكس رودريغيز، وهو منفى كوبى إلى مخبر لصالح وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية فى قسم النشاطات الخاصة، وساعد القوات البوليفية أثناء مطاردتها لجيفارا فى بوليفيا.

فى يوم ٧ أكتوبر أبلغ مخبراً القوات البوليفية الخاص بموقع جيفارا وفرقته فى معسكر بواد جورو، قامت القوات بمحاصرة المنطقة، وجرح جيفارا وأسر حين كان يحاول قيادة الفرقة مع "سيمون كوبا سارابيا". ذكر "جون لى اندرسون" كاتب سيرة تشى فى تقاريره عن رواية الرقيب البوليفى برناردينو اوانكا: أن جيفارا أصيب مرتين وعندما أصبحت

بندقيته عديمة الفائدة هتف "لا تطلقوا النار! أنا تشى جيفارا، وأساوى حياً أكثر من ميتاً..

تم تقييد جيفارا واقتيد إلى مبنى مدرسة متهالك بنى من الطين فى قرية قريبة من قرية لاهيغويرا مساء يوم ٧ أكتوبر، بعد يوم ونصف رفض جيفارا أن يتم استجوابه من قبل ضباط بوليفيين، وتكلم بهدوء إلى الجنود البوليفيين فقط، واحد من هؤلاء الجنود البوليفيين كان قائد طائرة هليكوبتر يسمى "نينو خايمى دى غوزمان" ووصف حالة تشى أنها " مروعة " ووفقا لغوزمان أطلق الرصاص على جيفارا فى ربلة الساق اليمنى وشعره كان متعقد بالتراب وكانت ملابسه ممزقة وقدميه كانتا مغطاتين بأغماد الجلود الخشنه، وعلى الرغم من مظهره المنهك يروى غوزمان أن " تشى رفع رأسه عالياً ونظر للجميع مباشرة ولم يسأل عن شىء إلا الدخان ". يقول دى غوزمان إنه "أشفق" عليه وأعطاه حقيبة صغيرة من التبغ ثم ابتسم جيفارا وشكره.

فى ليلة ٨ أكتوبر قام جيفارا على الرغم من كونه مقيد من يديه بركل الضابط البوليفى اسبينوزا على الحائط، بعد أن حاول الضابط انتزاع غليون جيفارا من فمه كتذكار.

فى صباح الغد فى ٩ أكتوبر طلب جيفارا مقابلة (مدرسة) من القرية، وهى جوليا كورتيز التى تبلغ من العمر ٢٢ عاماً، كورتيز ذكرت فى وقت لاحق أنها وجدت جيفارا " رجل مظهره مقبول ولديه نظرة بسيطة ولمحة من السخرية " وخلال المحادثة وجدت نفسها غير قادرة على النظر فى عينيه مباشرة لأن النظرة كانت لا تطاق، خارقة وهادئة. خلال المحادثة القصيرة شكا جيفارا لكورتيز عن الحالة السيئة للمدرسة مشيراً إلى أنها مضادة لتربية وهو من غير المتوقع أن طلاب الكامبيسينو يتعلمون

هنا فى حين ان " المسؤولين الحكوميين يحصلون على سيارات مرسيدس "... قائلاً ان هذا هو ما نحاربه.

وفى صباح ذلك اليوم يوم ٩ أكتوبر أمر الرئيس البوليفى رينيه بارييتنوس بقتل جيفارا، كان الجلاد يدعى ماريو تيران رقيب نصف مخمور فى الجيش البوليفى الذى كان قد طلب إطلاق النار على تشى استناداً إلى حقيقة أن ثلاثة من أصدقائه يدعون "ماريو" من الفرقة (ب)، قد قتلوا فى وقت سابق من قبل عصابة جيفارا المسلحة خلال الاشتباكات.

قبل لحظات من إعدم جيفارا سأل عما إذا كان يفكر فى حياته والخلود.؟

أجاب : «لا أنا أفكر فى خلود الثورة».. ثم قال تشى جيفارا للجلاد " أنا أعلم أنك جئت لقتلى اطلق النار يا جبان انك لن تقتل سوى رجل.. تردد تيران، ثم أطلق النار من بندقيته النصف آلية، لتصيب جيفارا فى الذراعين والساقين، ثم سقط جيفارا على الأرض وعلى ما يبدو قضم رباط معصميه ليتجنب الصراخ، ثم أطلقت عدة أعيرة أخرى، مما أدى إلى إصابه قاتلة فى الصدر.. أصيب جيفارا بتسعة أعيرة نارية فى مجموعهم، شمل هذا على خمس مرات فى الساقين، مرة واحدة فى كتفه الأيمن والذراع الأيمن، ومرة واحدة فى صدره، وطلقه واحدة فى الحلق.

●●

أكثر من خمسين عاماً من إعدامه وتراث تشى وحياته لا يزالان مسألة خلاف. نقاط متناقضة مختلفة من حياته خلقت الطابع المعقد الازدواجى اللانهائى، نتيجة لاستشهادة وأولائك المتذرعين بالشعرية للصراع الطبقى والرغبة فى خلق وعى جديد لرجل يقودها من الجانب



الأخلاقى بدلاً من أجل الحوافز المادية، تحول جيفارا إلى الرمز المثالى للحركات اليسارية. قد تنظر مجموعة لتشى جيفارا باعتباره بطلاً، فعلى سبيل المثال أشار نيلسون مانديلا بأنه «مصدر إلهام لكل إنسان يحب الحرية».. فى حين وصفه جان بول سارتر بأنه «ليس فقط مثقف، ولكنه أيضا أكمل إنسان فى عصرنا.. ومن الذين أبدوا إعجابهم بجيفارا أيضاً الكاتب غراهام غرين الذى لاحظ أن تشى «يمثل فكرة الشهامة والفروسية والمغامرة»..

لايزال جيفارا البطل الوطنى المحبب للكثيرين فى كوبا، مازالت صورته تزين البيزو الكوبى وطلاب المدارس يتعهدون كل صباح قائلين «سنكون مثل تشى» فى وطنه الأصلى الأرجنتين، تحمل مدارس ثانوية اسمه، والعديد من المتاحف المنتشرة فى البلاد تحمل اسمه، فى عام ٢٠٠٨ تم كشف النقاب عن تمثال البرونز ١٢ قدم له فى مدينة روزاريو محل ولادته. بالإضافة إلى ذلك جيفارا تم تنصيبه كقديس من قبل بعض الفلاحين البوليفيين باسم «سانت ارنستو» الذين يصلون له من أجل المساعدة.

●●

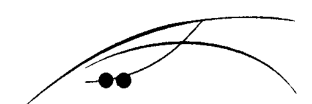
أصبح وجهه الرفيع المرسوم الصورة بلون واحد واحداً من أكثر الصور انتشاراً وعالمية فى العالم التى يتم تسويقها.. يمكن العثور عليها فى مجموعة لا حصر لها من المنتجات، بما فى ذلك القمصان والقبعات والملصقات والوشم من السخرية أنها تسهم فى ثقافة المستهلك التى كان يحتقرها، ومع ذلك لا يزال جيفارا شخصية يتم ذكرها على وجه التحديد، سواء فى السياقات السياسية أو على النطاق الشعبى الواسع كرمز للتمرد الشاب.

■■■

1

دراسة فى فكر
ارنستو تشى جيفارا

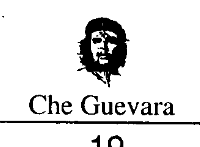
مايكل ليفى



فى مقالة نشرت عام ١٩٢٨ كتب خوسيه كارلوس ماريتجوا، المؤسس الحقيقى لماركسية أمريكا اللاتينية " بالطبع نحن لا نعمل من أجل اشتراكية فى أمريكا اللاتينية كنسخة أو تقليد، لابد أن تكون خلقاً بطولياً، إن علينا أن نستوحى اشتراكية من واقعنا الخاص، ولغتنا الخاصة، إن هذه مهمة تستحق تكريس جيل جديد بأكمله من أجلها "

لكن تحذيره هذا لم يلق آذاناً صاغية، ففى نفس تلك السنة خضعت الحركة الشيوعية الأمريكو/لاتينية للنوذج الستالينى السوفيتى، الذى أبقى عليها لمدة نصف قرن فى حالة تقليد ونسخ للايديولوجيا البيروقراطية السوفيتية أو ما أسمى بـ " الاشتراكية المحققة ".

لا ندرى فيما إذا كان جيفارا قد اطلع على مقالة ماريتيجوا، ربما كان قد قرأها، أو إذا كانت زميلته هيلدا جيديا قد أعارته كتابات ماريتجوا فى السنوات التى سبقت الثورة الكوبية، ومهما كان الأمر فإن الكثير من أفكاره السياسية وممارساته، وخاصة فى الستينات، يمكن القول بأنها كانت محاولات لتجاوز الانسداد الذى قاد إليه التقليد الأعمى للاتحاد السوفيتى من قبل أوروبا الشرقية، إن أفكاره فى بناء الاشتراكية هى محاولة من أجل " الخلق البطولى " لشىء ما جديد، وإن كان بحثاً ـ



متقطعاً وغير مكتمل ـ للوصول إلى نموذج متميز للاشتراكية، يتصدى بمعان ومستويات كثيرة بشكل جذرى للكاريكاتور البيروقراطى " للاشتراكية المحققة ".

لقد تطورت أفكار جيفارا فى الفترة ما بين ١٩٥٩ ـ ١٩٦٧ بشكل ملموس، لقد أخذ ينأى بنفسه أكثر وأكثر بعيداً عن الأوهام القديمة التى كانت عالقة فيما يخص السوفييت، او النمط السوفيتى للاشتراكية ـ أى الطبعة الستالينية للماركسية، ففى رسالة أرسلها عام ١٩٦٥ إلى صديق كوبى، وجه نقداً لاذعاً " للذيلية الايديولوجية " وهو ما كان يطبع فى كوبا على شكل كراريس ودليل عمل كتعليمات عن الماركسية، هذه الكراريس أو الأدلة (جمع دليل) كان يسميها تشى (الطوب السوفييتى) قائلاً " إن من مضارها أنها تخلو مما يحفزك على التفكير: فالحزب صاغها من أجلك وأن عليك أن تهضمها ".

أما الأكثر وضوحاً، ولا سيما فى كتاباته ما قبل عام ١٩٦٣، هو رفضه للنسخ والتقليد وبحثه عن نموذج بديل، إن محاولته هى تشكيل مدخل آخر إلى الاشتراكية، أكثر جذرية، أكثر مساواة، وأكثر أخوية، وأكثر إنسانية وأكثر تمسكاً وانسجاماً مع الأخلاق الشيوعية.

أدى رحيل تشى المبكر عام ١٩٦٧ إلى قطع عملية انضاج مستقل وتطور ثقافى، إن عمله ليس بأى حال نظاماً مغلقاً، ليست نظاماً يدعى الاجابة على كل شىء، فتجاه أسئلة عديدة، مثل التخطيط والنضال ضد البيروقراطية وغيرها، بقى تفكيره غير مكتمل.

إن القوة المحركة خلف هذه العملية فى شق طريق جديد ـ فوق وقبل أية قضايا اقتصادية محددة ـ كان القناعة بأن الاشتراكية بلا معنى

وبالنتيجة لا يمكن أن تنتصر ما لم تتعهد بموقف حضارى، وأخلاق اجتماعية، ونموذج لمجتمع هو بشكل كبير متناقض تناحرياً مع المصالح الفردية الصغيرة والأنا المنفلتة، والمنافسة، وحرب الكل ضد الكل التى تسم الحضارة الرأسمالية، هذا العالم الذى يأكل فى الإنسان.

إن بناء الاشتراكية لا يمكن فصله عن قيم أخلاقية معينة، وهذا يعكس المفاهيم الاقتصادية لستالين وخرتشوف ومن أتى بعدهما الذى يأخذون فى الاعتبار تطور القوى الاقتصادية وحده.

فى مقابلة مشهورة مع الصحفى جين دانييل فى يوليو ١٩٦٣، كان تشى قد طور نقداً ضمنياً للاشتراكية المحققة " الاشتراكية الاقتصادية بدون أخلاق شيوعية لا تعنينى، إننا نحارب الفقر، ولكن فى الوقت نفسه الاغتراب.. فإذا ما تم فصل الشيوعية عن الوعى، فإنها قد تكون نموذجاً للتوزيع ولكنها لا تعود بأخلاق ثورية ".

إذا ما ادعت الاشتراكية أنها تقارع الرأسمالية وتقهرها على أرضها أى الانتاجية والاستهلاك مستخدمة نفس الأسلحة الرأسمالية - الشكل السلعى للمنافسة، الفردية المتمركزة على ذاتها - فإنها سائرة للفشل، ويمكن القول إن تشى استشرف تفكك الاتحاد السوفييتى ولكنه بطريقة أو أخرى استوحى أو حدس أن نظاماً اشتراكياً لا يتسامح مع الاختلافات، لا يحتوى على قيم جديدة، حيث يحاول تقليد نقيضه، ليست لديه طموحات سوى أن يحلق ويتجاوز انتاج المراكز الإمبريالية، إنما هو نظام لا مستقبل له.

تمثل الاشتراكية بالنسبة لـ " تشى" المشروع التاريخى لمشروع جديد يعتمد على قيم المساواة والتضامن الاجتماعى، والايثار الثورى والنقاش

الحر والمشاركة الجماهيرية، إن نقده المتواصل والمتزايد للاشتراكية المحققة، مثل ممارساته كقائد وتفكيره فى التجربة الكوبية كانت قد تأثرت بهذه اليوتوبيا الشيوعية بالمعنى الذى أعطاه " أرنست بلوخ ".

هناك ثلاثة أشياء أثرت فى استيحاء وحدس جيفارا بشكل محدد وبحثه عن طريق جديد: النقاش فى أسس الإدارة الاقتصادية، ومسألة التعبير الحر عن الاختلافات وملامح الديمقراطية الاشتراكية، احتلت الأولى المركز الرئيسى فى تفكير تشى بينما الاثنتين الاخريين، اللتين لهما علاقة قوية بالأولى لم يتم تطويرها بشكل كبير، مع بعض التناقضات، ولكن تم عرضها أو وردت فى اهتماماته وممارسته السياسية.

مبادئ الإدارة الاقتصادية

يشير هذا إلى النقاش الشهير عامى ١٩٦٣ - ١٩٦٤ فيما يخص سمات متعددة فى التخطيط، حيث وجد جيفارا نفسه فى تعارض مع داعمى النموذج السوفيتى/، وزير التجارة الخارجية، البرتو مورا، ومدير المعهد الوطنى للاصلاح الزراعى (اى انار ايه) كارلوس رفاشيل رودريجيز، اللذين أيدهما الاقتصادى الماركسى الشهير تشارلز بتلهايم.

إن مواقف تشى ـ التى دعمت من قبل الاقتصاد الماركسى البلجيكى المعروف أرنست ماندل ـ شكلت نقداً، ضمنياً فى البداية وعلنياً فيما بعد، للاشتراكية المحققة، لقد عورضت السمات الأساسية للنموذج الشرق أوروبى من قبل تشى:

قانون القيمة كقانون موضوعى للاقتصاد فى مرحلة الانتقال إلى الاشتراكية، وهى أطروحة ستالين التى تبناها آنذاك تشارلز بتلهايم.

السلعة كأساس لنظام الانتاج.

المنافسة بين المشاريع أو بين العمال، كعمل لزيادة الانتاج.

الفرد وليس الحوافز الجماعية ومبادئ التوزيع.

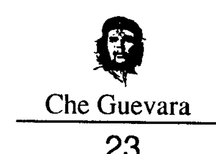
الامتيازات الاقتصادية للمدراء والإداريين.

سمة السوق فى العلاقات الاقتصادية بين البلدان الاشتراكية.

فى خطابه الشهير فى الجزائر فى فبراير ١٩٦٥، دعى تشى البلدان التى تزعم أنها اشتراكية " لأن تصنع حداً لتشابهها مع البلدان المستغلة فى الغرب " والتى يتم التعبير عنها بعلاقات التبادل اللامتكافئ التى تتلوث بها هذه البلدان فى علاقتها بالبلدان التى تدخل صراعاً ضد الإمبريالية، إن الاشتراكية بالنسبة لجيفارا لا يمكن أن توجد بدون تغير الوعى، ليس فقط فى المجتمعات التى تبنى الاشتراكية أو بنتها، بل أيضاً على الصعيد العالمى لكل الشعوب التى تعانى من القمع الإمبريالى ".

فى مقالته فى مايو ١٩٦٥: " الاشتراكية والإنسان فى كوبا " حيث حلل نماذج بناء الاشتراكية التى طبقت فى أوروبا الشرقية، ورفض تشى المفهوم الذى ادعى " قهر الرأسمالية عبر صنميتها "، " والتوهم بأن تحقيق الاشتراكية يمكن انجازه بمساعدة الأدوات الغبية التى تركتها أو خلفتها لنا الرأسمالية (السلعة كنواة اقتصادية، الاربحية، المصالح المادية الفردية كرافعة.. الخ) يمكن القبول بها بشكل أعمى.. لبناء الشيوعية لا بد أن يترافق بناء أسسها المادية الجديدة بناء الإنسان أيضاً ".

أن أحد أهم مخاطر النموذج المستورد من بلدان أوروبا الشرقية هو تزايد عدم المساواة الاجتماعية وتشكيل نخبة أو شريحة ذات امتيازات من التكنوقراط والبيروقراط: إن المدراء هم الذين يكسبون أكثر بشكل دائم، ويكفى أن تنظر إلى المقترح الأخير فى ألمانيا الديمقراطية،



والأهمية التى يوليها للدور الإدارى للمدير، أو ما هو أكثر من ذلك، ما يتلقاه المدير لقاء دوره الإدارى ".

وبشكل أساسى، فإن النقاش كان مواجهة بين وجهة النظر " الاقتصادية " التى تعتبر المجال الاقتصادى كنظام مستقل محكوم بقوانينه الخاصة كقانون القيمة أو قوانين السوق، والمفهوم السياسى الاشتراكى الذى تكون يعتبر القرارات الاقتصادية فيما يخص أولويات الانتاج، الأسعار وما شابه، محكومة بمعايير اجتماعية أخلاقية وسياسية.

إن الاقتراحات أو الفرضيات الاقتصادية عند تشى ـ التخطيط فى مواجهة قوى السوق، نظام الموازنة المالية الجماعية أو الحوافز الأخلاقية ـ هى محاولات لايجاد نموذج لبناء اشتراكية قائمة على هذه المعايير والتى بالطبع تختلف عن النموذج السوفيتى.

لا بد من الاضافة أن جيفارا لم ينجح فى تطوير فكرة واضحة عن طبيعة النظام البيروقراطى الستالينى، وبرأيى، فإنه قد أخطأ فى اقتفاء أثر أساس مشاكل ومحدوديات التجربة السوفيتية وصولاً إلى السياسة الاقتصادية الجديدة، وليس بالأحرى الثرميدور الستالينى.

حرية النقاش

فى المناقشات الاقتصادية فى ١٩٦٣/١٩٦٤ هناك ملمحاً سياسياً مهمًا تجدر الإشارة إليه باعتباره الحقيقة الأساسية فى النقاش، وهو الوضع الذى يكون فيه الاختلاف فى التعبير أمراً عادياً فى عملية بناء الاشتراكية، أو مشروعية ديمقراطية تعددية فى الثورة.

كانت هذه الاشكالية موجودة ضمناً فى نقاشه السياسى، إلا أن جيفارا لم يطوره بوضوح أو بشكل منتظم، وهو بالتأكيد لم يربطه بقضية

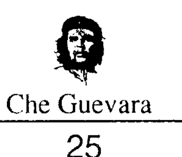


الديمقراطية فى التخطيط، ولكنه تبنى فى مناسبات عدة خلال الستينات من القرن العشرين موقفاً يميل إلى حرية النقاش فى المعسكر الثورى واحترام تعدد الآراء.

هناك مثالاً مهماً على هذا وهو تواصله مع التروتسكية الكوبية، وإن لم يتفق معها قط (فقد نقدهم بشدة فى أكثر من مناسبة)، فى عام ١٩٦١ فى نقاش مع المثقف اليسارى من أمريكا الشمالية موريس زلين، ندد جيفارا بتدمير البوليس الكوبى لصفائح طباعة كتاب تروتسكى (الثورة الدائمة) معتبراً ذلك خطئاً لا يجب أن يحصل، وبعد عدة سنوات، قبل رحيله عن كوبا عام ١٩٦٥ تمكن من تحرير التروتسكى الكوبى روبرتو اكوستا هيشيفاريا من السجن، ورافقه وحياه بشكل أخوى: أكوستا لا يمكنك قتل الأفكار بالمتفجرات " وكان أوضح مثال هو رده فى تقرير ١٩٦٤ الاقتصادى لرفاقه فى وزارة الصناعة على اتهام التروتسكية حيث تم استخدامه ضده من قبل السوفييت:

" فى هذا الصدد إما أن تكون لدينا القدرة على مواجهة الأفكار المضادة بالنقاش أو أن علينا السماح لها بالتعبير عن نفسها.. لا يمكن تدمير الأراء بالقوة، لأن هذا يحتجز أى تطوير حر للثقافة أو الفكر، هناك الكثير مما له قيمة فى التفكير التروتسكى، على الرغم من أنه كما يبدو لى أن مفاهيمه الأساسية كانت خاطئة وأن عمله الأخير كان خطئاً ".

ليس من قبيل المصادفة، بناء على ذلك، أن يكون أوضح دفاع من جيفارا عن حرية التعبير، وأكثر نقد واضح للسلطوية الستالينية قد تجلت فى ميدان الفن، ففى مقالته الأساسية " الاشتراكية والإنسان فى كوبا " شجب النموذج السوفيتى " الواقعية الاشتراكية " باعتبارها فرض شكل منفرد للفن " ذلك النوع من الفن الذى يفهمه الوظيفيون " بهذا المنهج، " أكد أنه عبر



هذا ينتهى البحث الفنى الحقيقى "، وأن " نموذجاً مفصلاً ومفروضاً " يتم فرضه " على التعبير الفنى للإنسان الذى كان قد ولد .. "

ديمقراطية الاشتراكية

ورغم أن جيفارا لم يتمكن من صياغة نظرية نهائية لدور الديمقراطية فى مسار التحول إلى الاشتراكية، وربما كانت هذه هى الفجوة الرئيسية فى عمله - فقد رفض المفاهيم الديكتاتورية والسلطوية التى أسهمت كثيراً فى الأضرار التى لحقت بالاشتراكية فى القرن العشرين. كان تشى ضد عملية تعليم الناس من الأعلى كعقيدة زائفة، كان ماركس قد فندها نفسه بأطروحته ضد لودفيج فيورباخ " من يعلم المعلم؟ " وهو ما أجاب عليه جيفارا فى حديث عام ١٩٦٠ بالقول " إن أول وصفة فى تعليم الشعب هو أن تجذبهم إلى الثورة، علينا عدم الافتراض بأننا بتثقيف الناس يمكن أن يتعلموا، أى بالتعليم وحده، على يد نظام طغيانى فوق ظهورهم، يمكن أن ينتزعوا حقوقهم، عليك تعليمهم أولاً وقبل كل شئ، كيف ينتزعوا حقوقهم، وعندما يصبحوا ممثلين فى حكومة فإنهم سوف يعرفون ما تعلموه دون عناء وأكثر منه " بكلمات أخرى: إن التعليم التحريرى الوحيد هو التعليم الذاتى، ممارستهم الثورية الخاصة، أو كما وضعها ماركس نفسه، فى الإيدلوجيا الألمانية " تطابق أو التساير ما بين الظروف الإنسانية والجهد الإنسانى، وأن تغيير الذات يمكن تفهمه واستيعابه ذهنياً فقط عبر التجربة الثورية ".

وعلى الطريق نفسه، كتب بعض الملاحظات النقدية عام ١٩٦٦ فيما يخص كراسات التلقين فى الاقتصاد السياسى السوفيتى وإرساء دعائم طائفة سلطوية لا قيود عليها ".

تكمن المحدودية الأساسية فى عدم كفاءه تفكيره حول العلاقة بين الديمقراطية والتخطيط أن نقاشه فى الدفاع عن التخطيط ومعارضة صياغات السوق هامة بشكل كبير جداً وتصبح أكثر صلة على ضوء العبارات الليبرالية الجديدة التى تهيمن حالياً والتى تعرض نظام السوق كما لو كان معتقداً دينياً ".

إلا أنهم أى السوفييت، تركوا جانباً السؤال السياسى الأساسى: من الذى يقوم بالتخطيط؟ ومن الذى يحدد الخيارات الأساسية فى الخطة الاقتصادية؟ من الذى يحدد أولويات الانتاج والاستهلاك؟ فبدون ديمقراطية أصيلة ـ حيث، أنه بدون التعددية السياسية النقاش الحر للأولويات، حق السكان الحر فى الاختيار بين الفرضيات الاقتصادية والأسس التى تم الحوار عليها ـ إن التخطيط قد تحول إلى نظام بيروقراطى سلطوى " لديكتاتورية فوق الحاجات "، والتى تم الترويج لها بشكل هائل فى تاريخ الاتحاد السوفيتى السابق.، وبكلمات أخرى فإن المشاكل الاقتصادية للتحول إلى الاشتراكية لا يمكن فصلها عن طبيعة النظام السياسى، لقد كشفت التجربة الكوبية فى العقود الثلاثة الماضية، أيضاً عن نتائج سلبية غياب المؤسسات الديمقراطية الاشتراكية، رغم أن كوبا كانت قد دأبت على تجنب مساوئ الشمولية والبيروقراطية لدى دول " الاشتراكية المحققة ".

يرتبط هذا النقاش بمشكلة المؤسسات الثورية، يرفض جيفارا الديمقراطية البرجوازية، ولكنه رغم مواقفه الواضحة ضد البيروقراطية وحساسيته لصالح المساواة ـ كان بعيداً عن تكوين رؤية واضحة للاشتراكية الديمقراطية فى مقالته " الاشتراكية والإنسان فى كوبا " يقر بأن الدولة الثورية يمكن أن تخطئ وهو ما يثير الرد بالطبع رد فعل سلبى



بين الجماهير ويرغم الدولة على اجراء تصحيح: والمثال على ذلك السياسة الفئوية أو الجهوية للحزب تحت قيادة انيبال اسكالنتى فى ١٩٦١ ـ ١٩٦٢ لكنه أردف " أن هذه الآلية ليست كافية للتأكيد بأن معايير أو اجراءات قانونية سوف تترتب عليها، أن صلات عميقة وبنيوية بالجماهير مسأله مهمة وضرورية فى هذا الصدد " بدا أنه فى البداية كان مكتفيا بـ " وحدة جدلية " بين القيادة والجماهير، لكنه فى صفحات أخرى لاحقة اعترف بأن المشكلة بعيدة جدا عن تحقيق حل كاف والذى بوسعه السماح أو اعطاء متسع لرقابة ديمقراطية فعالة " هذا لتمأسس للثورة لم يتم انجازه بعد. إننا نتطلع إلى شىء ما جديد ".

نحن نعلم أنه فى السنوات الأخيرة من حياته، كان ارنستو تشى جيفارا قد قطع شوطاً فى إبعاد نفسه عن النموذج السوفيتى وفى رفضه لعملية " النسخ والتقليد " لـ"الاشتراكية المحققة ". إن جزءاً ملموساً من كتاباته الأخيرة بقى غير مطبوع لأسباب غير معروفة.

من بين هذه الوثائق نقد جذرى لدليل الاقتصاد السياسى فى أكاديمية العلوم السوفيتية، والذى كتب عام ١٩٦٦، ففى مقالة كتبها كارلوس تابلادا، مؤلف كتاب مهم عن فكر تشى الاقتصادى، وردت فقرات من تلك الوثيقة، حيث كانت لهذا الكاتب فرصة الاطلاع عليها ولكن لم يسمح له بنشرها كاملة، إن احدى الفقرات ذات أهمية بالغة حيث تبين أفكار تشى السياسية النهائية قريبة جداً من الديمقراطية الاشتراكية، هى ديمقراطية عملية التخطيط التى يقوم بها الناس أنفسهم، العمال وبكلماته " الجماهير " سوف تجعل من الاجراءات الاقتصادية الأساسية " فى تناقض مع مفهوم الخطة كقرار اقتصادى من قبل الجماهير، وحرصاً منا على مصالح هذا الشعب، فقد قدمنا علاجاً أعطى للعوامل

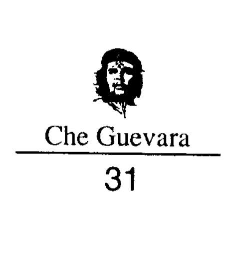
الاقتصادية دور تقرير مصير المجموع، إن هذا تكنيك ميكانيكى وليس ماركسى، لا بد للجماهير من أن تكون قادرة على تقرير مصيرها، أن تقرر ما هى الحصة من الانتاج التى يجب أن تخصص على التوالى لكل من التراكم والاستهلاك، لابد للتكنيك الاقتصادى أن يعمل ضمن حدود هذه المعلومات ولا بد لوعى الجماهير من تأكيد تطبيقه".

فى أكتوبر ١٩٦٧ اغتيل جيفارا برصاص وكالة المخابرات الأمريكية وعملائها البولفيين وبالتالى قطع هذا " الخلق البطولى " لاشتراكية ثورية جديدة وديمقراطية شيوعية ثورية.

■ ■ ■

2
سلوك جيفار الأخلاقى
فى الكفاح السياسى





كان عمره سيبلغ ٦٩ سنة، فى ظل نظام عالمى لم يكن أبدا يتصوره، فى قارة عاشت فيها الليبرالية الجديدة فسادا، وفى جزيرة خاضعة لمتطلبات تغلغل الدولار.

كيف سنتفحص أو نعيد تفحص فكر تشى؟ لقد أضفى عالم الفوضى والبلبلة طابع الغموض على صورته التى تتأجج بين اللا منطق والسخرية. فهو إما أسطورة فارغة، أو طوباوى مستبد وانتحارى. وهو محارب بطل فى حرب الغوار لكنه عسكرى خاسر بالنسبة للبعض، ومنظم دون المستوى للبعض الآخر. وبالنسبة لآخرين فهو، علاوة على ذلك، متزمت مازوشى ومتعصب، متسلط ومتعسف، والذى كان عناده السياسى وسلوكه اللا مسئول سيقودان - فى غياب عبقرية فيدل كاسترو العملية - إلى إخفاق الثورة الكوبية على غرار الكونغو وبوليفيا.

ونحن فى نهاية هذا القرن، كيف نستعيد مغزى كفاح خيض فى عقد الستينات الثورة؟ وإن كنا نعرف اليوم آخر أيام تشى بشكل أفضل، فإن كتاباته - وهى عديدة - محفوظة فى كوبا وتبقى دائما مجهولة. ثم إن مسيرته الإيديولوجية مازالت تتطلب الكشف عنها.



إن قصر حياة تشى جيفارا السياسية (ثلاث عشر سنة موزعة بين انتصار المخابرات الأمريكية CIAعلى Arbenz بكواتيمالا وموته فى بوليفيا، ثمانى سنوات فى كوبا ستة منها بعد انتصار الثورة)، والتسارع العنيف لأحداث التاريخ الذى كان يشكل جزءا لا يتجزأ منه، تجعلان من الصعوبة بمكان تفسير بعضا من كتاباته. فقد كان فكره فى تطور دائم.

وبالرغم من أنه لم يعتبر نفسه منظرا، ولم ينتم إلى حزب سياسى قبل التزامه فى كوبا، فإن الشهادات كلها تتطابق حول دوره، سواء فى سييرا مايسترا أو إبان الاستيلاء على السلطة، كمحفز رئيسى للمسار الراديكالى الذى سارت عليه الثورة. لكن وعيه السياسى سيتطور بشكل عميق فى بعض السنوات. فلا تكاد تمر ست سنوات بين تناوله لتجربة بلدان "الستار الحديدى" بشكل إيجابى وهو فى سييرا مايسترا (وذلك فى رسالة إلى رونيه راموس لاتور المسئول عن حركة ٢٦ يوليو، وهى رسالة سيصفها لاحقا بـ"البليدة") وبين نقده الصارم للاتحاد السوفيتى وبلدان أوروبا الشرقية فى سنوات ١٩٦٤-١٩٦٥.

فى أكتوبر ١٩٦٠، ذهب فى زيارة إلى موسكو بعد أن تعرضت الجزيرة للخنق من جراء الحصار الذى نظمته أمريكا على البضائع ابتداء من ١٣ أكتوبر. وقد حصل من الكتلة السوفيتية على قروض، وعلى التزام بشراء جزء كبير من السكر الكوبى مقابل البترول (أما ما تبقى فستشتريه الصين). وخلال الاحتفال بذكرى الثورة الروسية التى حضرها، صفق الجمهور وهتف له. وإن كان متأكدا من أن هجوما أمريكيا قد أوشك (اجتياح "خليج الخنازير" سيحدث بعد مرور أربعة أشهر)، فإنه عاد وهو مقتنع بأن "الاتحاد السوفيتى وكل البلدان الاشتراكية مستعدة للدخول فى حرب لحماية سيادتنا". وفى أكتوبر ١٩٦٢ ستنفجر أزمة الصواريخ وتبدد

كل أوهامه بشكل جارح. فسيختبر رجل حرب الغوار، بعد أن أصبح وزيرا، التسيير السوفيتى للعمليات التجارية، وكذا دبلوماسية موسكو القوية خلال أزمة الصواريخ. وهكذا سيكتشف مرارة واقع الاشتراكية السلطوية والبيروقراطية، والامتيازات التى يحصل عليها الماسكون بزمام الحكم. وخلال المؤتمرات التداولية لوزارة الصناعة سيشهر بـ"الاشتراكية القائمة فعلا"، وهو نعت لم يكن موجودا بعد.

إن تفكيره هذا، سيزيد من توطيد نزعته الإنسانية التى اكتسبها خلال رحلته فى أمريكا اللاتينية. فهو أرجنتينى يعرف الأساليب الزبونية والشعبوية للبيرونية. ولاحقا سيكتشف الامتيازات التى يحوز عليها "مدراء" ومسئولو الحزب. إن نموذج"الإنسانية الجديدة" الذى يريد أن ينهض به والذى يتم تشويهه لجعله استبداديا، والسلوك النموذجى الذى يفرضه على نفسه كقائد، والعمل التطوعى الذى يبحث عليه، كلها مزايا تتناقض مع الأساليب الستالينية، وهو يستوحيها من تصور أخلاقى للسلطة والذى يبدو أيضا ضروريا من الناحية السياسية. فعندما أعلن لعمال السكر فى ١٩٦١ بأن نقص الحاجيات سيزداد حدة (اللحم والحليب أصبحا منذئذ مقننين)، أخذ على عاتقه تعهدا أثار حماس المشاركين: "فى هذه المرحلة الجديد من النضال الثورى، لن ينال واحد منا أكثر من الآخرين، ولن يكون هناك موظفون محظوظون ولا فلاحون كبار. لن يكون محظوظا فى كوبا سوى الأطفال".

ففى حين يعانى السكان من الحرمان، كان الاجتياح الأمريكى يتطلب تعبئة شعبية هائلة، وهو ما كان مستحيلا دون الانخراط فى مشروع ثورى. وهذا الانخراط هو الذى يفسر الانتصار الذى أحرز فى بلايا جيرون، والذى يعد أول هزيمة تتكبدها الإمبريالية فى أمريكا اللاتينية.



كان تشى بعيدا عن رذائل الفساد والمحسوبية التى كانت تميز زعماء أمريكا اللاتينية، فارضا صورته كقائد زاهد، صارم مع نفسه كما مع الآخرين. والنوادر لا تحصى فى هذا الباب: كان يلغى الإضافات التى تستفيد منها عائلته بخصوص القوت، وكان المرض هو ما يبرر به جهارا سكنه المؤقت على شاطئ البحر والذى لا يسمح به أجره. لقد أدرك سريعا ضرورة النضال ضد الامتيازات، حيث يعتبر أنه على المشروع الثورى أن يخلق قائدا خاليا من كل رذائل الفساد والارتشاء، قائد تطابق أقواله أفعاله. ومن هنا تزهده الشخصى الذى كان بمثابة أسطورة.

سيخوض تشى نضالا مستمرا ضد تبقرط الإدارة الجديدة وهو يحاول أن يفرض نمطا جديدا من ممارسة السلطة. لن يفلح فى ذلك، وسيكثر أعداء هذا "الأرجنتينى" كما ينعته بعد الموظفين مستهترين به.

كان تصلبه يفسر أحيانا بالتحليل النفسى، لكن ذلك كان ينم عن جهل ضرورة تجسيد السلطة الجديدة فى كوبا لقطيعة جذرية مع فساد النظام السابق. فالطبع يغلب التطبع، الأمر الذى يشهد عليه ما قام به بعض من رجال حرب الغوار فى حركة ٢٦ يوليو، بعد الانتصار الاستراتيجى من استيلاء على السيارات الفخمة لرجال بوليس الديكتاتورية ليلتحقوا بمدينة هافانا، وقد عاقبهم تشى على الفور. وهذه العقوبات الصارمة توصف اليوم بأنها مرتبطة بستالينية خاصة، وهى غولاغ المناطق المدارية. هكذا تم خلط كل شىء: فالانضباط المفروض فى حركة حرب الغوار تكافح ضد ديكتاتورية مدعومة من طرف واشنطن، وإعدام جلادى باتيستا

فى ثكنة كابانا بعد الاستيلاء على السلطة، كلها مقدمات تدل على المنحى القمعى الذى يسير فيه النظام. وفى هذا كله يتم نسيان تشى وهو

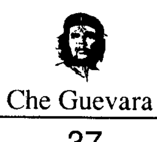


يعالج السجناء ويطلق سراحهم بعد ذلك، وكذا سخائه الزهيد لكن الشاسع.

مجهود فكرى غير مكتمل

إن إعادة قراءة كل من النصوص الأخيرة لتشى خلال النقاش الاقتصادى الكبير الذى أشهر فيه خلافه مع المدافعين عن الإصلاحات الاقتصادية السوفيتية لسنوات الستينات هى نسخة أولى للبريسترويكا-، ومقالته حول "الاشتراكية والإنسان فى كوبا"، وكذا خطاباته الأخيرة خصوصا ذلك الذى ألقاه فى الجزائر فى ١٩٦٥ توضح بشكل جلى رؤيته النقدية والمحذرة من مشاكل المجتمع الانتقالى فى الاتحاد السوفيتى. فقد كتب فى كتاب بدأه قبيل وفاته وبقى غير مكتمل ما يلى: " إن الإنسانية تنتظرها هزات عديدة قبل أن تحصل على تحررها النهائى، لكننا مقتنعون بأنه يتعذر بلوغ هذا التحرر دون تغيير جذرى فى إستراتيجية القوى الاشتراكية الرئيسية. وسيبين لنا التاريخ ما إذا كان هذا التغيير سيأتى نتيجة ضغط الإمبريالية الحتمى أو عبر تطور جماهير هذه البلدان وإما بتضافر عوامل عديدة. أما من جهتنا، فنحن نساهم بجهد متواضع مع خوفنا من أن يتجاوز المسعى قوانا الذاتية".

فقد أدرك سريعا ما قد يعترض كوبا من صعوبات بفعل تبعيتها إزاء "الأخ الأكبر" السوفيتى. كما أدرك، منذ الاستيلاء على السلطة، ضرورة إحداث قطيعة مع الطابع الأحادى لزراعة السكر لتقليص تبعية البلد والسعى إلى ضمان تطور اقتصادى مستقل أكثر. وكان التشديد على التصنيع يستجيب لانشغاله الكبير هذا. لكن سرعان ما ظهرت نتائج شريعة السوق العالمية: فانخفاض إنتاج قصب السكر - المنتوج الأساسى



فى التصدير - لم يعد يسمح بضمان الواردات الضرورية للتطوير الاقتصادى بالنسبة لبلد محروم من موارد الطاقة، والذى ترتكز عائداته أساسا على هذه الزراعة الأحادية التى فرضها الاستعمار فى القرن ١٩. فكان لا بد من تصحيح الوضع، وهو ما يعنيه تشى لما قال لادواردو كالينو: "لقد ارتكبنا حماقة لما أردنا تسريع التصنيع. كنا نريد تعويض كل الواردات وتصنيع منتجات كاملة، دون أن نرى تلك المضاعفات الهائلة التى يفرضها استيراد السلع الوسطى".

فالتجارة مع الإتحاد السوفيتى، خصوصا التزويد بالبترول بعد القطيعة التامة مع الولايات المتحدة، قد تضمن استقرار المبادلات وعدالة تجارية حقيقية بين بلد صغير تابع اقتصاديا وبلد يدعى الاشتراكية ويملك السلاح النووى وهو الآن ينطلق إلى غزو الفضاء.

لم يحتج تشى لكثير من الوقت عكس القادة الكوبيين الآخرين- لإدراك هشاشة هذه العلاقات ومخاطرها.

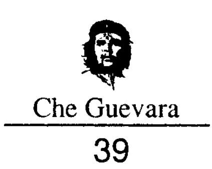
الانتقال والتخلف

وسرعان ما بدأت شكوكه تدور حول السياسة الداخلية. فقد كانت الإصلاحات الاقتصادية المتعلقة بالسوق التى اقترحها وشرع فيها الاقتصاديون السوفيات (خصوصا ليبرمان وترابزنيكوف) محط نقاشات عديدة، فى وقت كانت تعترض فيه الجزيرة ضرورة إعادة تحديد إستراتيجية للنمو.

كان النقاش الذى خيض خلال الفترة الفاصلة بين ١٩٦٣ و١٩٦٥، داخل وزارة الصناعة ثم داخل القيادة الكوبية، يدور حول بناء الاشتراكية، وبالضبط حول شروط الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية فى جزيرة

خاضعة لقيود زراعة السكر الأحادية وللضغوطات المباشرة للسوق العالمية، وعلاوة على ذلك يؤدى الحصار المفروض من طرف أكبر قوة اقتصادية عالمية الى عرقلة تطورها.

كان الجدال يتعلق بدور قانون القيمة خلال مرحل الانتقال، ودرجة مركزة المؤسسات، ثم دور الحوافز المادية والمعنوية. فأولئك الذين ينوهون بأهمية قانون القيمة، يخصصون مكانة كبرى لآليات السوق فى الاقتصاد المخطط وأيضا، لضرورة منح استقلال مالى للمؤسسات مع إصرارهم على دور الحوافز المادية للزيادة فى إنتاجية العمل. أما تشى وأنصاره، فكانوا يشددون أولا، على ضرورة تسيير مركزى نظرا لتفاوت التطور الكوبى: فهناك شبكة متطورة للاتصالات والنقل ولكن، بالمقابل، هناك نقص جسيم فى الأطر، وهناك ضرورة لفرض مراقبة صارمة على المواد، نظرا للحصار والمستوى الضعيف للتطور ثم خصوصا، لقلة العملات الصعبة. فقد كان يعتقد بأن الاستقلال المالى للمؤسسات، من شأنه أن يشكك فى الأولويات التى تم إقرارها على المستوى القومى وذلك لصالح الاختيارات القطاعية، كما من شأنه أن يزيد من استقلال المدراء فيما يخص الاستثمارات والأجور، وأن يؤدى إلى تطور متفاوت وغير متوازن. وكان يخشى نتائج نظام عمل مبنى حصرا على الحوافز المالية، وكذا التمايزات الاجتماعية التى ستنتج عنها حتما، الأمر الذى جعله يكتب: "ها نحن نعود إلى نظرية السوق... فتنظيم السوق كله مبنى على الحافز المادى... والمدراء هم الذين يستفيدون كل مرة أكثر. علينا أن نرى آخر مشروع وضع فى الجمهورية الألمانية الديمقراطية، لنجد الأهمية التى أعطيت فيه لتسيير المدير أو بالأحرى لمكافأة المدير على تسييره". هذا التنبؤ، سنرى نتائجه بعد خمسة وعشرين سنة خلال انتفاضة الجماهير



الشعبية فى ألمانيا الشرقية التى لم تعد تحتمل الركود الاقتصادى وغياب الحريات السياسية وامتيازات القادة الفاسدين.

كانت كل من الحساسية الحادة اتجاه البيروقراطية والاعتبارات السياسية والاجتماعية تدفعان تشى إلى معارضة الأولوية الممنوحة للعلاقات المالية-التجارية فى بناء الاشتراكية، لكن دون أن يعنى ذلك أبدا أن لديه وهم إلغائها دفعة واحدة. فبعيدا عن التشويهات التى لحقت مواقفه، كان يصر على ضرورة الحوافز المعنوية التى يعتبرها بمثابة حوافز جماعية إلى العمل. هذا التصور كان يتماشى مع سياسة أجور مرتبطة بشكل وثيق بتطوير المؤهلات، حيث إن "الاختيار الصحيح لأداة تعبئة الجماهير" هو الذى يهم أكثر، وبدونه لن تنجح الاشتراكية. فمساواة الحقوق وتشريك الاقتصاد الذى ربما كان مبالغا فيه- كانا حماسيا بالنسبة للمقاومة الشعبية التى رأت بأن عالما آخر ينبنى فى وجه العدوان الأمريكى وأنه يستحق القتال. لكن تشى كان يعترف أنه ليس معصوما، ويؤكد على أنه إذا ما تبين أن تصوراته "ستشكل عائقا خطيرا على تطور القوى المنتجة، فيجب استخلاص الدروس منها وسلك طريق آخر معروفة".

إن تطوير الوعى الثورى والتعليم من شأنهما أن يساهما فى اكتساب موقف ثورى إزاء العمل (لهذا كان يعطى المثال، ليس لأنه مازوشى بل لأن الضرورة تفرض ذلك). كما أن "تكوين الإنسان الجديد وتطوير التقنية" من شأنهما أن يتيحا الانتقال نحو الاشتراكية. كانت العلاقة بين الاشتراكية والإنسان فى قلب اهتماماته، حيث يعتبر الإنسان عاملا أساسيا فى الثورة و"فاعلا فى عملية بناء الاشتراكية". وبالنسبة إليه، يوجد التعليم والوعى فى قلب هذا المجتمع العادل" "فى هذه المرحلة فى بناء الاشتراكية، يمكن لنا أن نشاهد ولادة الإنسان الجديد. إن صورته لم

تحدد بعد، لا يمكن أبدا أن تحدد نظرا لأن تطوره يسير بالتوازى مع تطور البنيات الاقتصادية الجديدة... إن الإنسان الذى يجب أن نخلقه هو إنسان القرن ٢١، رغم أنه مازال مجرد طموح ذاتى وغير منتظم".

هكذا، وبعيدا عن التشويهات الستالينية، كانت مقدمات تشى مفعمة بروح إنسانية وثورية. لكن الصحيح أيضا أنه كان يشدد على نقد الاقتصاد وعلى الوزن الذى تكتسيه علاقات السوق، ولا يشدد بما فيه الكفاية على الطابع البوليسى والقمعى للنظام السياسى السوفيتى. ومما لاشك فيه، أن هذا ما يشكل إحدى الثغرات الأساسية فى تفكيره. وقد أشار أحد كتاب سيرته روبيرتو ماسارى وأيضا كارول إلى نقط الضعف فى تفكير تشى والتى تتجلى، إلى حدود سنة ١٩٦٣ تقريبا، من خلال عدد من خطاباته وكتاباته. وكان هذا الضعف يتماشى مع سذاجة ما، بارزة فى الأحكام التى كان يصدرها على أطر PSP القديم.

وفى غضون سنة ١٩٦٦، سيعمق تفكيره النظرى وهو يعلق على "كتاب الاقتصاد السياسى للاتحاد السوفيتى": "إن الجريمة التاريخية الفظيعة التى ارتكبها ستالين" تتمثل فى "استهتاره بالتكوين الشيوعى وإرساء عبادة السلطة بشكل لا محدود".

ضد النزعة العقائدية

" انتفاضة ضد الأوليغارشيا وضد النزعات العقائدية الثورية". هذا ما كتبه فى يومياته فى بوليفيا وهو يحتفل بذكرى ٢٦ يوليو. كان ينتقد بصرامة "النزعة المدرسية التى كبحت تطور الفلسفة الماركسية، وحالت بصورة ممنهجة دون دراسة هذه الحقبة التى لم تحلل أسسها الاقتصادية" (نص الاشتراكية والإنسان).



كان تصوره للطليعة، والتى يقودها قادة نموذجيون، يدل على تفكير نقدى، لكنه غير مكتمل، حول دور ومكانة الحزب فى علاقاته مع المنظمات الجماهيرية. كان يسخر وهو يقول: "لقد سبق للحزب أن قرر ذلك، وما عليك إلا أن تتحمله" ويؤكد: "يجب علينا ألا نخلق مأجورين خاضعين للفكر الرسمى ولا "بورصويين" يعيشون تحت حماية ميزانية الدولة وهم يمارسون حرية مشكوكا فيها".

لكنه لم يكن يحلل مساوئ الحزب الوحيد/حزب الدولة: فتجربته لست سنوات فى قيادة الدولة الكوبية كانت جد قصيرة. فقد وسمته الحرب والنزاع الجسيم مع واشنطن، وكذا خصوصيات التجربة الكوبية. وفى سييرا مايسترا، عارض الجناح المدنى لحركة ٢٦ يوليو المتماثل مع جناح يمينى، واتضح أن وجود ثلاثة تيارات مختلفة (M-26-7,PSP,Directoire) إلى حدود ١٩٦٥، كان عائقا أمام وحدة الثورة. ولم يتشكل الحزب الواحد إلا فى سنة ١٩٧٥ لفرط ما كان الاندماج صعبا. ففى أجواء الحرب لسنوات الثورة الأولى، كانت المقاومة هى كل ما يهم، أما التعددية فقد أرجئت إلى ما بعد.

لم يمنعه هذا من تطبيق تصور سياسى يختلف بصورة عميقة عن ذلك الذى أرساه النظام الجديد. فالشفافية سادت خلال الاجتماع الوطنى للإنتاج سنة ١٩٦١، وتم الإفصاح جهارا عن أخطاء المسئولين عنها. فقد صرح أمام ٣٥٠٠ إطار فى الحكومة: "ها أنتم تستقبلوننى بتصفيقات حارة، لكننى لا أدرى هل كمستهلكين أم كمتواطئين، وأظن أنه بالأحرى كمتواطئين".

كان الوحيد ذوكم من انتقادات تعرض لها - الذى خاض نقاشا علنيا ومتناقضا حول النظام الاقتصادى للبلاد فى مجلة وزارة الصناعة. هذه

الأخيرة، فضلا عن ذلك، كانت ملجأ لكل أولئك الذين أزيحوا من مسئولياتهم: هكذا، فقد أدمج فيها وزير الاتصال سابقا أولتوسكى الذى أزيح من الحكومة فى يوليو ١٩٦٠. والطرفة لها دلالة خصوصا وأن تشى كان قد دخل فى جدال عنيف مع اولتوسكى خلال الانتفاضة. هذا الأخير كان عضوا فى الجناح اليسارى لـ M-26-7وكان معروفا بعدائه الشديد للاتحاد السوفيتى، فى الوقت الذى كان فيه التقارب مع البلد مطروحا فى جدول الأعمال. وعلى النحو ذاته، رفض تشى أن يتنازل لضغوطات قائد نقابى كان يطالب بتسريح مستخدم فى البنك متهم بمناصرته لباتيستا، وشهر ببداية المضايقات والملاحقات المنظمة وهو يدافع عن شرف هذا المستخدم.

وفى نص جد معبر، ذكر تشى بالأخطاء التى رأى أنه ارتكبها فى حق "الجبهة الثانية لاسكامبراى" التى تركت جانبا إبان الزحف على هافانا، وهى أخطاء يعتقد أنها كانت السبب فى انصراف أطر عديدة. هذه الأفكار المفعمة بروح النقد الذاتى حول العلاقات الوحدوية قبل الاستيلاء على السلطة، هى الوحيدة التى ثم نشرها إلى ذلك الحين.

كان آنذاك أكثر وعيا من أى قائد آخر فى العالم الثالث بعيوب "الاشتراكية القائمة فعلا". كان معارضا للخطاب المرموز لرجال الجهاز الحاكم فى الاتحاد السوفيتى، ولا يتردد فى تقديم انتقادات علنية وعنيفة: ففى الخطاب الذى ألقاه فى الجزائر سنة١٩٦٥ (آخر خطاب رسمى يلقيه بصفته مسئولا كوبيا) أمام المؤتمر الإفريقى - الآسيوى المنعقد آنذاك، شهر بـ"التواطؤ الضمنى" للقيادة السوفيتية مع الاستغلال الأمريكى والإبقاء على تبادل لا متساو. إن استشعاره بالمشاكل الهائلة التى قد تعترض بناء الاشتراكية فى جزيرة واحدة وبضرورة انتصارات



ثورية أخرى، هو الذى دفعه أيضا، فى رسالته إلى مؤتمر القارات الثلاث، إلى إطلاق شعاره الشهير "خلق فيتنامين أو ثلاثة"... والذى غالبا ما تقدم عنه صورة كاريكاتورية. كان ناقما على "حرب الشتائم والشغربيات التى كانت بين أقوى دولتين فى المعسكر الشرقى"، ويتملكه "الأسى لهذه اللحظة اللامنطقية التى تعيشها الإنسانية" أمام "العزلة الفيتنامية". وبنفاذ بصيرته، كان تشى يتقدم التطور التاريخى متوقعا الأخطار التى تحذق بالانتفاضات المعزولة فى نظام عالمى تهيمن عليه، فى زمن الحرب الباردة، كل من الإمبريالية والستالينية بصورة مأساوية، وكان موت هذه الأخيرة مرسوما فى مساره آنذاك.

فمنذ ١٩٦٢، بعد عام من الإعلان الرسمى عن الطابع الاشتراكى للثورة الكوبية، وسنتان بعد إرساء علاقات امتيازية مع الاتحاد السوفيتى، زعزعت أزمة الصواريخ ثقته فى متانة هذا التحالف وفى الوثوق من المساعدة. كان مكلفا بالتفاوض حول دعم موسكو العسكرى أمام خطر التدخل الأمريكى الذى يبدو أكثر فأكثر وضوحا بعد فشل خليج الخنازير سنة ١٩٦١. كان اقتراح وضع صواريخ نووية فى كوبا والذى تتحمل موسكو مسئوليته - يهدف إلى ثنى البانتاغون عن شن مثل هذا العدوان، لكنه فى الواقع كان يغير التوازن الذرى. فقرب التراب الأمريكى يزيد من حدة التهديد النووى ويمنح للهجوم السوفيتى، فى حالة نشوب خلاف، سرعة أكثر وينقص من فعالية الرد الأمريكى. وألح كينيدى على سحب الصواريخ تحت طائلة حرب نووية-حرارية. كان العالم على حافة الحرب، فقبلت الحكومة السوفيتية تدمير الأسلحة الهجومية.

لكن جرى سحب الصواريخ والمفاوضات بين خروتشوف وكينيدى وفق التقاليد البيروقراطية للدبلوماسية السوفيتية بدون أى استشارة كانت،



مع الازدراء الكامل بالسيادة الكوبية. وكانت مفاجأة الكوبيين واستياؤهم شاملين، وشكلت أزمة أكتوبر ("هذه الأيام المضيئة والحزينة" التى أشار إليها فى رسالة الوداع) دون شك أول ثغرة فى العلاقات السوفيتية-الكوبية.

وستزيد السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتى خصوصا الدعم الشحيح الذى قدمته للشعب الفيتنامى- من تقوية نظريته النقدية أكثر فأكثر إزاء المعسكر الاشتراكى.

لغز الرحيل

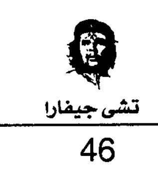
كيف نفهم رحيل تشى من كوبا؟ هل بالقناعة من استحالة تطور جزيرى؟ هل بتوقه إلى العودة ثانية إلى ساحة المعركة؟ هل بإرادته فى تكسير تبعية كوبا إزاء الاتحاد السوفيتى، بالاتفاق مع فيديل كاسترو؟ هذا التقسيم فى المهام بين رجل الدولة المسير والمكافح الثائر، ربما نتج عن توافق. لكن هذا تقسيم العمل هذا ليس كافيا للكشف عن التصدعات أو الخلافات التى سبقت رحيله، ولا يسمح بفهم تسلسل الأحداث لاحقا. فهل كان واعيا بالتقلص التدريجى لمكانته فى النظام السياسى الذى يشيده؟ كانت متطلباته تزعج الموظفين والأطر القياديين، وكان نمط حياته تحديا لهذا الجهاز الناشئ من الموظفين المحظوظين الذين ينتقد عدم كفايتهم. كان نقص الأطر كارثيا بالنسبة للتسيير الاقتصادى، ولكن تشى كان يتهم نفسه أيضا بمسئوليته فى الأخطاء المرتكبة: "علينا أن نقول بصراحة بأننا كلنا مذنبون. فهل تريد الطبقة العاملة أن تعاقبنا على هذا؟ فلتفعل، فلتعوضنا، فلتعدمنا رميا بالرصاص، فلتفعل ما تشاء. وهنا يكمن المشكل"،كان يعاتب القادة النقابيين الذين لا يحوز أغلبهم



على أية قاعدة جماهيرية، والذين يعتقدون بأن لا واجب عليهم بل فقط حقوق. ويؤكد: "يمكن للنقابات ألا توجد فى هذه اللحظة، وأن تنقل وظائفها إلى لجان عدالة العمل. وحدها البيروقراطية ستعترض، لأن ذلك قد يلزمها بالعودة إلى الإنتاج... فالمعنيون الرئيسيون يجيبون بأنهم قادة نقابيون منذ ١٨ سنة..."

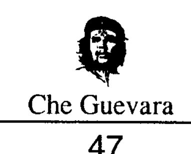
وعلى النحو ذاته، شهر باكرا بانحراف دور "لجان حماية الثورة" والتى يتهمها بكونها عشا للانتهازية. ويذكر عناصر الأمن بأن "مضادا-للثورة هو من يناضل ضد الثورة، أما الذى يستعمل هيبته للحصول على سكن ثم يحصل بعد ذلك على سيارتين، ويخرق نظام تحديد الاستهلاك، ويملك كل ما لا يملكه الشعب، فهو أيضا مضاد-للثورة".

إن السيرة الذاتية الحديثة لباكو إينياسيو تيبو توضح بجلاء ذلك التوتر المتنامى الذى يخلقه الفرق الحاصل بين نقص الموارد الاقتصادية والإنسانية واستعجال النمو بالنسبة لبلد يتعرض للعدوان. "إننا فى لحظة صعبة، ولن نسمح لأنفسنا بجزر الأخطاء، فقد يتاح ذلك بعد سنة. فمن ذا الذى سيسرح وزير الصناعة الذى وقع فى شهر نوفمبر الماضى على مخطط يتوقع إنتاج ١٠ ملايين من الأحذية وبعض الحماقات الأخرى؟. يبدو أنه كان يفنى جهوده فى نضال مضن، فيزيد من انتقاداته لنفسه وللآخرين بصدد سير عمل يتطلب "تنفيذا قاطعا، وواجبات لم تكن محط نقاش... وينتهى بنا الأمر إلى أننا لم نعد نعتبر الأشخاص كبشر، بل كجنود أو كأرقام فى حرب يجب أن نربحها فالتوتر أصبح على نحو لم نعد نرى فيه سوى الهدف... علينا أن نفعل شيئا لكى تصبح هذه الوزارة أكثر إنسانية".



كان تشى يناضل على جميع الأصعدة: ففى حين كان يحث على إعادة تنظيم الصناعة، كان يجادل على الصعيد النظرى باحثا عن اشتراكية أخرى، وهو مقتنع أكثر فأكثر بالفشل السوفيتى. لكن النقاش الاقتصادى الذى كان رهانه يتمثل فى إستراتيجية نمو الجزيرة- سينتهى بهزيمة تشى، وسيذهب فى رحلة طويلة. فخطابه النقدى جدا إزاء موسكو، والذى ألقاه فى الجزائر، جرى تلقيه بشكل سيئ جدًا، وهو ما تؤكده شهادات عديدة، ولن ينشر بكامله فى الصحافة الكوبية. ويؤكد أحد الملحقين بالسفارة السوفيتية منفى حاليا (ويفضل عدم الإفصاح عن اسمه) بأن الحكومة السوفيتية أعربت عن عدم قبولها صدور مثل هذا الخطاب من قائد كوبى. وبعد استقباله من فيديل كاسترو فى المطار، والذى ناقشه طيلة يومين تقريبا، لن يظهر تشى مذاك أبدا للعيان.

بعد مضى شهر، سيذهب تشى بشكل سرى إلى الكونغو. من الأكيد أن هافانا كانت، فى سنوات الستين هذه، تعتبر إفريقيا رهانا رئيسيا فى الخلاف بين العالم الثالث والإمبريالية. لكن يجوز الشك فى كون مشاركة تشى تدخل ضمن المشروع الأصلى: فعلاوة على المشاكل الدبلوماسية، لابد لوجوده من خلق مشاكل للقادة الأفارقة (بمن فيهم لوران ديزيرى كابيلا)، والذين لم يفتهم الإفصاح عن ذلك. ومهما كانت جرأة السياسة الخارجية الكوبية فى تلك الفترة ـ فقد كانت فعلا ذات جسارة خارقة -، لم يكن يبدو متوقعا وجود القائد الكوبى الرئيسى بعد فيديل كاسترو. فحسب تايبو، أشار تشى أمام جمال عبد الناصر فى فبراير ١٩٦٥ إلى مشاركته المحتملة فى المعركة الكونغولية، ثم تراجع بعد أن أقنعته حجج القائد المصرى. فكيف نشرح هذه الترددات وهذه التبدلات التى لا تتطابق مع شخصيته؟.



ستكفيه بعض الأشهر من الحضور لكى لا يقدر واقعية مشروعه بالنظر إلى ضعف حركة التحرر الإفريقية، وقرر تنظيم التراجع، وهو موقف يخالف اندفاعاته "الانتحارية". سيعارض اقتراح فيديل كاسترو بإرسال كوبيين إضافيين، وكان واقعيا وعمليا لما اعتبر الرحيل حتميا. ولن تنشر يومياته فى إفريقيا (كان عنوانها "مقاطع من الحرب الثورية: الكونغو") إلا جزئيا ثلاثون سنة بعد ذلك، كما تجهل مراسلاته مع فيديل.

سيمكث عدة شهور فى براغ "وهو مكان آمن يجب أن يقرر فيه ماذا سيفعل؟". وكان وجوده سريا لحذره من المخابرات السرية التشيكية. إننا لا نعرف شيئا عن أسباب هذه الإقامة الطويلة ولا عن رسائله مع فيديل. ثم سيعود خفية إلى كوبا لبعض شهور تدرب خلالها بشكل سرى.

كيف كان يجرى التحضير لذهابه إلى بوليفيا فى أواخر ١٩٦٦، كيف نفسر الدور المساند للحزب الشيوعى البوليفى رغم النزاع الذى طبع علاقاتهما سابقا؟ فقد سبق لاجتماع تشى سنة ١٩٦٤ فى كوبا مع زعيم جناح منشق عن الحزب الشيوعى البوليفى مؤيد للكفاح المسلح، أن أثار غضب الأمين العام ماريو مونجى. هذا الأخير سيعارض ويرفض القوى اليسارية البوليفية الأخرى قبل أن يتخلى عن حرب الغوار.

كيف نفسر الهفوات، أى "غياب الشفافية وغموض المشروع" حسب تيبو، ونحن نعرف صرامة تشى ودقته المتشددة؟ سيكتشف فرانسوا ماسبيرو لاحقا بأن ريجيس دوبرى، الذى كان بمثابة الدعامة الرئيسية للشبكة الخارجية، سيذهب فى رحلة لكشف الأماكن ودراستها، وهى مسئولية جسيمة بالنسبة لطالب فرنسى سيجرى التشكيك فى خياره.

فحسب تيبو، الذى يستشهد بتقرير للمخابرات الأمريكية، كانت هذه الأخيرة على علم باستعدادات رجال حرب العصابات منذ أواخر سنة

١٩٦٦. هل يكفى كل من التسلسل الفجائى للأحداث والاكتشاف المبكر لمعسكر التدريب الذى فرض معارك غير منتظرة، لتوضيح التطور الكارثى لتلك الحركة ونهايتها؟ لا أحد يستطيع اليوم أن يجيب على هذا السؤال.

تعرض تشى للجمود والتشويه لكنه ما يزال حيا، منتصرا ومنهزما، بعد سقوط حائط برلين، على أنقاض ثورات القرن العشرين. من أين تستمد رسالته قوتها؟ فهو رجل متمسك بقناعاته، كان يجسد احتقار السلطة ويعيد الاعتبار للسياسة. لم يوجد ولا يوجد نموذج جيفارى لبناء الاشتراكية، ولكن هناك بحث عن نمط اجتماعى آخر يكون فى صالح "من هم فى أسفل" وليس فى صالح "من هم فى الفوق" كما يقال اليوم فى أمريكا اللاتينية. فهو يحمل تصورا أخلاقيا للسلطة، وهو قائد سياسى من طراز جديد يطابق أفعاله مع أقواله وهو ناقد شرس للاشتراكية المنحرفة، وتعود حداثته إلى هذا المزج بين الإنسانية والنزاهة. "جيفارا القادم، المهزلة انتهت"، هذا ما سبق للمتظاهرين فى مونتيفيديو سنة ١٩٦١ أن صاحوا به.

مجلة انبركور. يوليو ١٩٩٧

■ ■ ■



3

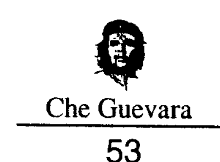
جيفارا
يصنع التاريخ

دائماً هناك علاقة بين العظماء والتاريخ. علاقة وثيقة تثير سؤالاً منطقياً غير أن الإجابة عنه ليست دائماً ميسورة، هل التاريخ يصنع العظماء أم أن العظماء هم الذين يصنعون التاريخ؟

وهل ما يقوم به الأفراد هو الذى يمثل النبع بالنسبة للتاريخ وهو منبع التطور التاريخى؟ أم أن للتاريخ وللحدث التاريخى سياقه و"حياته" وحراكه وقوانينه العامة التى تسبق أفعال الأفراد والعظماء وتؤسس لدورهم؟

تظل هذه الإشكالية، إشكالية دور الفرد "والعظماء" فى التاريخ، مثيرة للأسئلة ومفتوحة للنقاش. فهناك من يرى أن التاريخ لا يمكن له أن يصنع هو العظماء وأن الوقائع التاريخية تبقى دائماً مجرد وقائع يصح أن تقع فى أى زمان ومكان، لكن ما يكسبها النكهة الخاصة والأهمية هى ارتباطها بأشخاص بعينهم، أشخاص ليسوا عاديين ولكنهم " عظماء ".

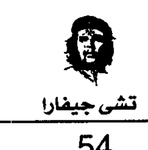
فالجواب مثلاً من الممكن أن تنشب فى أى وقت وبين أى جماعات وشعوب ودول. لكن ما يجعل حرب ما " تاريخية " بالمعنى الخاص لكلمة تاريخية، هو أن هذه الحرب أو تلك ارتبطت بقادة معينين وبأحداث لم تكن لتقع لولا هؤلاء القادة.



حـروب الإسكندر الأكبـر مـثـلاً أو حـروب نـابليـون أو حتى هـتلر، هـذه الحـروب كـان طبيـعيـاً أن تقـع ليس هـذا فقط بل وأن تقـع بين نفس الدول وفى نفس التاريخ. لكنها صـارت تاريخيـة عندمـا اقتـرنت بأسـمـاء هؤلاء، فهم بقراراتهم وتصرفاتهم وأقوالهم صبغوها بهذه الصبغة. والأمـر بالطبع لا يقتصـر على الحـروب والفـتوحات وحـدهـا بل يمتد ليشمل غيرهـا مـثل فـتـرة حكم ملك من الملوك أو رئيس مـن الرؤسـاء، بل وحـتى الثـورات فـهى من الطبيـعى أن تحـدث لكن ارتبـاط ثـورة مـا بـزعيم يحـمل صـفـات مميـزة تجعل ثورته أكثـر " تاريخيـة " من غيـرها من الثـورات. وهكذا الآثار التى تكتـسب تميـزها من كـونهـا ارتبطت باسم مـلك من الملوك وفكر خـاص وطبيعة فريدة.

إلا أن الأمـر لا يسيـر دائمـاً على نفس المنوال فـهناك أحـداث تخلق أفـراداً، أحـداث تدخل أفـراداً التـاريخ وتجـعل مـنهم زعـمـاء وعظمـاء. والأمـثلة على ذلك كثيـرة ترتبط فـى أكثـرها بالثـورات والحـروب وحـتى المصادفات التى تهب كرسى العرش لفرد ما فى بلد ذو طبيعة خاصة وفى تاريخ خـاص. هذه الأحـداث تكسب الفـرد وصـف " تاريخـى " دون أى تحرك أوعمل منه. وهؤلاء ما يمكن أن نطلق عليهم " زعماء بالصدفة ".

وإذا كـان لايمكن إنكار دور الفـرد فى التـاريخ. إلا أن الأفـراد وتأثيراتهم، كمـا يقول بليخـانوف فى كتابه "دور الفـرد فى التاريخ" مهمـا عظم شأنهم وقدراتهم ومواهبهم لا يستطيعون وحدهم أن يحددوا مجرى التطورات التاريخية والتغيرات الاجتماعية التى تحتكم بالأساس إلى قوى وظروف مـوضـوعية. فـأسبـاب هـذه التطورات والتغيـرات تكمن، تحـديداً، فـى العـلاقات الاجتماعية والاقتصادية واصطفافاتها الطبقية المتناقضة والمتوترة. (من الأمـثلة على ذلك: دور لينين كقـائد للثورة البلشفيـة، ودور



جمال عبدالناصر فى ثورة يوليو ١٩٥٢ والحركة القومية العربية فى القرن العشرين ودور فيدل كاسترو فى الثورة الكوبية وغيرها من الأدوار التى جاءت بعد اختمار الشروط الموضوعية واكتمال المقدمات المادية لعملية التغيير والثورة).

غير أنه قد تصبح شخصية الفرد وقدراته ومواهبه وكل ما يندرج تحت ذلك من صفات وسمات عاملاً فى التطورات الاجتماعية فقط إذا ما سمحت العلاقات الاجتماعية (تناقضاتها وصراعاتها) لهذه العوامل أن تفرز تأثيراتها، وإذا ما أتاحت هذه العلاقات المناخ ووفرت البيئة لفعلها. بعبارة أخرى، هناك "محدوديات" لدور الأفراد فى التاريخ والمجتمع، ومهما عظم شأن الفرد وقدرته، فإنه لا يستطيع أن يفرض أو يقيم أو يغير علاقات اجتماعية وتاريخية إذا لم يتوافق هذا مع الأوضاع وميزان القوى القائم فى المجتمع واتجاه حركته.

وفى الحقيقة فإن المجتمعات محكومة بضرورات، هى فى جوهرها اقتصادية، تقف خلف الحدث الذى قد يبدو أمراً عارضاً أو مجرد صدفة. وفى إطار هذه الضرورات، يكون من الضرورى أن تتم معالجة دور الأفراد والعظماء. فالقوى الانتاجية وتطورها هى السبب العام للتقدم التاريخى للإنسان والمجتمع وهى التى تحدد التغيرات المتتالية فى العلاقات الاجتماعية. إلا أن هذا لا ينفى أن الأحداث التاريخية قد تأخذ ملامح هذا الفرد أو القائد، أو أنها قد تتطبع بخصائصه وسماته، كما أن خصائص وشخصية وعقلية الأفراد ذوى التأثير تترك بصماتها العميقة على الأحداث وقد تغير ملامحها وربما بعضاً من نتائجها، إلا أن هذه الخصائص لا تبدل الاتجاه العام للتغيير والأحداث والتاريخ.



لكن الأقرب للصواب والمنطق هو أنه لو لم يجتمع الظرف الخاص مع الفرد الخاص لما كان هناك " تاريخ " ولا نقصد هنا مجرد التأريخ، بل نقصد الخلود وفى هذا الإطار يمكن فهم أنه ليس كل شخص مؤهل لأن يغير التاريخ، ولا كل حدث يمكن أن يكون تاريخياً. فهناك أشخاص وهم الغالبية العظمى والسواد الأكبر يعيشون التاريخ، وهناك على النقيض تماماً من هؤلاء أشخاص يصنعون هم التاريخ الذى يعيشونه ويعيشه غيرهم.

ومن هؤلاء كان " جيفارا" فكم من مئات الآلاف من البشر عاشوا فى الوطن الذى عاش فيه، والتوقيت الذى عاش فيه، ونفس الظروف التى عاشها. لكن هؤلاء جميعاً لم يكن لديهم التميز والتفرد فارتضوا أن يعيشوا الأحداث أو - بعبارة أدق - تعيشهم الأحداث. أما " جيفارا" فقد ثار وتمرد على هذا الوضع والخنوع للأحـداث، وأبى إلا أن يصنع هو الأحداث ويحركها وفق ما يشاء، أن يصنع التاريخ وليس مهماً أن يكتب التاريخ فيما بعد كما يريد جيفارا، المهم أن يصنع التاريخ.

ولاشك أن هذا لم يكن ليتوفر لـ "جيفارا" لولا تفرده بخصائص ميزته عن غيره، سواء خصائص فى العقل والروح. فى النشأة والتركيبة الذاتية له.

وإذا تحدثنا عن العوامل الذاتية فى نشأة إرنستو تشى جيفارا، سنجد أنه فيما يتعلق بالمنبت الطبقى فإن أسرة جيفارا تعود الى أصول ايرلندية (والده) وباسكيـــة (والدته). ويرى بعض المحللين أنه بالرغم من "أرستقراطية" عائلته إلا أنها أصبحت من الطبقة الوسطى فى الأرجنتين بسبب الخسائر المالية التى منيت بها. فبالرغم من أن جيفارا لم يعانى الفقر والجوع كغيره من أطفال أمريكا اللاتينية، إلاّ أنه أيضاً لم يعاشر أقربائه ولم يتفاعل مع وسطه العائلى، ولم يكن أصدقاؤه من ميسورى

الحال بل كان منفتحاً على كافة الفئات الاجتماعية وأكثر تقرباً من الفقراء والأشقياء منهم. وكان والدا جيفارا غير تقليديين فقد تعاطف مع القضايا السياسية والاجتماعية التقدمية التى عصفت بالأرجنتين والعالم فى تلك الآونة وتضامنا بشكل خاص مع مناضلى الحرب الأهلية الاسبانية (١٩٣٦ - ١٩٣٩). فبعد هزيمة الجمهوريين فى تلك الحرب وانتصار الديكتاتور فرانكو لاذ العديد من المناضلين الإسبانيين إلى الأرجنتين طالبين اللجوء السياسى. وقد ناصر والدا جيفارا هؤلاء اللاجئين وكان لهما الكثير من اللقاءات والاتصالات مع قادتهم السياسيين والعسكريين التى عايشها جيفارا خلال سنوات نشأته المبكرة وتأثر بها.

وهكذا نشأ جيفارا فى بيت لا يهتم بالقيم التقليدية وبقى جيفارا أميناً لنشأته هذه، فلم يكترث بالطقوس والتقاليد البالية ولم يهتم بالهندام فكان يكره ربطات العنق والجاكيتات والملابس الأنيقة ويرفض المشاركة فى الاحتفالات والمناسبات الاجتماعية، كما كان يحب المشى على الأقدام مسافات طويلة وقد عُرف بنزعته للفقر والعيش بدون نقود. وبذلك خلت حياة جيفارا من كافة المظاهر الرسمية المتحجرة كما تشهد على ذلك علاقاته مع الآخرين ومسلكه فى الاجتماعات واللقاءات الرسمية والدبلوماسية حين مثل الحكومة الكوبية فى منظمة الأمم المتحدة ومنظمة التضامن الأفرو. آسيوى ولقاءاته مع رؤساء الدول وغيرها من المنابر الدولية.

وقد لعبت والدة جيفارا دوراً مهماً فى حياة جيفارا وتنشئته هذه النشأة وفى تكوين وتشكيل شخصيته. وتنتمى والدة جيفارا " سيليا Celia" إلى

عـائلة كـاثوليكيـة ونشـأت فى بيـئـة مـتـدينة صـارمـة، إلاّ أنهـا انقلبت على معتقداتها وتدينها وتخلت عنها حين أحبت والد تشى الذى كان يتعاطف مع الحزب الاشتراكى. وقد تمت خطبة والدى جيفارا رغم معارضة وامتعاض أسرة والدته فكان أن تمرد العروسان على مراسيم الزواج التقليدية السائدة آنذاك.

وكانت والدة تشى واسعة المعرفة، خصبة المطالعة، وكانت بالإضافة إلى لغتها الأم - الإسبانية تتقن الفرنسية وعلى إلمام جيد بالإنجليزية. كانت طموحة ومثابرة وشديدة التصميم على الوصول إلى غايتها، فما أن شرعت بعمل إلاّ وأنجزته مهما تكلفت فى هذا من جهد أو تضحية ومهما بلغ الثمن. كانت جريئة ومقدامة لا تردعها مشقات الحياة ومخاطرها.

وقد أصيب الطفل إرنستو جيفارا بالتهاب الرئتين بعد ولادته ببضعة أيام وما أن بلغ الربيع الثانى من عمره حتى أخذ يعانى من مرض الربو الذى صاحبه طيلة حياته بنوباته المتكررة والتى كثيراً ما أقعدته الفراش.

لازمت الأم طفلها سنوات حياته الأولى حين كان يقعده المرض وكانت تقضى الساعات بجانبه حين كان يصارع نوبات الربو ويلتقط أنفاسه بكثير من العناء، كما كانت تعينه على القيام بواجباته المدرسية ومتابعة تعليمه. وهكذا توطدت العلاقة بين جيفارا وأمه وبقيت كذلك طيلة حياته حيث ثابر على مراسلتها باستمرار ومشاركتها همومه وإحاطتها علماً بأفكاره وطموحاته وأسفاره وتنقلاته.

وكان مرض جيفارا سبباً فى تنقلات عائلته المتعددة، حيث اضطرت العائلة للتنقل فى أماكن سكنها بحثاً عن طقس أكثر ملائمة لصحته أملاً فى التخفيف من وطأة نوبات الربو. كما كان للمرض وشدة نوباته المتكررة

أثر كبير على نمو الطفل إرنستو فكانت الكلمات الأولى التى نطق بها: "بابا، إبره"، مستغيثا بوالده أن يسعفه بحقنة الدواء كى يلتقط أنفاسه. وقد ولّد المرض فى تشى الصبر وشدة العزيمة وربما كان السبب فى أفعاله التى كثيراً ما كانت تطمح إلى تحقيق " الممكن الاقصى" إن جاز التعبير والتغلب على الصعوبات والعقبات التى تعترض سبيله، كما خلق لديه القناعة بأن الإنسان قادر، إذا ما توفرت الإرادة، على القيام بأى شىء. بالاضافة إلى ذلك، تعلم إرنستو الصغير التكيف مع المرض فكان يمارس نشاطاته وألعابه ورياضته رغم نوبات الربو القاسية حيث كانت تحدوه الرغبة فى مشاركة أقرانه اللعب واللهو.

كان المرض يرغم جيفارا على التزام الفراش ساعات بل أياماً عديدة مما وفر له فترات طويلة للقراءة التى صقلت شخصيته وأصبحت هوايته المفضلة وجزءً من طبيعته وعادة لازمته حتى فى أحلك ظروف حياته.

ومن بين العوامل التى ساعدت فى تشكيل وتركيبة "جيفارا" حبه الكبير للطبيعة. ويعود شغف جيفارا بالطبيعة والأدغال إلى طفولته المبكرة حيث قضى تلك السنوات فى شمال الأرجنتين. ولعل الفضل فى حبه للطبيعة يعود إلى والدية اللذين اختارا أن يقيما فى شمال البلاد إقليم (Misiones)حيث الطبيعة الخلاّبة والغابات الكثيفة. ويبدو أن جده أيضاً كان مولعاً بالطبيعة والمغامرة وكان جيفارا وهو طفل حريص على أن يقضى ساعات طويلة يستمع بشغف لوالده الذى كان يحدثه عن مغامرات جده بتفاصيل لم يفوّت الطفل منها شيئاً وتركت فى نفسه أثراً عميقاً.

وإذا كان كثيرين ممن كتبوا فى سيرة جيفارا يرجعون حبه للطبيعة وللهواء الطلق وفسحة المكان إلى إصابته بالربو وتعطشه الدائم للهواء



والتنفس بحرية. وهذا صحيح. إلاّ أنه تجدر الاشارة أيضاً إلى أن تنقلات أسرة جيفارا وإقامتها فى أماكن متعددة تتميز بالطبيعة الخلاّبة والهواء الطلق كان لها أثر كبير فى نشوء هذه النزعة لديه. فقد بقى حتى لحظة وفاته يتطلع دوماً للعيش فى الطبيعة المفتوحة والهواء الطلق رغم ما رافق ذلك من صراع متواصل مع نوبات الربو. وقد لازمت هاتان السمتان ـ التوق للطبيعة والصراع مع المرض ـ جيفارا فى كافة منعطفات حياته وشكلتا عاملاً حاسماً فى تكوينه النفسى.

ولقد أحب جيفارا تحدى الخطر وكان شغوفاً بتسلق المرتفعات والجبال والتلذذ بعبور الجسور خصوصاً إذا جرت من تحتها الأنهار. وقد تحلى بشجاعة نادرة، وليس غريباً أن منحه كاسترو، بعد فترة وجيزة من انطلاقة الثورة الكوبية، لقب "كوماندانتى" comandante وهو أعلى مرتبة عسكرية فى قوات الثورة آنذاك. وقد حفلت حياة جيفارا بالمواقف والأحداث التى تؤكد هذه الخصال. ولم تكن شجاعة جيفارا وإقدامه وحبه للمغامرة يسيطر عليها ويحركها التهور والرعونة فشجاعة جيفارا لم تدفعه للإقدام على الأخطار غير المحسوبة بل تحلت ثوريته بالتأنى والتعقل والشعور العميق بالمسئولية تجاه سلامته وسلامة رفاقه. إذ لم تكن الشجاعة لدى إرنستو جيفارا غايةً بحد ذاتها، بل وسيلة نضال من أجل القضية والثورة. لذا، سعى بحرص شديد، ومن منظور الاعتبارات الاستراتيجية والسياسية، إلى التحكم بالخطر بالمقدار الذى يستطيع أن يتعاطى معه. كان جيفارا يعقلن الخوف ليتغلب عليه ويتجاوزه كى يتغلب على المخاطر المحيقة به.

هكذا كان جيفارا جسوراً غير آبه بالمخاطر حين قرر العمل والإقامة فى مستشفى البرص فى أدغال البرازيل مع صديقه البرتو

جرانادو Alberto Granadoالذى رافقه فى رحلته الشهيرة عام ١٩٥٣ والتى أصبحت موضوع الفيلم الشهير "يوميات الدراجة النارية". إلاّ أن جيفارا لم يمتطى هذه المشقات بدافع المجازفة والمغامرة بل التزاماً ووقوفاً مع الفقراء والمرضى ورغبة فى التعرف على أوضاعهم وظروفهم المعيشية. كذلك لم يكن جيفارا مغامراً حين قرر الانضمام إلى قوات الثورة الكوبية، وحين صمد مع طلائعها طيلة سبعة أيام عسيرة وسط أعاصير شديدة فى ديسمبر ١٩٥٦على ظهر الياخت جرانما الذى نقل الثوار من الساحل المكسيكى إلى شواطئ كوبا وصولاً إلى جبال سييرا مايسترا Sierra Maestra فى جنوب شرقى كوبا حيث كانت قوات الديكتاتور الكوبى " باتيستا " بانتظارهم فى كمين أودى بحياة عدد كبير من المقاتلين ولم يُبقِ منهم إلاّ اثنى عشر رجلاً من أصل واحد وثمانين.

إلاّ أن هذا لم يحل دون التحامل على جيفارا خلال حياته وبعد مقتله. فقد أحاط بسيرته ومواقفه الكثير من التزوير المغرض سواء خلال مرحلة الثورة فى كوبا أو بعد مغادرتها لنصرة الشعوب الأخرى فى العالم الثالث وسعياً وراء مشروعه فى الثورة الأممية. وعلى ذلك فإن المقولات التى وصفت جيفارا بالمغامر، وخاصة حملته فى أدغال بوليفيا التى أودت بحياته، تجافى الحقيقة وتغفل الظروف الموضوعية التى أدت إلى عزلته فى أدغال بوليفيا وإعاقة وصول الإمدادات الموعودة ودور الحزب الشيوعى البوليفى وتعليمات القيادة السوفيتية وغيرها من ملابسات تلك المرحلة. كما أن هذه المقولات تتنكر لحقيقة أن جيفارا الذى كان قبل كل شىء، ثورياً ماركسياً واستراتيجياً عسكرياً مؤمناً بقدرة الجماهير ودور ومسئولية الفرد فى صناعة الحدث، كان يدرك بعمق دور الظروف والتطورات الموضوعية وسياقها التاريخى والاجتماعى.

لم يكن جيفارا عابثاً يركض وراء وهمٍ أو معركةٍ دون كيشوتية، بل كان صانعاً لمشروع ثورة تبدأ فى كوبا وتمتد لتطال الإنسانية بأسرها، كما كان قارئاً متفحصاً للتاريخ وحراك الشعوب وقوانين الصراع والتناقضات الاجتماعية والطبقية. أما عندما يحين وقت المواجهة مع العدو فقد كان جيفارا يدرك أن المقتل يكمن فى الخوف والتردد فكان ينفض هذه الأوهام ويلقى بكل ثقله فى المعركة.

أما عن المؤثرات الفكرية والثقافية فى حياة جيفارا فيأتى فى بدايتها التثقيف الذاتى. فقد نشأ جيفارا فى بيت يحب القراءة واقتناء الكتب فحوى منها ما يقارب مكتبة صغيرة. وشرع، بمعونة والدته وتشجيعها، فى رحلته مع الكتب منذ نعومة أظفاره، منذ أن كانت أمه، كما أسلفنا، تقضى ساعات طويلة تقرأ له وهو على فراش المرض. هكذا دأب جيفارا على القراءة باستمرار ودون كلل وفى كل لحظة تتاح له، حيث كان الكتاب جليسه الدائم ورفيق دربه، فإذا ما أصابته نوبة الربو وحالت دون مشاركته زملاءه فى الألعاب الرياضية، أخذ ركناً فى أطراف ملعب المدرسة وفى يديه كتاب يقرأه.

يذكر جيفارا فى مذكراته، التى كان حريصاً على تدوينها، أنه كان يتوقف خلال رحلاته فى المكتبات العامة فى البلدان التى يزورها حيث يقضى ساعات فى القراءة. وتشير وقائع استشهاده إلى أن الجنود البوليفيين عثروا على كتاب "الثورة الدائمة" لليو تروتسكى فى حقيبة جيفارا لحظة وقوعه فى الأسر.

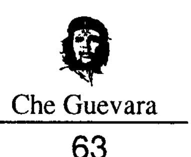
وقد شغف جيفارا بالشعر والأدب وأولاهما إهتماماً كبيراً. أخذ يقرأ بابلو نيرودا وهو فى الثانية عشرة من عمره وحفظ الكثير من قصائده عن ظهر قلب. كما قرأ لوركا وأنطونيو ماتشادا وغيرهما من شعراء

أمـريكا اللاتينيـة وكـان يـردد قـصـائدهـم على مـسـامع أصـدقـائه. ومن مشـاهيـر كـتاب أمـريكا اللاتينية طالع بنهم اوراسـيو كـيـروغا Horacio Quiroga وخوزى أينخـرينيـروس Jose Ingrenierosومن الكتاب العالميين قـرأ أناتول فـرانس. فى سن الخـامسـة عـشـرة قـرأ خـوزى مـارتـى (ملهم الثورة الكوبية ورمـزها فى القرن التاسع عشر) إضافة إلى المهاتما غاندى وماركس وانجلز وجون شتاينبك و"عناقيد غضبه".

قـال البـرتو جـرانـادو، الصـديق الحـمـيم لتشى والـذى رافـقـة فى رحلة الدراجـة النـارية، فى حـديث مع صـحـيـفـة جـرانما الكـوبيـة عـام ١٩٦٧، إن تشـى تـعـرف علـى مـفـاهـيم فـرويد فـى التـحـليل النفسـى منذ سن الرابعـة عشـر، ويبـدو أنـه قـرأ بعض أدبيـات التـحليل النفسـى (سـيـجـموند فـرويد وكـارل يونج والفـرد آدلر) والتى كـانت آنذاك فـى مـهـدهـا ولم يـكن يـلم بهـا الكثيرون من مثقفى أمريكا اللاتينية.

وبالرغم من أن جيـفـارا لم ينضم إلى أى تنظيم سـيـاسـى طلابى طيلة فتـرة الدراسـة الجامعية إلا أنه طالـع فـى أربعينيات القـرن الماضى مـاركس وستـالين وموسـولينى وسارتر، كما حظيت الثورة الصينيـة باهتمـامه. وفى سن التـاسـعـة عـشـرة، فـى مطلع التحـاقه بكلية الطب، عـمـد جيـفـارا إلى قـراءة الأدبيـات الماركسيـة ومناقشـتهـا مع صـديقته تيتـا Tita والتى كانت عضواً فى منظمة الشبيبة الشيوعية.

طالـع جيـفـارا خلال إقامته فى المكسيك (١٩٥٥ و١٩٥٦)، وكان قد بلغ من العمـر السـابعة والعشـرين، أعمال ثوار ذلك البلد مثل مذكرات بانتشو فـيـيا Pancho Villa ودرس أدبيات الثـورة المكسـيكيـة (١٩١٠)، كـمـا قـرأ مـعركة سـتـالينجـراد والحرب الكوبية والأدبيات الثورية المعاصـرة لشعـوب أمريكا اللاتينية والعالم الثالث والكاريبى.



فى سن السادسة والعشرين أخذ يلتقط الأدب الروسى الكلاسيكى فقرأ تولستوى وجوركى وديستويفسكى وطالع أفكار الثورى الروسى بيترو كروبوتكين Piotro Kropotkin وأعمال لينين ("ما العمل؟" و"الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية") وماركس (رأس المال) وماركس وإنجلز (البيان الشيوعى) وانجلز (أصل العائلة، الملكية الخاصة والدولة، من الاشتراكية الطوباوية إلى الاشتراكية العلمية)، كما قرأ العديد من مآثر الأدب الصينى وأدبيات ثورته.

غير أن قراءاته رغم تنوعها، لم تكن عشوائية بل كانت فى كثير من الأحيان جزءاً من مشروع تثقيف ذاتى. إلاّ أن التثقيف الذاتى لم يتبلور برنامجاً ولم يتخذ ملامح واضحة، إلا عندما احتلت دراسة الفلسفة والتاريخ موقعاً مركزياً فى اهتمامات جيفارا.

قرأ "تاريخ أوروبا المعاصر" فى ٢٥ مجلداً وشرع وهو فى السابعة عشرة من عمره، فى تنظيم قراءاته فى مجال الفلسفة، أحد فروع المعرفة التى كان يتوق إلى دراستها، فأخذ يدون ملاحظاته ويجمعها فى "معجم فلسفى" تكاثرت صفحاته حتى بلغت سبعة عشر دفتراً ما زالت محفوظة فى مركز دراسات تشى جيفارا فى هافانا.

كان جيفارا يتعطش لدراسة الفلسفة، ولكن ليس فى شكلها المجرد بل باعتبارها قوة قادرة على أن تحرك الممارسة العملية وتوجهها. بعبارة أخرى، أن ترشد أشكالاً من الفعل الواعى نحو غاياته وأهدافه وأن توجهه فى مشروع تغيير العالم والتغلب على محدودياته. فالفلسفة (والمعرفة بشكل عام) عند جيفارا أداة لتحقيق مشروع حياته، مشروع الثورة، ووسيلة لتحقيق قيم العدالة والإنسانية وإزاحة الظلم عن كاهل الفقراء

والوصول إلى "الإنسان الجديد"، وهى القيم التى ناضل من أجلها وتمثلت فى الانجازات التى حققها والأحداث التى ساهم فى صنعها.

ضمت "دفاتر" جيفارا الفلسفية بين دفتيها كافة فروع المعارف الفلسفية إلاّ أن أعمال ماركس وحياته تألقت مكاناً خاصاً فيها. وحيث أولى جيفارا إهتماماً خاصاً للمشاكل الاجتماعية وعكف على دراسة الماركسية فى تلك السن المبكرة، فقد رسّخ هذا فى وعيه فهماً للأسباب المادية والجذرية لتلك المشاكل، وهو النهج الذى رافقه طيلة حياته ورسم معالم فكره ونضاله. بالإضافة إلى دراسة الطب البشرى، انغمس تشى خلال سنوات دراسته فى مطالعة الأدبيات الماركسية وأقام حولها الكثير من الجدل مع زملائه ونشطاء منظمة الشبيبة الشيوعية فى بيونس أيريس.

جيفارا.. الطبيب والإنسان

لم تحظ حياة تشى كطبيب بكثير من الاهتمام وربما يعود هذا إلى أن جيفارا لم يلتفت إلى ممارسة مهنة الطب بالطريقة التقليدية، بل أراد الجمع بين هذه ومشروع الثورة. ومن هنا نشهد التحاقه بالثوار الكوبيين بفترة قصيرة بعد تخرجه من كلية الطب. إلاّ أن هذا لا يقلل من أن غايته من دراسته للطب جاءت تعبيراً عن نزعته الإنسانية ورغبته فى مد يد العون للمرضى والمحتاجين. وفى محاولة للتناغم بين الطبيب والثائر، أولى تشى عناية خاصة لدور الطبيب فى إعداد برنامج رعاية صحية فى خدمة الشعب. يقول تشى فى رسالة إلى أسرته، بعد تخرجه طبيباً بفترة وجيزة، إنه أخذ يعمل على تأليف كتاب بعنوان "وظيفة الطبيب فى أمريكا اللاتينية" وأنه قد انتهى من إعداد الفصلين الأولين، ليتابع قائلاً "وأعتقد أنه بشىءٍ من الصبر والمثابرة، فإننى أستطيع أن أقول شيئاً جيداً".



ويضم الأرشيف الشخصى لتشى جيفارا فى هافانا مادةً وفيرة كان تشى قد جمعها فى إطار الإعداد لمشروع كتابه هذا وقد شملت أربعة عشر فصلاً تعالج مواضيع مختلفة تتراوح بين تاريخ الطب العام وتاريخ ودور الطب فى أمريكا اللاتينية والحلول المقترحة لنظام رعاية صحية تعكس رؤية تشى لهذه المسألة:

. مهمة الطبيب فى المواجه المباشرة للنظام القائم والنضال من أجل إقامة نظام رعاية صحية فى خدمة الشعب والدور الرئيسى المناط بالطبيب فى هذا النظام.

. الحلول النهائية لمشكلة الرعاية الصحية و"النضال الثورى" المنوط بالطبيب من أجل خدمة الصحة العامة للشعب.

. مسئولية الطبيب فى فهم ودراسة الأوضاع الصحية فى المنطقة التى يعمل فيها وإقامة علاقة طيبة ووثيقة مع السكان.

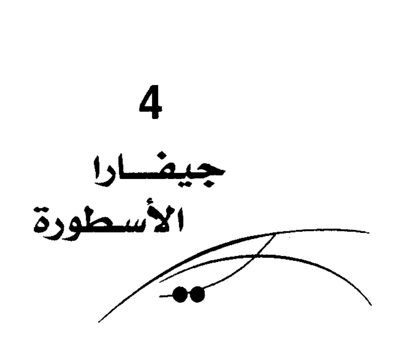
. رأى تشى أن علاقة الطبيب بالمريض لا بد أن تعزز تكوين الوعى الشعبى بأهمية الصحة والرعاية الصحية فى حياة الشعوب.

ويخلص تشى إلى أنه يجب على الطبيب، فى سعيه لايجاد الحلول الناجحة، أن يكون قبل كل شىء، ثورياً يناضل ضد كل أعداء الشعب الذى هو "السيد الوحيد الذى يعمل الطبيب فى خدمته".



4

جيفـــارا الأسـطورة



أن تكون إنساناً فهذا يشترك معك فيه الملايين من البشر فى كل بقاع الأرض وأنحائها، وفى كل العصور والدهور، وأن تكون شاعراً فهذا أيضاً يشترك معك فيه الكثيرون، ليسوا بالملايين ولكنهم ليسوا قليلين، وأن تكون سياسياً فلست وحدك فهناك عشرات الآلاف من السياسيين عرفهم التاريخ الإنسانى وخلدهم سواء فى الشرق أو الغرب ومهما اختلفت توجهاتهم وانجازاتهم. أما أن تكون ثائراً فلن تجد كثيرين يشتركون معك فى هذه الصفة، لكن ذلك لا يعنى أنهم قليلون جداً، فقد ذخر التاريخ على مر عصوره بأسماء ثوار عرفهم وخلدهم بما قاموا به فى صالح أوطانهم وتضحيتهم فى سبيل القضايا التى آمنوا بها. ثوار اعتبرهم البعض أبطالاً بينما اعتبرهم البعض الآخر مجرمين وقطاع طرق!

كل ما سبق من صفات ليس غريباً علينا ولا على التاريخ، وإذا كان الأمر غريباً أو نادراً بعض الشىء أن تجد إنساناً يجمع بين صفتين مما سبق. بأن يكون إنساناً وشاعراً وثائراً، أو ثائراً وسياسياً، أو سياسياً شاعراً. لكن أن يكون هناك إنسان ثائر وسياسى فى نفس الوقت وفوق ذلك شاعر وفيلسوف أو مفكر فهذا ربما يندر وجوده إلا فى أشخاص يكاد يكون عددهم قليل للغاية إن لم يكن موجوداً أصلاً.

ذاك هو جيفارا. فهو إنسان أعلن الثورة على الظلم والاستكبار واستغلال الإنسان للإنسان، وضع لنفسه هدفاً وحيداً فى حياته هو محاربة الظلم والتصدى له والثورة على كل قيود الاستعباد وإذلال البشر فى أى مكان فى العالم، ليس فى بلده فقط أو فى قارته وحسب، بل فى جميع أنحاء العالم، أينما يكون هناك ظلم واستغلال يوجد جيفارا الثائر.

وهو لم يكتفِ بأن يكون ثائراً جاهلاً أو عادياً بل كان ثائراً ذا فكر ورؤية ومنهج وربما نظرية. وفى نفس الوقت مارس العمل السياسى والالتحام بالجماهير والتخطيط للمشروعات وتنفيذها، شغل منصباً رسمياً " حكومى " فكان وزيراً. وفوق كل ذلك كان فيلسوفاً ومفكراً. وختم ذلك كله بأن كان شاعراً ذا إحساس مرهف.

هذا هو جيفارا الثائر السياسى المفكر والشاعر الذى استطاع أن يخلب ألباب الشباب ممن عاصروه وممن جاءت أجيالهم بعد وفاته أو بالأدق بعد اغتياله وإعدامه.

لم يكن جيفارا مجرد ثائر كافح من أجل تحرير أبناء وطنه من الظلم أو الاحتلال والاستغلال والفقر والجوع. لم يكن ثائراً التزم بحدود بلده دون أن يتجاوزها. فهو ثائر أممى، ثائر عالمى، ثائر إنسانى لا يعرف للحدود الجغرافية والسياسية قيمة ولم تمنعه من أن يتجاوزها ليصل إلى كل الشعوب الفقيرة المظلومة المحتلة التى تبحث عن حريتها. كان ثائراً فى أمريكا الجنوبية، وثائراً فى إفريقيا وتواجد فى آسيا. وبعد وفاته صار ثائراً فى كل قارات العالم. أفكاره وسيرته لا تعترف بالحدود المكانية والزمنية. ولا بلون البشر أو بلغاتهم. هو ثائر لكل البشرية يكافح لتنال حريتها وتتخلص من قيودالظلم والعبودية.

كل هذه العوامل وغيرها مثل تركيبته الشخصية وسماته التى تميز بها، وقبلها ملامحه وهندامه وغليونه وتصرفاته والطريقة التى عاش بها حياته. كل ذلك أدى إلى أن تتعلق أجيال بأكملها به وبأفكاره وكلماته وطريقته فى السير والحديث. تحول جيفارا إلى أسطورة تعشقها أجيال، الشباب والفقراء والبسطاء والفتيات. تحول إلى أسطورة تقتدى بها الزعامات والوطنيين فى العالم يسيرون على طريقه ويتتبعون خطواته.

صار ملهماً لخيال الأدباء والشعراء. حياته كانت منبعاً يقتبس منه الروائى والشاعر ليكتب رواية أو مسرحية أو قصة أو ينظم قصائد تبقى ببقاء ملهمها.

إن جيفارا يمثل الأسطورة التى تتطابق مع الحقيقة، أسطورة من لحم ودم وأنفاس تتلاحق ومشاعر تتفجر.

لم يكن يوم إعدام جيفارا هو آخر يوم فى حياته فهى امتدت إلى الآن ليتحول الرجل إلى ظاهرة وهوس. صوره نقشها الشباب على أجسادهم فتيان وفتيات حتى فى الولايات المتحدة نفسها عدوته اللدود. كلماته باقية فى أذهان الجميع. مواقفه لا تنساه ذاكرة التاريخ.

هذا هو جيفارا الذى أرادوا أن يقتلوه ويدفنوه فى قبر سرى محاولين القضاء عليه بما كان يمثله من بطولة وثورة، لكنهم أخطأوا فقد زادوه ثراء دون أن يعلموا، أرادوا طمس سيرته فخلدوها وهم لا يعلمون.

أما روحه فكانت لاذعة ساخرة من كل شىء حتى من نفسه، وقد أجمعت آراء من اقتربوا منه أنه كان يحمل داخله تناقضاً عجيباً بين الجرأة والخجل، وكان دافئ الصوت عميقه، كما كان جذاباً وعبثى المظهر كذلك.

مات جيفارا الطبيب والشاعر، عازف الجيتار والثائر والمصور الفوتوغرافى، وصائد الفراشات.. وترك خلفه أسئلة عديدة، يرى الكثيرون أنها لن يجاب عنها بسهولة قريباً. لم يمت الرجل مثلما أراد أعداؤه بل تحول إلى أسطورة وشبح يطاردهم فيسرق النوم من أعينهم ويحرمهم من الراحة والأمان.

ففى أحد أيام أكتوبر عام ١٩٦٧ ألقوا بجثته التى شوهوها فى قبر جماعى، تمنى القتلة ألا يأتى أحد لإعادة اعتبار القبر المجهول. اعتقدوا أنهم بتحطيم الرجل سيحطمون أسطورته، ولكنهم كانوا على خطأ.

ففى عام ١٩٦٨ أى فى العام التالى لاغتياله، غضب شبان العالم وخرجوا إلى الشوارع معلنين أنهم يستطيعون إنهاء الحروب وتغيير ملامح العالم. وقد تحول هذا الرجل الثائر بعد موته إلى شهيد لقضاياهم. أصبح يمثل أحلام ورغبات الملايين ممن يحملون صوره.

كان جيفارا يمثل مجموعة من التناقضات، وكأن الموت حول ملامحه، ما يوحى بأنه لو منحه أعداؤه الحق فى الحياة، لربما عجزت أسطورته عن احتلال هذا المدى العالمى الذى تنعم به اليوم.

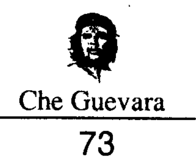
فى عام ١٩٦٤ كتبت صحيفة نيويورك تايمز: " وقف أمس الرجل ذو اللحية، والزى العسكرى الزيتونى، خارج قاعة الجمعية العمومية للأمم المتحدة، وأخرج من جيبه مطواة قطع بها الجزء المشتعل من سيجار "الهافانا" الذى كان قد دخنه حتى نصفه. وبعدما وضع نصف السيجار الذى لم يدخنه فى جيبه، دخل إلى قاعة الجمعية العمومية ليلقى خطاباً ملتهباً" ضد الاستعمار والامبريالية. ذلك الرجل هو تشى جيفارا. إنه الثورى الكامل الذى يندر أن يكون له مثيل.

هكذا كتب عنه الأمريكان رغم أنه لم يكن يكره شيئاً مثلما يكره الولايات المتحدة.

وربما كانت صورة جيفارا.. بخصلات شعره الطويل، ولحيته غير المشذبة والعيون الكبيرة الحزينة - واحدة من أعظم الصور الصحفية فى التاريخ، والأكثر استغلالاً تجارياً بالطبع. وبهذه الألفة الغريبة بين جيفارا ووسائل الإعلام (فى حياته ومماته)، فإنه يصبح من الصعب جداً نزع الهالة الاسطورية عن شخص، أصبح من العلامات البارزة فى النصف الثانى من القرن العشرين بعد الانتصار المذهل للثورة فى كوبا، وتحوّل - بسرعة - إلى رمز لقوى الثورة فى كل العالم؛ من إفريقيا إلى آسيا إلى أمريكا اللاتينية.. وحتى بين الشباب الأوروبى أيضاً.

كانت ملامح جيفارا الهادئة تتناقض مع كيانه الداخلى الثائر، فقد عرف عنه المثابرة فى العمل ولكن عفته الشخصية جعلته يصلح لممارسة العمل الاقتصادى بنقاء ونظافة كفه التى قلما تتوفر اليوم فى وزراء الغرب وأتباعه. أسطورة جيفارا بدأت بعدما نقلت جثته المضرجة بالدماء فى طائرة هليوكوبتر عبر الجبال إلى بلدة فالى جراندى الجرداء بعد أن قطعت يداه انتقاماً وأرسلت إلى كوبا.

وتتكامل ملامح الأسطورة فقد كان جيفارا بعيداً عن رذائل الفساد والمحسوبية التى كانت تميز زعماء أمريكا اللاتينية، فارضاً صورته كقائد زاهد، صارم مع نفسه كما مع الآخرين. والنوادر لا تحصى فى هذا الباب فقد كان يلغى المميزات التى تستفيد منها عائلته بحكم منصبه كوزير، وكان المرض هو ما يبرر به جيفارا سكنه المؤقت على شاطئ البحر والذى لا يسمح به أجره. لقد أدرك سريعاً ضرورة النضال ضد الامتيازات، حيث يعتبر أنه على المشروع الثورى أن يخلق قائداً خالياً من كل رذائل



الفساد والارتشاء، قائد تطابق أقواله أفعاله. ومن هنا جاء زهده الشخصى الذى كان بمثابة أسطورة.

كان تصلبه يفسر أحياناً بالتحليل النفسى، لكن ذلك كان ينم عن جهل ضرورة تجسيد السلطة الجديدة فى كوبا لقطيعة جذرية مع فساد النظام السابق. فالطبع يغلب التطبع، الأمر الذى يشهد عليه ما قام به بعض من رجال حرب الغوار فى حركة ٢٦ يوليو، بعد الانتصار الاستراتيجى من استيلاء على السيارات الفخمة لرجال بوليس الديكتاتورية ليلتحقوا بمدينة هافانا، وقد عاقبهم جيفارا على الفور. وهذه العقوبات الصارمة توصف اليوم بأنها مرتبطة بستالينية خاصة، وهى غولاغ المناطق المدارية. هكذا تم خلط كل شىء: فالانضباط المفروض فى حركة حرب الغوار تكافح ضد ديكتاتورية مدعومة من طرف واشنطن، وإعدام جلادى باتيستا فى ثكنة كابانا بعد الاستيلاء على السلطة، كلها مقدمات تدل على المنحى القمعى الذى يسير فيه النظام. وفى هذا كله يتم نسيان جيفارا وهو يعالج السجناء ويطلق سراحهم بعد ذلك، وكذا سخائه الزهيد لكن الشاسع.

■ ■ ■

5

الظلــم
يولد الثــورة

لا يمكن أن نقول إن جيفارا قد أصبح ثائراً هكذا مرة واحدة دون أن تكون هناك مقدمات لذلك وعلامات عليه منذ السنوات الأولى فى حياته وشبابه.

والحقيقة أن الطفل الصغير " جيفارا " الذى كان مريضاً بالربو وهو ما شكل على تحركاته وأنشطته قيوداً جعلته يتمرد عليها ولا يريد أن يتبعها، مما ساهم فى تكوين الشخصية المتمردة لهذا الطفل.

فمنذ كان عمره عشر سنوات، كان اتى تيب وهو اسم " الدلع " لجيفارا يحقن نفسه بالدواء عند الحاجة. قوة الإرادة عند الولد جعلته مغامراً: يقف على يديه على حافة الهاوية ولا يكتفى برياضات مثل المضرب والشطرنج، بل يحلم بلعب الركبى. علّمه اللعبة، ألبرتو جرانادو، صديقه الذى يكبره سنّاً. وصار اتى تيب لاعباً ماهراً، كثيراً ما يترك الملعب مختنقاً وباحثاً عن عبوة دواء الربو. إلا أن البداية الأولى لتفجر الثورة داخله كانت وهو فى سن الرابعة عشرة، وارنستو ما زال يركب الدراجات ويلهث وراء الفتيات وهو يطاردهن، تم القاء القبض على والدته، وتعرضت للتعذيب فى سجون حاكم الأرجنتين بيرون، وكانت الغربة قاسية جداً بالنسبة إلى ارنستو: أن يرى أمه، التى قضت السنوات

وهى تحافظ على صحته من الاعتلال والضعف، وتسهر الليالى قربه محاولة أن تخفف من زفير صدره، فجأة فى السجن، تعذب على أيدى بعض القساة، وهو لا يستطيع أن يفعل شيئاً ".

ولعله فى تلك الفترة، أدرك معنى الظلم. وشعر كم هو قاس أن يكون الإنسان مظلوماً، والآخرون ينعمون بالحياة.

لكن هذا التمزق الذى انتابه، كان مجرد عاطفة صبى فى الرابعة عشرة، لا يعى تماماً أبعاد القسوة والظلم والألم. ويقال إنه أراد أن يفجر الثورة والنقمة التى فى داخله على السلطات الحاكمة، فنزل إلى الشارع وتشاجر مع بعض زملائه، وأنه يومذاك نال علقة محترمة.

ولعب نفوذ العائلة دوراً كبيراً، فأفرج عن والدته بعد فترة قصيرة من سجنها.

أنهى أرنستو دروسه الثانوية، وكان عليه أن يختار بحكم انتمائه إلى عائلة بورجوازية، بين مهنتين: المحاماة أو الطب.

وحين سأله والده السؤال التقليدى:

هل تريد أن تكون طبيباً أم محامياً؟

كان جوابه سريعاً حيث اختار مهنة الطب.

فقد كان يعتقد أنه بالطب سيساعد كل مريض على التحرر من مرضه. ومن غريب الصدف، أن أرنستو سيختار التخصص فى الأمراض الحساسة التى يصعب مداواتها.

وعلى مقاعد الدراسة الجامعية، يكشف أرنستو شيئاً يختلف عن أبعاد وآفاق الطب الحديث وأسرار الجسم البشرى، حين يلتقى مع الأفكار

الثورية ويقرأ كتب ماركس ولينين وتروتسكى، بالإضافة إلى اطلاعه على الثورة الفرنسية ومفكريها.

كان أرنستو شغوفاً إلى حد كبير بقراءة أعمال ماركس ولينين وتروتسكى، وكان يفضل كتابات تروتسكى لأنها تحمل فى طياتها منابع الثورة الدائمة. وأدرك جيفارا أن الثورة الحقيقية التى ينشدها لا تقتصر على التحرر من أمراض الجسد ولا على التحدى الفردى للمصائب والظروف الطبيعية، بل الثورة الحقيقية هى الثورة الشاملة العميقة، التى تقلب تربة الأرض رأساً على عقب، لتزرع فيها الخصب والحياة الجديدة. وبقيت هذه الأفكار راسخة فى ذهن جيفارا، حتى انتهاء فترة التدريب العسكرى.

لكن نوعاً من الزهق والسأم ينتاب جيفارا، فيشعر معه بأن مهنة الطب ليست شىء، وأن شيئاً" ما ينقصه، شيئاً ما فى داخله يناديه لأن يخرج من بيئته الضيقة، فينطلق ويشاهد الناس.

أما البداية الحقيقية لطريق الثورة والتمرد على الظلم والفقر فكانت هى رحلته على الدراجة البخارية إلى عدد كبير من دول قارته أمريكا اللاتينية.

ففى مارس ١٩٤٧ عادت الأسرة إلى العاصمة ليلتحق الفتى بكلية الطب، وعند نهاية المرحلة الأولى لدراسته حين كان فى الحادية والعشرين من عمره قام بجولة طويلة استمرت حوالى ٨ أشهر على دراجة بخارية نحو شمال القارة مع صديق طبيب كان أكبر منه سناً وأقرب إلى السياسة.

ومن هنا بدأ استكشاف الواقع الاجتماعى للقارة، وبدأ وعيه يتفتح ويعرف أن فى الحياة هموماً أكثر من مرضه الذى كان الهاجس الأول



لأسرته؛ فرأى حياة الجماعات الهندية. وعاين بنفسه النقص فى الغذاء والقمع.. ومارس الطب مع عمال أحد المناجم وهو ما حدا بالبعض إلى أن يصفه بأنه من الأطباء الحمر الأوروبيين فى القرن ١٩ الذين انحازوا إلى المذاهب الاجتماعية الثورية بفعل خبرتهم فى الأمراض التى تنهش الفقراء.

وفى عام ١٩٥٣ بعد حصوله على إجازته الطبية قام برحلته الثانية وكانت إلى جواتيمالا، حيث ساند رئيسها الشاب الذى كان يقوم بمحاولات إصلاح أفشلتها تدخلات المخابرات الأمريكية، وقامت ثورة شعبية تندد بهذه التدخلات؛ ما أدى لمقتل ٩ آلاف شخص، فآمن الطبيب المتطوع الذى يمارس هواياته الصغيرة: التصوير وصيد الفراشات، أن الشعوب المسلحة فقط هى القادرة على صنع مقدراتها واستحقاق الحياة الأفضل.

وفى عام ١٩٥٥ قابل "هيلدا" المناضلة اليسارية من "بيرو" فى منفاها فى جواتيمالا، فتزوجها وأنجب منها طفلته الأولى، والعجيب أن هيلدا هى التى جعلته يقرأ للمرة الأولى بعض الكلاسيكيات الماركسية، إضافة إلى لينين وتروتسكى وماو.

إلا أن جيفارا غادر جواتيمالا عقب سقوط النظام الشعبى بها بفعل الضربات الاستعمارية التى دعمتها الولايات المتحدة، مصطحباً زوجته إلى المكسيك التى كانت آنذاك ملجأ جميع الثوار فى أمريكا اللاتينية. وفى المكسيك عرفته زوجته على رؤول كاسترو شقيق فيدل كاسترو زعيم الثورة الكوبية، والذى أعجب به وبأفكاره فعرفه بدوره بشقيقه فيدل. وقد كان قيام الانقلاب العسكرى فى كوبا فى ١٠ مارس ١٩٥٢ سبب تعارف

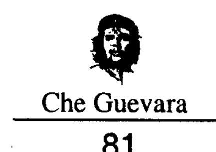
جيفارا بفيدل كاسترو الذى يذكره فى يومياته قائلاً: "جاء فيدل كاسترو إلى المكسيك باحثاً عن أرض حيادية من أجل تهيئة رجاله للعمل الحاسم"..

وهكذا التقى الاثنان، وعلى حين كان كاسترو يؤمن أنه من المحررين، فإن جيفارا كان دوماً يردد مقولته: "المحررون لا وجود لهم؛ فالشعوب وحدها هى التى تحرر نفسها". واتفق الاثنان على مبدأ "الكف عن التباكى، وبدء المقاومة المسلحة". لتحرير كوبا من الحكم الديكتاتورى المدعوم من الولايات المتحدة والذى يسوم المواطنين الظلم والذل.

وقبل التطرق إلى تفاصيل العلاقة بين جيفارا وكاسترو، وعلاقة الأول ودوره فى قيام الثورة الكوبية. نشير إلى أن الظروف الخاصة التى كانت عليها قارة أمريكا اللاتينية كان لها دور كبير فى ظهور الثائر داخل جيفارا.

فأمريكا اللاتينية تتكون من٢٠ جمهورية لكنها شهدت طوال تاريخها نحو٥٣٥ انقلاباً.

عشرون جمهورية تمتد على طول ١٥ ألف كيلومتر، وتحتل ١٥٪ من مساحة الكرة الأرضية. عانت ٣ قرون من السيطرة الاستعمارية. شهدت ٥٣٥ انقلاباً وأكثر من ألف حركة تمرد عسكرية خلال ١٥٠ سنة من الاستقلال، إذ نالت دول أمريكا اللاتينية استقلالها السياسى بين ١٨١٠ و١٨٣٠ وانتظرت كوبا وحدها حتى القرن التاسع عشر لتحصل على الاستقلال. ولأن الولايات المتحدة تعتبر دول القارة بمثابة حديقة خلفية لها فقد أعطت لنفسها الحق فى أن تتدخل فى شئونها ٢٣ مرة. نصف سكان أمريكا اللاتينية لا يصل دخلهم السنوى إلى ١٠٠ دولار. ١٤٠



مليون شخص منهم يعملون فى أسوأ الظروف بسبب سوء التغذية والمعاملة القاسية. وهناك ١٠٠ مليون أمى ومريض.

ولا يمكن مقارنة أى قارة أخرى بأمريكا اللاتينية، من حيث نسبة الأراضى الخصبة والصالحة للزرع، ومن حيث الثورات والامكانيات الطبيعية.

فنزويلا " تعرق " بالنفط المتدفق من آبارها.

وبوليفيا مليئة بمناجم القصدير.

وتشيلى غنية جداً بالنحاس.

والبرازيل وباراجواى محشوتين بالحديد.

والغويان مشهورتان بالألمونيوم.

ما هى إذن أسباب تخلف أمريكا اللاتينية؟

لأن الفارق بين ما تنتجه وما تستهلكه لا يستثمر بطريقة تغنى المجموع تدريجياً.

الموارد الأساسية لدول أمريكا اللاتينية هى الزراعة. لكن الزراعة تتقاسمها فئتان: الأولى، فئة الأغلبية الساحقة التى تشكل الفلاحين الصغار.

أما الفئة الثانية فهى فئة الملاك الكبار الذين يشكلون ١,٥ ٪ من السكان، ويحتكرون أكثر من ٥٠٪ من الأراضى.

الفلاحون الصغار يزرعون حقولاً متواضعة ويجهلون مختلف أنواع التقدم الفنى والتكنولوجى والزراعى. انتاجهم ضئيل، ويستدينون من المالكين الكبار ومن المرابين بفوائد مرتفعة جداً، تؤدى بهم أغلب الأحيان لأن يرهنوا محاصيلهم لفترة ٢٠ سنة.



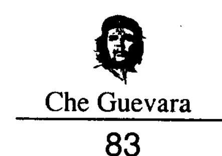
بالنسبة إلى المالكين الكبار، نجد أن لهم أنواع زراعة خاصة بهم: قصب السكر، البن والقطن. هذه الأصناف، هى للتصدير الخارجى لا لتغذية الأسواق المحلية الداخلية. والفائض المالى الضخم للمالكين الكبار، ينتهى على شكل أرصدة كبيرة فى المصارف الأجنبية أو فى الاستهلاكات المقرفة الضخمة كالقصور والخدم الذين لا يحصون، والسيارات العديدة، وما إلى ذلك.

ويلاحظ المتتبع لأحوال وأوضاع أمريكا اللاتينية، أن ليس هناك نزاعات مصالح أساسية بين الملاكين الكبار والرأسماليين ووجدت غالبية دول أمريكا اللاتينية، أن التعاون الوثيق مع الولايات المتحدة، إلى حد رهن الاستقلال الوطنى معها، هو أفضل طريق للاستمرار.

وهكذا، نرى أن الشركات الأمريكية الكبرى هى التى تسيطر على معظم اقتصاد دول أمريكا اللاتينية. وكانت هذه الشركات الضخمة تصدر القسم الأكبر من الأرباح إلى الولايات المتحدة، بدلاً من استثمارها فى مشاريع داخل دول أمريكا اللاتينية.

يقول جيفارا:

"لقد زرت لحد ما، كل بلاد أمريكا اللاتينية، ما عدا هايتى وسانتو دومينجو. وكانت الظروف التى أحاطت بترحالى، فى المرة الأولى كطالب، وفيما بعد كطبيب، سبباً فى تعرفى عن قرب بالفقر، والجوع، والمرض؛ بالعجز عن علاج طفل بسبب الحاجة إلى المال؛ بظلام العقول الذى يخلقه الحرمان المستمر والمعاملة القاسية، لتلك الدرجة التى يستطيع الأب فيها أن يقبل موت أحد أبنائه كأمر عادى غير مهم، كما يحدث غالباً فى الطبقات السفلى فى أمريكا موطننا الأم. بدأت وقتها إدراك أن



هناك أشياء كانت فى الأهمية بالنسبة لى مساوية لأن أصبح عالماً مشهوراً أو مساوية لتقديمى مساهمة كبيرة فى العلوم الطبية: أدركت أننى أرغب فى مساعدة هؤلاء الناس.

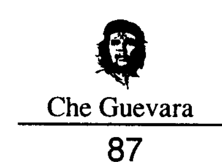
" كيف يمكن للمرء فعلاً أن ينفذ عملاً من أعمال الرفاه الاجتماعى؟ كيف يوحد المرء المسعى الفردى مع احتياجات المجتمع؟

■■■

6
جيفارا..
وفيدل كاسترو

لا يمكن التأريخ لسيرة جيفارا دون تناول العلاقة التى جمعت بينه وبين زعيم الثورة الكوبية فيدل كاسترو. فقد جمعت بين الرجلين علاقة خاصة تتميز عن غيرها من علاقات البشر بمميزات كثيرة. فكلا الرجلين لعب دوراً مؤثراً فى الثورة الكوبية ونجاحها، وكذلك لعب دوراً بارزاً فى حياة الآخر. فلولا اللقاء الذى جمع بين جيفارا وكاسترو فى المكسيك ربما لم يكن مقدراً للثورة الكوبية أن تتم أو أن تحدث فى العام الذى قامت فيه، وربما كذلك ما كان كتب لها النجاح. وفى نفس الوقت لولا هذا اللقاء لا ارتبط اسم جيفارا بالثورة الكوبية، أو على أقل تقدير لما أتيح له أن يكون دوره فيها محورياً وأساسياً. فكلا الرجلين تكامل دوره مع دور صديقه لإنجاح الثورة وصنع النموذج الثورى فى كوبا، ذلك النظام الذى تحدى الولايات المتحدة وما زال ولم يرضخ أو يركع تحت مخططاتها ومؤامراتها.

يمثل جيفارا وكاسترو حالة التمرد الفردى القصوى بين قوى الثورة فى العالم، بابتعادها عن الأحزاب والحركات المنظمة أو المؤطرة. كما يمثلان حالة الصراع أو الكره القومى المتطرف لدور الولايات المتحدة فى أمريكا اللاتينية خصوصاً. ولهذين السببين تحديداً فإن ساحة جيفارا -



ورفاقه - هى جميع دول أمريكا اللاتينية. وفى الحقيقة فإن الرجلين - جيفارا وكاسترو - يحملان قدراً كبيراً من الطاقة والاندفاع الثورى وكذلك العناد والصبر وغيرها من الخصال الفردية، التى تجعلهما يكرسان نفسيهما لمشروع تحرير أى دولة فى أمريكا اللاتينية - كوبا، جواتيمالا، بوليفيا، الأرجنتين - من الديكتاتورية والتبعية؛ إذ لا فارق جوهرياً - فى نظرهما- بين هذه الدول التى تجمعها اللغة الإسبانية والعقيدة الكاثوليكية والتهجين الجنسى والحضارى الواسع والعميق بين البيض والسود والأقوام الأصيلة، والذى يتجلى فى كل المظاهر الفنية والثقافية وحتى الدينية.

وإذ يقنع كاسترو بقيادة كوبا وبناء الاشتراكية فى هذا المكان من العالم، فإن شخصية جيفارا لا تحتمل المناصب والمهام الرسمية، أو المسئوليات الروتينية. إنه يبدو لاهثاً للقضاء على الامبريالية فى كل مكان، بعد أن اكتشف تعاطف الشعوب معه، من العرب إلى الآسيويين إلى الأفارقة.

ورغم متانة العلاقة إلا أننا لا يمكن أن نقول إن هناك تطابقاً فى شخصية الرجلين، فهناك تمايزات بينهما ظهرت فى مواقفهما وأراءهما فى العديد من القضايا لعل فى مقدمتها شكل علاقة كوبا بعد الثورة بالاتحاد السوفيتى. ففى حين فضل كاسترو أن تكون العلاقة قوية وأن يفتح كوبا أمام الاتحاد السوفيتى ليتمكن من بناء الدولة. فإن جيفارا اعتبر ذلك ارتماء فى أحضان الاتحاد السوفيتى وتبعية له. وكان يريد أن يكون لكوبا نموذجها المستقل عن الاتحاد السوفيتى.

كذلك فإن كاسترو قَبِلَ بعد نجاح الثورة أن يكون سياسياً ورجل دولة، على العكس مما فعل جيفارا الذى لم يشعر بالألفة بينه وبين العمل

السياسى، وكان يقول إن الثورة تتجمد والثوار يصيبهم الصقيع إذا ما جلسوا على مقاعد السياسيين.

وعلى حين كان كاسترو يؤمن أنه من المحررين، فإن جيفارا كان دوما يردد مقولته: "المحررون لا وجود لهم؛ فالشعوب وحدها هى التى تحرر نفسها". كان كاسترو منحازاً بشدة إلى الاتحاد السوفيتى، وكان يهاجم باقى الدول الاشتراكية.

كما اصطدم جيفارا بالممارسات الوحشية والفاسدة التى كان يقوم بها قادة حكومة الثورة وقتها، والتى كانت على عكس ما يرى فى الماركسية من إنسانية..

أيضاً حفلت العلاقة بين جيفارا وكاسترو بجانب من الضبابية وربما الاتهامات التى وجهت لكاسترو عقب الثورة بأنه قام بتصفية جيفارا وهو ما تأكد كذبه عندما أرسل جيفارا برسالة إلى كاسترو الذى أعلنها على الرأى العام. إلا أن الثابت واليقينى أن كلاً منهما يعتز اعتزازاً خاصاً بالآخر.

بداية العلاقة كانت فى المكسيك التى تحولت وقتها إلى ملاذ آمن لكل الثوار فى القارة. قبل اللقاء مع كاسترو كان جيفارا موجوداً فى جواتيمالا التى كان يحكمها زعيم وطنى. لكن تدخل الولايات المتحدة وتنظيمها انقلاب عسكرى ضد الحكومة الجواتيمالية عام ١٩٥٤ أطاح بها، على أثرها سافر جيفارا للمكسيك بعد أن حذرته السفارة الأرجنتينية من أنه مطلوب من قبل المخابرات الأمريكية. فى المكسيك التقى هناك راؤول كاسترو المنفى مع أصدقائه يجهزون للثورة وينتظرون خروج فيديل كاسترو من سجنه فى كوبا، ما إن خرج فيديل كاسترو من سجنه وتم نفيه



إلى المكسيك حتى قرر جيفارا الانضمام للثورة الكوبية فقد نظر إليه فيديل كاسترو كطبيب هم فى أمس الحاجة إليه.

يقول جيفارا عن لقائه بكاسترو:

" لقد تعرفت على كاسترو فى إحدى ليالى الشتاء الباردة التى تشتهر بها المكسيك، ومازلت على عهدى؛ أتذكر ما دار بيننا حول السياسة الدولية، وفى ساعات الصبح الأولى فى ذلك اليوم كنت قد تحولت إلى واحد من أعضاء حملة الفتح المقبلة.

وبعدما تركت البلاد وقد ساد بداخلى شعور بالمرارة مع جميع أبناء جواتيمالا باحثاً وساعياً فى ذات الوقت عن المنهج الذى يمكن من خلاله بناء مستقبل جديد لهذه الأمة التى غرقت حتى أذنيها فى عتمة الليل الطويل، وكان كاسترو قد أقبل إلى المكسيك باحثاً عن أرض تتسم بالحياد، لإعداد وتجهيز رجال من أجل القيام بعمل حاسم. ومنذ الدروس الأولى تولد بداخلى اعتقاد جازم بأننا سوف نفوز، (وأنا أقر هنا بأن النصر الذى كان قد ظهر أمامى مشكوكاً فيه عندما وضعت نفسى تحت تصرف قيادة الثورة، هذه القيادة التى جذبنى لها للوهلة الأولى رابط رومانطيقى كان مكوناً من المغامرة والاعتقاد والتعاطف، وذلك بأن مثلاً أعلى مثل الذى تعمل له الثورة هو جدير بأن يموت فى سبيله الفرد فى بلاد غير بلاده). ورغم ذلك لم يهتز - على وجه الإطلاق - ما بداخلنا من ثقة فى (فيدل كاسترو) وينبغى القول إن فيدل كاسترو وفقاً لما بيننا من صداقة قد صدرت عنه أشياء أوشكت أن تهدد موقفه الثورى، فلقد عرضت أمامه إمكانياتى الشخصية.

ويتابع جيفارا ذكر مواقفه مع كاسترو قائلاً: لقد كنت أجنبياً تسللت إلى المكسيك وعلى كاهلى أحمل اتهامات لا حصر لها وقلت له ينبغى -

على وجه الخصوص . ألا تتراجع المسيرة نحو الثورة من أجلى، وأنه يمكنه أن يخلفنى وراءه وأننى أقدر الموقف تقديراً سليماً وتداعياته السلبية ومن ثم سوف أحاول الانطلاق لميادين القتال أينما أرسلونى وكل ما أتطلع إليه هو أن يرسلونى إلى أى بلد قريب على ألا تكون الأرجنتين، وأنا ما زلت أتذكر الجواب القاطع الذى أجابنى به فيدل كاسترو " لن أتخلى عنك أبداً " وكان ذلك بالفعل، فبعد مرور وقت قليل وحفنة بسيطة من المال، وكلاهما عزيز، أخرجونا من السجن المكسيكى، إن سلوك فيدل نحو الذين يقدرهم يفسر فى ظنى ذاك التعلق غير المشروط الذى نراه فى أتباعه، وهو تعلق يختلط فيه الالتزام بالقيم والمبادئ مع أهمية الولاء للشخص ولهذا السبب نرى هذا الجيش الثائر عبارة عن كتلة واحدة مترابطة متوحدة كأنها رجل واحد.

بعد ذلك دخل الثوار كوبا على ظهر زورق وخسروا نصف عددهم فى معركة مع الجيش احتاج بعدها الثوار فترة لإعادة لم شملهم ومعالجة جرحاهم وبدأ أول هجوم يشنه الثوار ليبرز تشى جيفارا كقائد ومقاتل شرس جداً لا يهاب الموت وسريع البديهة يحسن التصرف فى الأزمات لم يعد جيفارا مجرد طبيب بل أصبح قائداً برتبة عقيد وشريك فيديل كاسترو فى قيادة الثورة. أشرف كاسترو على استراتيجية المعارك وقاد جيفارا وخطط للمعارك. عرف كاسترو بخطاباته التى صنعت له للثورة شعبيتها لكن كان جيفارا خلف أدلجة الخطاب وإعادة رسم ايديولوجيا الثورة على الأساس الماركسى اللينينى.

بعد نجاح الثورة صدر قانون يعطى الجنسية والمواطنية الكاملة لكل من حارب مع الثوار برتبة عقيد ولا توجد هذه المواصفات سوى فى جيفارا الذى عين مديراً للمصرف المركزى وأشرف على تصفية خصوم



الثورة وبناء الدولة فى فترة لم تعلن فيها الثورة عن وجهها الشيوعى وما أن أمسكت الثورة بزمام الأمور وبخاصة الجيش قامت الحكومة الشيوعية التى كان فيها جيفارا وزيراً للصناعة.

لم يحاول كاسترو، خلال نضاله للوصول الى الحكم، أن يعطى حركته عقيدة معينة، اذ أن النضال كان كل شىء بالنسبة اليه. لكنه بعد وصوله مباشرة، طرح عقيدة خاصة تحمل اسم العقيدة الإنسانية وقد عرفها بأنها الطريق الثالث بين الرأسمالية والشيوعية وقال عنها: ليست ديكتاتورية فرد، ولا طبقة، ولا فئة من الناس، إنما حكم الشعب للشعب، إنها الحرية والخير دون الرعب.

لكنه بعد اشهر قليلة تخلى عن هذه العقيدة الإنسانية، وبدأ يميل نحو الشيوعية، بدافع من جيفارا. وقد بلغت ذروة ارتباطه بالعقيدة الماركسية حين اعلن فى خطابه الشهير فى كانون الاول ١٩٦١: أنا ماركسى لينينى.

وبدافع من جيفارا أيضا، اصدر كاسترو قانون الاصلاح الزراعى فى كوبا. كان جيفارا يقول: إن الاصلاح الزراعى هو حجر الزاوية فى أية ثورة. فليست هناك حكومة يمكن أن تصف نفسها بأنها حكومة ثورية، اذا لم تنفذ برنامجا جذريا للإصلاح الزراعى.

فى ١٧ مايو ١٩٥٩ أبرمت الحكومة الكوبية الإصلاح الزراعى. ولم يبق للاجانب سواء اكانوا ممثلين لشركة او بصفة شخصية أى حق بالحصول على اى ذرة من الأرض الوطنية. وقد الغيت الملكيات الكبيرة ولم يعد يحق للشخص أن يملك أكثر من ٤٠٠ هكتار. وحتى فى هذه الحالة، لا بد من توفر شرط: إن هذه الأرض، بهذه المساحة، تعطى لمالكها الحالى اذا حرثها واستغلها. ولا يستطيع أحد أن يملك فى وقت

واحد زراعة لقصب السكر ومركزا لصناعة السكر. فإذا حدث ذلك، احتفظ الزارع بالمصنع وخسر الزراعة. وحين تصادر الدولة شركة أو املاك شخص، تدفع له تعويضا بواسطة سندات. ثم يعاد توزيع الأراضى المصادرة توزيعا وطنيا.

لكن روح الثائر داخل جيفارا ومواقفه من تحول الثوار إلى رجال دولة دفعه إلى أن يتخلى عن أى مسئوليات رسمية ليعود مرة ثانية إلى حياة الثوار. فهو لايرى نفسه إلا ثائراً نذر نفسه للدفاع عن الفقراء والمحرومين ومقاومة الامبريالية الأمريكية والديكتاتورية.هنا قرر جيفارا مغادرة كوبا متجهاً إلى الكونغو الديمقراطية، وأرسل برسالة إلى كاسترو فى أكتوبر ١٩٦٥ تخلى فيها نهائياً عن مسئولياته فى قيادة الحزب، وعن منصبه كوزير، وعن رتبته كقائد، وعن وضعه ككوبى، إلا أنه أعلن عن أن هناك روابط طبيعة أخرى لا يمكن القضاء عليها بالأوراق الرسمية، كما عبر عن حبه العميق لكاسترو ولكوبا، وحنينه لأيام النضال المشترك.

وبعد أشهر من حروبه المتعاقبة، نشرت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية شائعات تدعى فيها اختفاء إرنستو تشى جيفارا فى ظروف غامضة ومقتله على يد زميله فى النضال فيديل كاسترو ما اضطر الزعيم الكوبى للكشف عن الغموض الذى اكتنف اختفائه من الجزيرة للشعب الكوبى فأدلى بخطابه الشهير الذى ورد بعض أجزائه ما يلى:

لدى هنا رسالة، كتبت بخط اليد، من الرفيق، إرنستو جيفارا يقول فيها: أشعر أنى أتممت ما لدى من واجبات، تربطنى بالثورة الكوبية على أرضها، لهذا أستودعك، وأستودع الرفاق، وأستودع شعبك، الذى أصبح شعبى. أتقدم رسمياً باستقالتى من قيادة الحزب، ومن منصبى كوزير،

وعن رتبة القائد، وعن جنسيتى الكوبية، لم يعد يربطنى شىء قانونى بكوبا. هناك أماكن أخرى فى العالم بحاجة إلى جهودى المتواضعة. وأستطيع أن أحقّق ما لا تستطيعه أنت، بسبب مسئوليّتك فى كوبا. سأنقل إلى ساحات النضال الجديدة الروح الثورية التى هى أقوى سلاح فى وجه القوى الأمريكية المسيطرة.

أريد أن أقول لك وللشعب الكوبى الذى تبنّانى أشياء كثيرة ولكنّى أحسُّ بأنَّ هذا ليس ضرورياً فالكلمات لا تستطيع أن تعبّر عن مشاعرى فى هذه اللحظة".

أكدت هذه الرسالة إصراره على عدم العودة إلى كوبا بصفة رسمية، بل كثائر يبحث عن ملاذ آمن بين الحين والآخر.

يتحدث كاسترو عن جيفارا فيقول:

" إذا أردنا أن نعرف كيف نريد أن يكون أبناؤنا، يجب أن نقول من عماق قلوبنا كثوار، إننا نريدهم أن يكونوا مثل جيفارا."

لم يكن كاسترو لينسى رفيقه جيفارا حتى بعد مرور السنوات وتقدم كاسترو فى العمر، فقد كان حريصاً أن يتحدث فى كثير من المناسبات عن رفيقه. ومن أمثلة ذلك ماقاله فى أكتوبر ٢٠٠٧ فى ذكرى مرور ٤٠ عاماً على رحيل جيفارا:

" أُجرى وقفة فى معركتى اليومية لأنحنى باحترام وإجلال أمام المناضل ما فوق العادى الذى سقط فى الثامن من أكتوبر، قبل أربعين عاماً من اليوم. تقديراً لما تركه لنا من قدوة ونموذج إلى جانب طابوره الغازى، الذى اجتاز الحقول الوحلية إلى الجنوب من محافظتى أوريينتى وكماجويه سابقاً والقوات المعادية تلاحقه، محرر مدينة سانتا كلارا،

مبدع فكرة العمل التطوعى، ومنفِّذ مهمات سياسية مجيدة فى الخارج، وحامل رسالة الأممية الملتزمة إلى شرق الكونغو وإلى بوليفيا، وزارع الوعى فى قارتنا الأمريكية وفى العالم.

أشكره على ما حاول أن يفعل ولم يتمكن منه فى البلد مسقط رأسه، لأنه كان وردة اقتُلعت من ساقها قبل الأوان.

لم يتخلّ عن أسلوبه الفريد ولا يلتبس على أحد فى كتابة كل تفصيل يمر فى ذهنه، بأناقة واقتضاب والتزام بالحقيقة. كان قدَره مكتوب مسبقاً، ولكنه لم يكن على دراية بذلك. حارب معنا ومن أجلنا.

أما جيفارا فكان يحمل فى قلبه حباً وتقديراً خاصاً لرفيقه فى الكفاح كاسترو، وخير مثال على ذلك رسالة الوداع التى أرسلها جيفارا إلى فيديل كاسترو عام ١٩٦٥ وهى كالتالى:

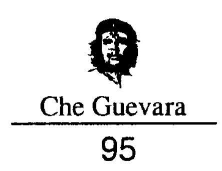
هافانا... "عام الزراعة"

فيدل:

يحضرنى فى هذه اللحظة العديد من الأشياء، عندما تعارفنا فى منزل ماريا أنتونيا، عندما اقترحت على المجئ، من بين كل توتر التجهيزات.

لقد تساءلنا ذات يوم عن الشخص الذى يمكن أن نخبره فى حالة الموت وصعقتنا امكانية حدوث ذلك بالفعل. بعد ذلك عرفنا، أنه كان مؤكداً، أنه فى الثورة إما النصر أو الموت (لو كانت حقيقية). ويمكث العديد من الزملاء على الطريق نحو النصر.

واليوم أصبح صوتنا أقل تأثراً لأننا أصبحنا أكثر نضجاً، لكن الحدث يتكرر. أشعر أننى قمت بالجزء الخاص بواجبى تجاه الثورة الكوبية فى أراضيها وأودعك، وأودع الأصدقاء، وأودع شعبك الذى أصبح شعبى.



وأتقدم رسمياً باستقالتى من مهامى أمام إدارة الحزب، من منصبى كوزير، من رتبة القائد، من جنسيتى ككوبى. لا يربطنى أية قانون بكوبا، فقط روابط من نوع آخر لايمكن قطعها مثل التعيينات.

وإذا ما تذكرت حياتى السابقة، أعتقد أننى قد عملت خلالها بنزاهة وإخلاص لإحراز النصر الثورى.

ولعل خطئى الوحيد الخطير إلى حد ما، هو أننى لم أثق فيك بشكل كبير منذ اللحظات الأولى فى سييرا مايسترا ولم أتفهم بسرعة كافية قدراتك القيادية والثورية.

لقد قضيت أياماً رائعة وشعرت بجوارك بفخر الانتساب إلى شعبنا فى الأيام المضيئة والحزينة لأزمة الكاريبى.

وفى مرات قليلة تألقت بشدة كرئيس الدولة فى هذه الأيام وأشعر بالفخر أيضاً لأنك استمريت بدون أن تهتز، وعرفت بأسلوب تفكيرك، رؤيتك وتقديرك للأخطار والمبادئ.

هناك أراضٍ أخرى فى العالم تطالب مشاركة جهودى المتواضعة.

أستطيع أن أعمل ما ترفضه أنت نظراً لمسئولياتك تجاه كوبا ولقد جاءت لحظة انفصالنا.

تعرف أننى أعمل ذلك بمزيج من السعادة والألم، فسأرحل من هنا تاركاً أنقى أحلامى البناءة وأحب الأشخاص من كل الكائنات التى أحبها... وأترك شعباً تقبلنى كابن؛ وهو ما يؤلم جانباً من جوارحى. وفى أراضى المعارك الجديدة سأحمل معى اليقين الذى غرسته فى، الروح الثورية لشعبى، الشعور بالالتزام تجاه أقدس الواجبات؛ محاربة الامبريالية أينما وجدت؛ وهو ما يقوى ويشفى بشدة أية جروح.



أكرر أننى قد تحررت من أية مسئولية تجاه كوبا، ما عدا تلك التى تصدر عن مثالها. إذا ما وافتنى المنية فى أراضٍ أخرى، ستكون آخر أفكارى فى هذا الشعب وخاصة فيك. أتوجه إليك بالشكر على تعاليمك وعلى كونك نموذجاً سأحاول أن أخلص له حتى آخر تباعيات أفعالى. لقد كنت وسأظل انادى دائماً بالسياسة الخارجية لثورتنا. أينما أكون سأشعر بمسئولية كونى ثورى كوبى، وهكذا سأتعامل. لن أترك لأولادى ولزوجتى أشياءً مادية ولا يحرجنى هذا: يسعدنى أن أكون هكذا. لن أطلب شيئاً لهم لأن الدولة ستعطيعهم ما يكفيهم من أجل العيش والتعليم.

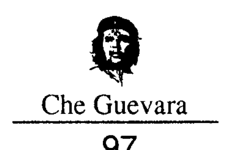
لدى الكثير كى أقوله لك ولشعبنا، لكننى أشعر بعدم جدوى ذلك، فالكلمات لن تعبر عن ما أريده، ولن يفيد استهلاك الأحبار.

إلى النصر دائماً، الوطن أو الموت

ولك منى حضن ثورى دافئ

تشى ١٩٦٥

■■■



7

جيفارا..
وثورة كوبا

رغم أن جيفارا لم يكن كوبياً ولم يكتسب الجنسية الكوبية إلا بعد نجاح الثورة. رغم ذلك إلا أن العلاقة وثيقة للغاية بين الاثنين (الثورة الكوبية وجيفارا) فقد لعب جيفارا دوراً كبيراً فى الثورة ونجاحها ويعتبره البعض الرجل الثانى فيها بعد قائدها فيدل كاسترو. وقد ارتبط اسم جيفارا بالثورة سواء فى مراحل الإعداد لها ومحاولاتها قلب نظام الحكم الذى يتولاه باتيستا المدعوم من الولايات المتحدة، أو بعد نجاح الثورة واستقرار الأمور والحكم للثوار. ففى الأولى قاتل جيفارا مع الثوار الكوبيين، وفى الثانية كان جيفارا أحد أركان نظام الحكم الذى أسسه الثوار وتولى عدة مناصب رسمية فيه، حيث كان وزيراً للصناعة والتخطيط وسفيراً متجولاً باسم الثورة الكوبية.

إذن هناك ارتباط وثيق جداً بين الثورة الكوبية وجيفارا لا يمكن تجاهله، ومثلما لعب جيفارا دوراً بارزاً فى حياة هذه الثورة، فإنها فى المقابل لعبت دوراً وشغلت مساحة كبيرة فى حياة جيفارا وأفكاره ومواقفه.

وقصة علاقة جيفارا بالثورة الكوبية بدأت عندما تعرف عن طريق زوجته برؤول كاسترو فى المكسيك ثم قام رؤول بتعريفه على شقيقه فيدل

كاسترو زعيم الثورة الكوبية والذى أعجب بجيفارا، لتبدأ بعدها العلاقة بالثورة الكوبية وكان ذلك فى صيف عام ١٩٥٦. فقد انضم جيفارا للثوار الكوبيين وصار واحداً منهم فى البداية كطبيب لكنه سرعان ما صار مقاتلاً معهم بالسلاح.

أثبت جيفارا بين الثوار فى الجبال الكوبية، براعته القتالية وكفاءته القيادية فى مواجهة الخطر باستعداد ألهم الجنود من حوله. أدرك كاسترو قدرة جيفارا على القتال، فكانت هذه الكفاءة مفتاح تحقيق النصر عام ١٩٥٩.

بعد ذلك، وافقت هيلدا على عرض الزواج وعرفته براؤول كاسترو الذى أعجب به، وقدّمه إلى فيديل الذى وصل المكسيك. كان فيديل يستمع إليه كل الليل، وعند الفجر يسرّ له بمشروع الإبحار فى اتجاه كوبا.

فى أغسطس، تزوّج هيلدا، وفى اليوم التالى سافر فيديل إلى الولايات المتحدة بحثاً عن المال والأسلحة وحوّل بريده إلى بيت جيفارا. مع سقوط خوان بيرون، قرّر ريكاردو العودة إلى الأرجنتين وحاول عبثاً إقناع جيفارا بالعودة معه، إلا أنه أبى وحمّله جيفارا رسالة إلى والدته.

عام ١٩٥٦، كان الكوبيون يتدربون على الرماية فى مزرعة قرب العاصمة المكسيكية مكسيكو سيتى. خلال النهار، كان اتشيب يعذّب جسمه فى محاولة تسلّق بركان مجاور، وفى الليل يلعب شطرنج مع جنرال إسبانى من الجمهوريين. فى ذلك الحين، رزق جيفارا باهيلدا الصغيرة إلا أنه لم يبق معها وقتاً طويلاً، إذ اكتُشف المعسكر واعتُقل الكوبيون، قبل أن يفرج عنهم بعد حملة تضامن فى المكسيك. إلا أن هيلدا

انتقلت مع ابنتها إلى بيرو، وعادت والتقت جيفارا فى بداية عام ١٩٥٩ قبل أن ينفصلا.

فى نهاية عام ١٩٥٦ أبحر ٨٢ مقاتلاً، يتقدمهم فيديل، إلى كوبا. إلا أن الجيش فاجأهم فور وصولهم، وبعد أيام قليلة قُتلت غالبيتهم ونجا أقل من عشرين. وبعد عشرة أيام، حقّق الناجون انتصاراً متواضعاً وحاسماً لمعنوياتهم. بعد أشهر، قسّم فيديل جيشه إلى فيلقين، يترأس بنفسه الأول، ويعيّن مسؤول الصحة جيفارا لقيادة الثانى. وكلما ازداد عددهم، كان يحدد فيديل جبهة جديدة وقائد فيلق جديداً، وهكذا تغلب فى أقل من سنتين بجيشه المؤلف من ٣ آلاف مقاتل على جيش من ٨٠ ألف جندى.

كان تشى جيفارا مشهوراً ببسالته وقساوته بحق نفسه ومأموريه. ولجمه فيديل أكثر من مرة لحفظ حياته وحياة رفاقه. إنجاز جيفارا الأهم هو معركة ثكنة شانتا كلارا حيث انتصر بـ٣٥٠ مقاتلاً على جيش من ثلاثة آلاف جندى مع قطار مصفح. وقّع الحدث جعل باتيستا يغادر البلد. وفى عام ١٩٥٩، بدأت جموع الثوار بالدخول إلى شوارع هافانا المحررة.

ويقول جيفارا بعد سنوات مضت عن لقائه بكاسترو، فى رسالة الاستقالة الشهيرة:

" خطأى الوحيد، يا فيديل، أننى لم أثق بك لحظات لقائنا الأول، ولم أدرك صفاتك الثورية النبيلة. "

ورغم الحذر الذى سيطر على اللقاء الأول بين جيفارا وكاسترو الثائر فإن كل واحد منهما كان يشعر بأنه محتاج إلى الآخر: جيفارا كان يرى فى



كاسترو الثائر الذى يريد أن يحقق ثورة فى بلده كوبا ويخلق من هذه الثورة نموذجاً للثورات الأخرى فى أمريكا اللاتينية، وكاسترو كان يرى فى جيفارا الإنسان الثورى الصافى الرقيق الاحساس المثقف والواسع الاطلاع.

ومنذ ١٩٥٦، حتى انتصار الثورة فى كوبا، ولحظة الفراق الأخيرة، كان جيفارا وكاسترو رفيقى نضال واحد مشترك، ورفيقى أحلام وآمال.

وعن الثورة الكوبية والأحداث التى سبقت نجاحها يروى

جيفارا فى كتابه " ذكريات الحرب الثورية " فصولاً عن الأحداث التى رافقت رحلة النضال الثورى ومهدت للانتصار.

ولعل من أبرز ما فى الكتاب، وما فى الذكريات ما رواه عن قصة الفشل الأول وقصة الانتصار الأول.

فى تلك الفترة، أظهر جيفارا براعة ونشاطاً لا حدود لهما، كان يشترك فى تجنيد الرجال الجدد، ويتولى تدريبهم على السلاح، وتلقينهم أصول وأساليب وتكتيك حرب العصابات، ويقرأ لهم كتب الأدب وسير الثورات ورجال التاريخ العظماء.

وكان جيفارا يؤمن بأن كتب الأدب وسير الأبطال ضرورية للثوار بقدر ضرورة البندقية والمدفع.

وكان يؤمن كل ما يطلبه الرجال والرفاق فقد أقام مصنعاً للقنابل اليدوية وأنشأ فرناً لصنع الخبز، نظم مدرسة لتعليم الفلاحين القراءة والكتابة، وكانوا يلجأون إليه حين يحتاجون إلى نصيحة ما، أويختلفون فى أمر من الأمور.

يروى جيفارا فى كتابه " ذكريات الحرب الثورية " قصة المعركة الأولى التى هزم فيها الثوار، وهى معركة " الغيريادى بيو ".



يقول جيفارا:

" فى ١٩٥٦، بعد تعرض زوق " جراما " للهجوم ومقتل معظم الرجال، ولجوئنا إلى الجبال " سييرا مايسترا "، اكتشفت قوات باتيستا المكان الذى نختبئ فيه، وهو مكان يعرف باسم " اليجريادى بيو ".

" كنا مرهقين بعد رحلة طويلة مؤلمة، وإن شئت الحقيقة، فقد كانت رحلة مؤلمة أكثر منها طويلة، مشينا ساعات لا تحصى عبر البرك والمستنقعات. وكنا نرتدى أحذية جديدة، وكنا جميعا قد أصبحنا مصابين ببثور والتهابات فى أقدامنا.

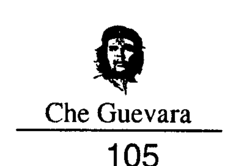
ولم تكن أحذيتنا الجديدة والنباتات الفطرية هى عدونا الوحيد على أية حال.

وكان كل ما بقى من معداتنا الحربية هو بنادقنا، وأحزمة الطلقات وكمية صغيرة من الذخيرة المبللة. وكانت مؤونتنا الطبية قد اختفت، وتركنا " جربندياتنا " فى المستنقعات وكنا قد قضينا الليلة السابقة فى أحد حقول القصب التابعة لمصنع نيكويرو للسكر.

استطعنا أن نهدئ من حدة جوعنا وعطشنا بمص أعواد القصب. ولم يكن الحراس الذين يبحثون عنا فى حاجة إلى أى أثر ليتعقبوا خطواتنا على أية حال.

فقد كان الرجل الذى عمل مرشداً لنا قد خاننا وكشف أمرنا كما اكتشفنا فيما بعد.

لقد تركناه يذهب وهذا هو خطأ ارتكبناه عدة مرات فى كفاحنا الطويل حتى تعلمنا أنه لا ينبغى عندما نكون فى مناطق خطرة، أن نثق فى أشخاص مدنيين نجهل سجلهم الشخصى.



عندما طلع علينا صباح يوم ٥ كانون الأول كنا لا نكاد نقوى على السير وعلى شفا الانهيار، حتى أننا كنا نسير مسافة قصيرة، ثم نتلمس فترة طويلة من الراحة.

وصدرت الأوامر بأن نتوقف عند أحد حقول القصب فى غابة قريبة من الأدغال الكثيفة. ونام معظمنا طوال ساعات الصباح.

وعند الظهر بدأنا نلاحظ علامات نشاط غير العادى. لقد بدأت طائرات السلاح الجوى من طراز " بايبر " مع نوع آخر الطائرات الصغيرة، إلى جانب طائرة خاصة، تحوم فوق المكان الذى نختبئ فيه. ومضى رجالنا يقطعون ويقصون أعواد القصب دون أن يدركوا أن رؤيتهم كانت واضحة تماماً من هذه الطائرات التى كانت عندئذ تحوم ببطء وعلى ارتفاع منخفض.

كنت أنا طبيب القوات وكان من واجبى أن أعالج الأقدام المصابة بالبثور. وما زلت أتذكر آخر مريض لى ذلك الصباح، كان اسمه " همبرتو لاموثى " وكان ذلك اليوم هو آخر يوم له فى الحياة. وما زلت أذكر كيف يبدو متعباً ومرهقاً وهو يمشى من المركز الذى أقمته للاسعافات الأولية إلى موقعه، وكان لايزال ممسكاً حذائه فى يده.

وكنت أنا والرفيق " الميدا مونتانى " نستند إلى شجرة ونتناول حصتنا الهزيلة من الطعام ذ نصف قطعة سجق وقطعتين من الخبز الجاف ذ عندما حطمت الصمت طلقة نارية وأعقبها مباشرة وابل من الطلقات نزل على قواتنا.

ولم تكن بندقيتى من أجود الأنواع، وكنت أنا قد طلبت هذه البندقية عمداً بسبب سوء حالتى الصحية نتيجة هجمات الربو الذى أزعجنى طوال



الرحلة فى البحر، ولم أكن أريد أن أتحمل مسئولية فقدان سلاح جيد. ولا أكاد أستطيع أن أتذكر ما حدث بعد الموجة الأولى من الطلقات النارية.

تقدم منى " الميدا " يطلب أوامر، ولكن لم يكن هناك من يصدر الأوامر، وقيل لى فيما بعد أن كاسترو كان يحاول عبثاً تجميع الرجال فى حقل قصب السكر المجاور الذى يمكن الوصول إليه ببساطة بعد عبور الطريق. وكان الهجوم المفاجئ بالإضافة إلى عنف النيران، أكبر من طاقتنا.

عاد " الميدا " ليتولى قيادة مجموعته، وألقى صندوقاً من الذخيرة عند قدمى، وعندما عاتبته على هذا العمل نظر إلى وعلى وجهه علامات الضيق، وتمتم كما لو كان يقول: أليس هذا الوقت الذى ينبغى أن ألازم فيه صناديق الذخيرة؟ ثم مضى فى طريقه نحو حقل قصب السكر واختفى. وقد قتله رجال باتيستا بعد قليل.

ربما كانت هذه هى المرة الأولى التى أواجه فيها مشكلة الاختيار بين إخلاصى للطب وواجبى كجندى ثورى. فهناك عند قدمى حقيبة مليئة بالأدوية وصندوق من الذخيرة تاركاً الأدوية وبدأت أعبر المكان المكشوف متجهاً إلى حقول قصب السكر. وأذكر أن " فوسينو بييز" كان راكعاً يطلق الرصاص من مسدسه الأتوماتيكى وبالقرب منى رفيق يدعى " أربونتوزا " كان يحاول الاتجاه نحو حقل قصب السكر.

وفجأة شعرت بضربة حادة فى صدرى وبجرح فى رقبتى. لقد أصابتنى إحدى رصاصات جنود باتيستا، وتصورت على وجه اليقين أنى ميت. وكان " اربنتوزا " يتقيأ وينزف دماء غزيرة من ثقب عميق أحدثته رصاصة من عيار ٤٥ ملليمتراً وكان يصرخ " لقد قتلونى " وبدأ يطلق نيران بندقيته بلا هدف محدد.



وانبطحت أرضاً واستدرت نحو " فوستينو" وقلت لقد أصبت ونظر إلى " فوستينو" وكان لا يزال يطلق النار وقال " لا يهمك " ولكننى استطعت أن أدرك من نظرته أنه يعتبرنى ميتاً بالتأكيد.

أطلقت رصاصة فى اتجاه الأدغال وأنا لا أزال منبطحاً على الأرض وكان ذلك بشعور غريزى مماثل لشعور الجرحى الآخرين. وبدأت على الفور أفكر فى أفضل طريقة للموت، وتذكرت قصة لجاك لندن حيث أن البطل، وقد أدرك أنه لا بد سيتجمد حتى الموت فى الأراضى المقفرة فى الاسكا استند بهدوء إلى شجرة واستعد ليموت بطريقة كريمة. وكان هذا هو الشىء الوحيد الذى خطر لى فى تلك اللحظة.

وسمعت رجلاً راكعاً على ركبتيه يقول إنه من الأفضل لنا أن نستسلم لكن صوتاً، علمت فيما بعد أنه صوت " كاميلو" صاح قائلاً: لا.. لا ينبغى أن يستسلم أحد هنا. وأعقب ذلك بكلمة من أربعة حروف. وأقبل أحد الرفاق وهو يجرى مسرعاً ويتنفس بصعوبة. وأرانى جرحاً أحدثته رصاصة، وكنت على يقين من أن الرصاصة لا بد أن تكون قد اخترقت الرئتين وقال لقد جرحت. فأجبته ببرود وأنا أيضاً ثم زحف الآخرون الذين لم يصابوا نحو حقل قصب السكر، وللحظة بقيت وحدى مستلقياً، انتظر الموت. لكن "الميدا " أقبل على وحثنى على التقدم باتجاه حقل قصب السكر.

ورغم آلامى القاسية، جررت نفسى إلى حقل القصب حيث رأيت الرفيق " راؤول سوريز" الذى أطارت ابهامه رصاصة بندقية.

ثم تحول كل شىء إلى خلية من الطائرات التى تحلق على ارتفاع منخفض وتضرب الحقل بنيران مدافعها الرشاشة، مما ضاعف الارتباك

والفوضى، وسط مشاهد مؤلمة ومشاهد تثير الضحك. كان هناك مثلاً أحد الرفاق الثقيل الوزن وهو يحاول بأقصى جهده أن يختبىء وراء عود واحد من أعواد القصب، بينما راح رجل آخر، وسط كل هذا الاضطراب يصرخ بلا سبب قائلاً: الصمت.

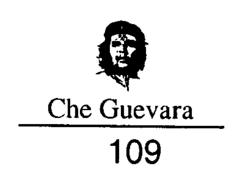
ونظمنا مجموعة بقيادة " الميدا " كانت تضم الملازم " راميرو فالديز" والرفيقين "شاو" و"بنيتيز". وعبرنا آخر ممر بين صفوف القصب ثم وصلنا بسلام إلى الأدغال. وفجأة سمعنا صيحات صادرة من حقل القصب: (حريق)! ورأينا السنة اللهيب وأعمدة الدخان ترتفع عالياً. ولا أستطيع أن أتذكر ماذا حدث بالضبط إذ كنت أشعر بمرارة الهزيمة، وكنت واثقاً من أننى سأموت. وواصلنا السير حتى خيم الظلام وأصبح من المتعذر علينا أن نستمر، فقررنا أن ننام متلاصقين معاً كرزمة واحدة. كنا نكاد نموت من الجوع والعطش، وضاعف البعوض من عذابنا.

كانت هذه أول معركة لنا فى ٥ كانون الأول عام ١٩٥٦ فى ضواحى نيوكويرو. وكانت بداية ما أصبح فيما بعد جيش الثوار.

ويروى جيفارا فى نفس الكتاب أيضاً حكاية المعركة التى انتصر فيها الثوار للمرة الأولى.

يقول جيفارا:

"كان أول انتصار لنا نتيجة هجوم على حامية صغيرة من حاميات الجيش عند مصب نهر لابلاتا. وسرى فينا أثر هذا الانتصار سريان الكهرباء. لقد كان أشبه بدوى النفير، يشير إلى أن جيش الثوار موجود بالفعل ومستعد للقتال. لقد كان تأكيداً جديداً لأملنا فى النصر الكامل.



فى ١٤ كانون الثانى ١٩٥٧ بعد فترة قصيرة من الهجوم المفاجىء فى"اليجريادى بيو" توقفنا عند نهر ماجدلينا. كانت هناك أرض صلبة تمتد من سييرا وترتفع فيما بين نهرى ماجدلينا ولابلاتا. وأصدر فيديل أوامره بالتمرين على هدف كمحاولة أولية لتدريب قواتنا. وكان بعض الرجال يستخدمون السلاح لأول مرة. ولم يكن أحد منا قد استحم لأيام كثيرة، وانتهزنا الفرصة فذهبنا للسباحة واستطاع الذين كانوا قادرين على ذلك، أن يستبدلوا ملابسهم بملابس نظيفة.

فى ذلك الحين كانت أسلحتنا تتألف من ٩ بنادق ذات منظار وتسع بنادق شبه أوتوماتيكية ومدفعين رشاشين وبندقية عيار ١٦.

بعد ظهر ذلك اليوم تسلقنا آخر تل قبل أن نصل إلى أطراف لابلاتا. وكنا نقتفى أثراً حدده لنا خصيصاً فلاح يدعى "ملكويداس الياس".

وكنا قد استخدمنا هذا الرجل بتوصية من مرشدنا ايتميو. كان مرشدنا هذا شيئاً أساسياً، وكان مثالاً للفلاح الثائر. ولكنهم قبضوا عليه وأرهبوه فيما بعد، وبدلاً من أن يقتلوه عرضوا عليه ١٠ آلاف دولار ورتبة ملازم إذا أستطاع أن يقتل كاسترو. وكاد ايتميو ينفذ الصفقة لولا أنه كان يفتقر إلى الشجاعة، ومع ذلك، فقد كان مفيداً جداً للعدو لأنه أبلغ عن موقع عدة معسكرات من معسكراتنا. وفى تلك الفترة، فترة الهجوم على الحامية، كان ايتيمو يخدمنا بإخلاص وكان واحداً من كثيرين من الفلاحين الذين يحاربوا الملاك الكبار من أجل أراضيهم.

وفى ١٥ كانون الثانى أبصرنا ثلاث ثكنات لابلاتا التابعة للجيش، وكانت لا تزال فى طور البناء. وشاهدنا رجالاً أنصاف عراة يتحركون هنا وهناك فى الثكنات، واستطعنا أن ندرك أنهم جنود. ولم نقم بمناورتنا وقررنا تأجيل الهجوم حتى اليوم التالى.

وفى فجر اليوم التالى بدأنا نراقب مركز الجيش. وكان الزورق قد ذهب أثناء الليل ولم نشاهد أحداً من الجنود فى أى مكان. وفى الثالثة بعد الظهر قررنا نقترب من الطريق المؤدى إلى الثكنات ونلقى نظرة. ولم يهبط الليل حتى كنا قد عبرنا نهر ابلاتا واتخذنا مواقعنا على الطريق، ثم قبضنا على اثنين من المزارعين كان أحدهما من مرشدى الحكومة.

وعندما أكدنا لهما أنه لن يصيبهما أى أذى، قدما إلينا معلومات ثمينة منها أن عدد جنود الثكنات ١٥ جندياً، وأنه سوف يمر بنا فى أية لحظة " شيكو اوزوريو" وهو من أسوأ مراقبى العمال سمعة فى المنطقة. وكان مراقبوا العمال يعملون لحساب أسرة " لافيتى " التى أنشأت لنفسها اقطاعية هائلة كانت تحميها بفرض جو من الإرهاب بمساعدة أشخاص أمثال شيكو.

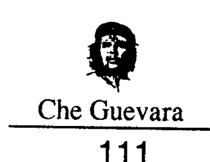
وبعد قليل، ظهر شيكو على ظهر بغل ومعه صبى زنجى. وكان مخموراً. وتقدم سانشيز وأمره بالتوقف باسم حرس الريف فأجاب شيكو على الفور: بعوضة وكانت هذه هى كلمة السر.

كنا نبدو كمجموعة من القراصنة. ولكن شيكو كان مخموراً إلى درجة أن استطعنا خداعه.

وتقدم فيديل كاسترو، وبدت على وجهه تعابير الغضب، وقال إنه كولونيل بالجيش جاء ليتحرى كيف لم تتم تصفية الثوار. وأعلن أنه سيذهب إلى الغابات حيث يجد الثوار الذين يبحث عنهم.

ثم وجه كاسترو كلامه إلى شيكو وقال إن الجيش لا يؤدى مهمته كما يجب.

واعترف شيكو بأن الحراس يقضون معظم وقتهم داخل الثكنات، يأكلون ولا يعملون شيئاً وأحياناً يخرجون فى جولات لا فائدة منها. وأكد شيكو أنه يجب إبادة الثوار.



وسـألناه بحـذر عن الأشـخـاص الذين يتـعـاونون مع السلطات والأشخاص غير المتعاونين من سكان المنطقة فبدأ يتكلم ونحن نسجل الأسماء. وعندما كان شيكو يقول عن شخص ما إنه سيىء، كنا نفهم أنه من أصدقائنا. وهكذا، تجمع لدينا ٢٤ اسماً من المتعاونين مع سلطات باتيستا وكان شيكو لا يزال يثرثر.

وشرح لنا كيف قتل اثنين من الرجال ثم أضاف: ولكن جنرالى باتيستا أطلق سراحى على الفور.

وسأل فيديل شيكو عما يمكن أن يفعله إذا أمسك بكاسترو، فأجاب بحركة معبرة سوف أمزقه. ثم قال وهو يشير إلى حذائه، وكان من نوع الأحذية المكسيكية التى يرتديها رجالنا: انظروا. إن الحذاء هو حذاء أحد أولاد الكلاب الذين قتلناهم. ودون أن يدرى وقع شيكو وثيقة اعدامه.

وبناء على اقتراح فيديل كاسترو وافق شيكو على مرافقتنا إلى الثكنات حتى نفاجئ الجنود ونثبت لهم أنهم غير متأهبين وغير لائقين للقيام بواجباتهم.

وبينما كنا نقترب من الثكنات، يتقدمنا شيكو، كنت لا أزال غير واثق من أنه لم يفطن إلى اللعبة. لكنه تابع سيره، وهو لا يعلم شيئاً وكان يردد بعض الأغانى الشعبية البذيئة.

عندما عبر شيكو النهر واقترب من الثكنات، قال له كاسترو إن الأصول العسكرية تقضى بأن يقيد السجين. ولم يقاوم الرجل ومضى فى سيره كسجين هذه المرة، دون أن يدرك تماماً حقيقة اللعبة. وقال لنا إن الحراس الوحيدين يقفون عند مدخل الثكنات التى لا تزال قيد البناء وعند منزل مراقب العمال.

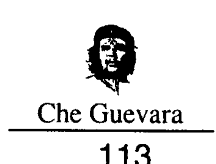
وقادنا شيكو إلى مكان قريب وذهب أحد الرفاق ليستكشف المكان ثم عاد يقول إن ما قاله شيكو صحيحاً. وكنا على وشك الاستعداد للاقتراب من الثكنات، عندما أجبرنا على الانسحاب إلى الغابات، حتى يمر ثلاثة من الحراس الخيالة. وكان هؤلاء يدفعون أمامهم رجلا يحثونه على السير بوحشية وهم يتبعونه على ظهر الخيل.

مر الحراس على مسافة قريبة منى، وسمعت الفلاح يتوسل ويقول: أنا واحد من أتباعكم. وجاء الرد من أحد الرجال، عرفنا فيما بعد أنه العريف بازول: اخرس واستمر فى السير وإلا ألهبت ظهرك بالسوط.

وتصورنا أن الفلاح سيكون فى مأمن من الخطر إذا ظل خارج الثكنات وقت هجومنا عليها. ومع ذلك ففى اليوم التالى، عندما سمع الحراس نبأ الهجوم قتلوه فى الحال.

كانت لدينا ٢٢ قطعة سلاح معدة للهجوم. وكانت فترة حاسمة لأننا كنا نفتقر إلى الذخيرة. وكان لا بد من الاستيلاء على ثكنات الجيش لأن الفشل كان يعنى ببساطة أننا سنفقد كل ذخيرتنا ونصبح عاجزين تماماً.

كان كل من " جوليو دياز" الذى قتل فيما بعد فى معركة و"كاميلو سينفيجوس " من أشهر قادة ثوار كوبا وقد قتل فى حادث طائرة و"فيترومورواليس " مسلحين ببنادق شبه أوتوماتيكية. وكان عليهم أن يحاصروا المنزل الواقع إلى اليمين والذى تظلله أشجار النخيل. أما فيديل كاسترو ويونيرسو سانشيز ولويس كريسبو وجارسيا وفاجاردو وأنا فكان علينا أن نهاجم الوسط. وترك لراؤول كاسترو ومجموعته، والميدا ومجموعته مهاجمة الثكنات من الشمال.



واقتربنا حتى مسافة حوالى ٤٠ متراً. وفى ضوء القمر المكتمل، بدأ فيديل كاسترو الهجوم باطلاق النار من رشاشه ثم تبعته بنادقنا. وبعد فترة طلبنا من العدو الاستسلام فوراً، ولكن الجواب جاء سلبياً.

وأبدى الحراس مقاومة أعنف مما كنا نتوقع. وكان أحد العرفاء يرد بنيران بندقيته كلما طلبنا من الجنود الاستسلام.

ثم صدرت إلينا الأوامر باستخدام القنابل اليدوية البرازيلية القديمة التى كانت لدينا. وقذفت أنا وكريسبو ما معنا من قنابل ولكنها لم تنفجر. وقذف راؤول أصبع من الديناميت ولم ينفجر أيضاً ". واصبح من الضرورى أن نقترب من المنازل ونشعل فيها النيران حتى ولو غامرنا بأرواحنا. وقام يونيفرسو سانشيز بمحاولة فاشلة كما فشل سينفيجوس أيضاً ".

وأخيراً اقتربت أنا ولويس كريسبو من إحدى المزارع وأشعلنا النيران.

وكشف لنا اللهب أن المكان كان مخزناً لجوز الهند. ولكن الحريق أدخل الرعب فى نفوس الجنود فكفوا عن القتال. وحاول أحدهم أن يهرب، لكنه وجد نفسه أمام فوهة بندقية لويس كريسبو الذى أطلق عليه رصاصة أصابته فى صدره. وكاميلو سينفيجوس المتحصن وراء الشجرة، يطلق النار على العريف الذى كان يحاول الهرب.

قضت رصاصتنا على مقاومة الجنود فأصبحوا عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم.

وكان سينفيجوس أول من دخل المنزل الذى كنا نسمع منه صيحات تطالبنا بالاستسلام. وبسرعة جمعنا كمية من غنائم الحرب: ٨ بنادق ومدفع رشاش طومسون وحوالى ألف رصاصة. وكنا قد استهلكنا حوالى

٥٠٠ رصاصة. وبالإضافة إلى ذلك، استولينا على أحزمة طلقات، ووقود وسكاكين وملابس وبعض الأطعمة. كانت خسائر الجنود: قتيلين وخمسة من الجرحى وثلاثة أسرى.

ولم يصب رجالنا بأى خدش، وأشعلنا النيران فى مساكن الجنود. وبعد أن اعتنينا بالجرحى وكان ثلاثة منهم فى حالة خطيرة ماتوا فيما بعد. وانضم أحد الجنود فيما بعد إلى قواتنا تحت قيادة راؤول كاسترو، وتمت ترقيته إلى رتبة ملازم لكنه مات فى حادث طائرة أثناء الحرب.

كان موقعنا بالنسبة إلى الجرحى على النقيض من استبداد الجيش. فجنود باتيستا لم يكونوا يقتلون الأسرى الجرحى فحسب، بل كانوا يتركون رفاقهم الجرحى ويهربوا.

وكان لهذا الفارق بيننا وبين معاملة الجنود تأثير كبير على العدو، ولعب دوراً مهماً فى انتصارنا.

وقد أصدر فيديل كاسترو أوامره بإعطاء الأدوية إلى الأسرى لكى يتولوا العناية بالجرحى. وانتزعت من هذا القرار، لأننى شعرت كطبيب ملتزم بأن الضرورة تقتضى توفير الأدوية الموجودة بين أيدينا لرجالنا نحن. لكن كاسترو أصر على رأيه، ووزع الأدوية بنفسه على الجرحى. وأذكر تماماً أننى ندمت بينى وبين نفسى فيما بعد، حين تذكرت هذا الحادث. وبعد توزيع الأدوية، تفقدنا الأسرى، وأطلقنا سراح جميع المدنيين.

كانت هذه أول معركة ينتصر فيها جيش الثوار. وفى هذه المعركة، كان لدينا من الأسلحة أكثر مما كان لدينا من الرجال. ولم يكن الفلاحون قد أصبحوا مستعدين بعد تمام الاستعداد للانضمام إلينا. ولم يكن هناك أى اتصال بالقواعد فى المدن على الاطلاق.

وتابع الثوار طريقهم، وتابعوا نضالهم ومعاركهم ضد جنود باتيستا، وكانت كل معركة وخطوة تجلب لهم المزيد من الأنصار والمؤيدين. ولم تطل نهاية عام ١٩٥٨ حتى أصبح عدد الثوار ما لا يقل عن ١٠ آلاف ثائر. وكان موعد هؤلاء مع باتيستا فى هافانا، ليلة رأس السنة، فى ٣١ ديسمبر ١٩٥٨.

وفى الأول من يناير من عام ١٩٥٩ انتصرت ثورة فيديل كاسترو فى كوبا. انتشر الآلاف فى شوارع هافانا لاستقبال أبطال الاشتراكية، الذين أطاحوا بالنظام العسكرى الفاسد الذى تدعمه أمريكا.

تمكن كاسترو من صنع المستحيل، وذلك بمعونة ساعده الأيمن تشى جيفارا. فنشأت بينهما روح الأخوة التى تعمدت بالنار. تمكنت ثورة كاسترو من تحقيق النصر بالاعتماد على تكتيك حرب العصابات.

أثبت جيفارا بين الثوار فى الجبال الكوبية، براعته القتالية وكفاءته القيادية فى مواجهة الخطر باستعداد ألهم الجنود من حوله. أدرك كاسترو قدرة تشى على القتال، فكانت هذه الكفاءة مفتاح تحقيق النصر عام ١٩٥٩.

حقق فيديل كاسترو حلمه عند انتصار الثورة. أما حلم جيفارا، فكان ما يزال فى بدايته بعد.

تخطت أحلام هذا الشاب الأرجنتينى الثائر حدود جزيرة كوبا، فقد كان يحلم ببناء جنة اشتراكية عالمية، انطلاقاً من أمريكا اللاتينية. أراد رفع علم المساواة فى العالم أجمع.

■ ■ ■



8

جيفارا..
رجـل السياسة

لم يكن جيفارا يضع فى حسبانه يوماً أنه سيتحول إلى سياسى ورجل دولة يشغل منصباً رسمى يغوص به فى بحار البيروقراطية والروتين اليومى. ومثله فى ذلك مثل جميع الثوار لم يكن يفكر قبل أن تنجح الثورة إلا فى اللحظة التى ينتصر الثورة وينقشع النظام الديكتاتورى الذى تدعمه الولايات المتحدة، لم يكن يشغل تفكيره إلا بكيفية تحقيق الحلم، لم يفكر ورفاقه الثوار فى اللحظات التى ستعقب نجاح ثورتهم. هكذا هم الثوار. إلا أنهم بعدما تنجح ثورتهم يجدون أنفسهم فى أحضان الحكم، بعضهم يرفض التخلى عن رداء الثورة عن قناعة بأن الثوار ينتهى دورهم عند نجاح الثورة، وأن عليهم بعد ذلك تسليم الحكم للوطنيين ممن يعرفون كيف يحكمون. لكن البعض الآخر وهو الأغلبية لا يتمتع بهذه الروح فيختار أن يتولى الحكم وله مبرراته فى ذلك، فهو يرى أنه حمل حياته على كتفه عندما قام بالثورة ولابد له من مكافأة " الحكم "، وربما يرى أنه الأكثر وطنية من غيره ممن هم مؤهلون لتولى الحكم، وربما خشية على الوطن نجده يقبل الاستمرار فى الحكم.

قليلون هم الثوار أو من قاموا بانقلابات عسكرية ثم بعد أن استتب الأمر تركوا الحكم واختاروا الخروج من المشهد، ومن هؤلاء الفريق عبد

الرحمن سوار الذهب الذى قاد الانقلاب على نظام جعفر نميرى فى السودان.

لكنهم كثيرون من يسرق عيونهم بريق الحكم والسلطة فيستمرون على مقاعد الحكم، وأحياناً لا يتركونه إلا صاغرين بعد انقلاب عليهم، والنماذج كثيرة فى هذا الصدد ومنهم الحبيب بورقيبة، والضباط الأحرار فى مصر ,وغيرهم.

لكن جيفارا لم يكن يهوى العمل فى السياسة، كان يرى أنه خلق ليكون ثائراً يجوب العالم يطارد ويقاوم الاستعمار والديكتاتورية والظلم، يناصر الفقراء والمعدمين ويطالب بحقوقهم ويقود صفوفهم فى تحركهم لنيل حريتهم وحقوقهم. غير أن جيفارا وجد نفسه مضطراً للقبول بالعمل فى السياسة عندما رأس فيدل كاسترو الحكومة وألح عليه فى الطلب أن يكون بجواره فهو لا يستطيع أن يستغنى عنه. هنا وجد جيفارا أن عليه واجب لابد أن يقوم به ليستكمل ما بدأه بالثورة، وأنه إذا كانت الثورة نجحت بمعركة فإن معركة بناء الدولة الجديدة لا تقل أهمية وقداسة من معركة الثورة.

بعد نجاح الثورة جاء كاسترو وجيفارا، ومعهما النظرة الثورية العميقة التى تبحث عن المسئولين بين البشر أنفسهم، ولا تتهرب فتنسب الظلم والبؤس إلى الظروف والأقدار.

كانت الأسابيع الأولى التى أعقبت دخول كاسترو وجيفارا هافانا واستيلاء الثوار على الحكم، أسابيع ابتهاج ورضى. وبالرغم من أن كاسترو لم يدخل فى الحكومة الأولى، فقد كان يبدو فى نظر الجميع الرجل المجمع عليه. شىء واحد كان مؤكداً وواضحاً فى ذهنه: هو وقوفه بقوة ضد كل ما كان يهدد بتحطيم وحدة المجتمع الكوبى.

وفى فبراير ١٩٥٩، أدرك كاسترو أن الوقت قد حان لكى يستلم السلطة، فأصبح رئيساً للحكومة.

وواجه تشى جيفارا ما يمكن أن يواجه أى ثائر حين تنتصر ثورة من ثورا ته، فإذا به نفسه أمام دولة بحاجة إلى بناء جديد وأسس جديدة. ويعتبر جيفارا أن الثورة لم تنته، وأن المرحلة التى انتهت هى النضال العسكرى، وأن المرحلة المقبلة هى النضال السياسى والاقتصادى.

وكان كاسترو بحاجة إلى جيفارا فى بناء الدولة الموروثة عن حكم باتيستا، على أسس جديدة. ولم يكن هو يعلم تماماً ما هى هذه الأسس. لقد واجه المشكلة نفسها التى يواجهها أى رجل غير عقائدى يتسلم حكماً، ويبدأ باحثاً عن عقيدة مناسبة لبلاده.

وفى تلك الفترة الانتقالية بين ثورة الأدغال المسلحة المليئة بالأعشاب والذكريات وبين ثورة البناء والاستقرار السياسى والاقتصادى والاجتماعى مثل ارنستو جيفارا دوراً بارزاً فى توجيه الثورة التى أسهم فى خلقها، اتجاهاً ماركسياً إنسانياً.

لم يحاول كاسترو، خلال نضاله للوصول إلى الحكم، أن يعطى حركته عقيدة معينة، إذ أن النضال كان كل شىء بالنسبة إليه. لكنه بعد وصوله مباشرة، طرح عقيدة خاصة تحمل اسم العقيدة الإنسانية وقد عرفها بأنها الطريق الثالث بين الرأسمالية والشيوعية وقال عنها: ليست ديكتاتورية فرد، ولا طبقة، ولا فئة من الناس، إنما حكم الشعب للشعب، إنها الحرية والخير دون الرعب.

لكنه بعد أشهر قليلة تخلى عن هذه العقيدة الإنسانية، وبدأ يميل نحو الشيوعية، بدافع من جيفارا. وقد بلغت ذروة ارتباطه بالعقيدة الماركسية حين أعلن فى خطابه الشهير فى ١٩٦١: أنا ماركسى لينينى.

وبدافع من جيفارا أيضاً، أصدر كاسترو قانون الاصلاح الزراعى فى كوبا. كان جيفارا يقول: إن الاصلاح الزراعى هو حجر الزاوية فى أية ثورة.فليست هناك حكومة يمكن أن تصف نفسها بأنها حكومة ثورية، إذا لم تنفذ برنامجاً جذرياً للإصلاح الزراعى.

فى ١٧ مايو ١٩٥٩ أبرمت الحكومة الكوبية الإصلاح الزراعى. ولم يبق للأجانب سواء كانوا ممثلين لشركة أو بصفة شخصية أى حق بالحصول على أى ذرة من الأرض الوطنية. وقد ألغيت الملكيات الكبيرة ولم يعد يحق للشخص أن يملك أكثر من ٤٠٠ هكتار. وحتى فى هذه الحالة، لا بد من توفر شرط: أن هذه الأرض، بهذه المساحة، تعطى لمالكها الحالى إذا حرثها واستغلها. ولا يستطيع أحد أن يملك فى وقت واحد زراعة لقصب السكر ومركزاً لصناعة السكر. فإذا حدث ذلك، احتفظ الزارع بالمصنع وخسر الزراعة. وحين تصادر الدولة شركة أو أملاك شخص، تدفع له تعويضاً بواسطة سندات. ثم يعاد توزيع الأراضى المصادرة توزيعاً وطنياً.

كانت كوبا تعيش على الخمول والجمود بسبب انعدام الصناعة فيها. ولم تستطع الصناعة أن تولد لانعدام السوق الداخلية.

وأتى الاصلاح الزراعى يقدم الحل بإلغاء امكانية القضاء على جميع المستهلكين لصالح فئة صغيرة منهم تنفق المبالغ الهائلة فى الخارج. وقد كان من ميزات الإصلاح الحد من بذخ هؤلاء، كما وضعت الحكومة الضرائب الباهظة على المستوردات الكمالية "لسد الشريان المفتوح وايقاف النزيف".

وجاء قانون الاصلاح الزراعى أيضاً ليرفع مستوى البائسين ويغير ظروف العمال ليخلق طلباً داخلياً وينعش التصنيع.

وبالاضافة إلى قانون الاصلاح الزراعى، قامت عمليات التأميم فى كوبا لتضع حداً للنفوذ الأجنبى. وكان جيفارا أيضاً وراء هذه الخطوات.

بدأت الحكومة الكوبية بتأميم مصانع السكر وشركات الكهرباء والهاتف، ثم تبع ذلك تأميم مصافى النفط التابعة لشركتى"ستاندرد اويل" و"شل"، حتى إذا جاء عام ١٩٦٠ نجد أن ٦٠٠ مؤسسة كوبية أو أجنبية تمثل ٨٠٪ من القطاع الصناعى قد أصبحت بين يدى الدولة.

فى عام ١٩٥٩ أصبح جيفارا مواطناً كوبياً، وتسلم إدارة المصرف المركزى الكوبى ثم بعد سنتين أصبح وزيراً للصناعة. وحاول جيفارا خلال تلك الفترة أن يخطو خطوات جبارة تهدف إلى خلق مجتمع اشتراكى إنسانى جديد فى كوبا، عن طريق التصنيع والتخطيط والتنمية.

بدأ جيفارا يعمل فى مشاكل التنمية والتخطيط والتغير الاجتماعى. كان يعمل بجد واخلاص، محاولاً أن يكون الثائر الذى يبنى بغير النضال والسلاح والمعارك فى الأدغال. ويصف جان بول سارتر طريقة عمل جيفارا، أثناء زيارة قام بها إلى كوبا فيقول: إن الليل لا يدخل إلى مكتب جيفارا. ولا يبدو النوم بالنسبة إليه حاجة طبيعية، وإنما كان روتيناً يحاول القضاء عليه والتخلص منه. ولا أدرى متى يرتاح جيفارا ولا متى يرتاح رفاقه. وافترض أن هذا متفاوت. فالانتاج هو الذى يبت فى الأمر. لقد كانت ليالى عام ١٩٦٠ بالنسبة إلى جيفارا ليال بيضاء، من السهر والتعب والإدارة التى لا تتزحزح أو تنهزم.

واجه جيفارا الوضع الاقتصادى فى كوبا فى أصعب وأدق مراحله، مراحل البناء والمجابهة الداخلية والخارجية. وكان يهتم فى عمله بالمسائل النظرية، ولكن عيناه دائماً على الثورة. فهو يفكر ويدرس النظريات

الاقتصادية، بمعاونة بعض الخبراء في الاقتصاد، لأنه فى نهاية الأمر يريد أن يثور بطريقة أفضل، ولا يمكن للاستطراد الفكرى أن يبعده عن دراسة واجباته العملية المباشرة.

كان يقول إنه ليس معتاداً على الغرق فى النظريات، ويحاول أن يكون تجريبياً فنحن قد نحاول أن نضيع فهماً نظرياً لكوبا، وقد نحاول فى بعض الأحيان أن نفعل ذلك لأمريكا اللاتينية، ولكننا لن نذهب أبداً إلى حد التخطيط نظرياً للعالم كله.

وقيل له:

ولكنك ماركسى، فكيف تتجنب النظرة العامة الشاملة؟

فأجاب:

نحن ننظر إلى الماركسية كعلم متطور، تماماً كالبيولوجيا فى العلوم الطبيعية. وميدان عملنا الخاص هو كوبا. يجب أن نبدأ بكوبا قبل كل شىء. لا يهمنا العالم، ما دامت كوبا لم تصل بعد إلى مرحلة النمو الاشتراكى الكامل.

وتحدث جيفارا عن التنمية الاقتصادية فقال إنها استمرار للحرب وتحتاج إلى التضحية. وكان يردد: الاشتراكية الاقتصادية الجافة لا تهمنى ويؤمن خاصة بالإنسان، الذى هو أساس كل شىء ويقول إن الأمر يتطلب بناء مواطن من نوع جديد: علينا أن نصل إلى الضمير الاشتراكى قبل الخطط الاشتراكية، وأن نبنى الإنسان الجديد ونغير عقلية الجماهير، إذا أردنا فعلاً أن نحقق المجتمع الاشتراكى المنشود.

ويحاول جيفارا أن يحدد الإنسان الاشتراكى الذى ينبغى الوصول إليه فيقول: يجب أن نشرع فوراً فى بناء المواطن الذى يحمل قيم القرن



الواحد والعشرين، وستتحمل القيادة عبء أن تكون القدوة للمثل الجديدة والتضحية. والإنسان الجديد لا يقاس بكمية اللحوم التى يستطيع الحصول عليها، ولا بعدد المرات التى يستطيع فيها المواطن أن يتنعم بالسباحة، ولا بنسبة ما يمكن أن يشتريه من وسائل ترف، بل بما يمكن أن يتحمله من مسئولية فى بناء نفسه وبناء الآخرين وبناء المجتمع والثورة والوطن.

وكان جيفارا يرى أن الاشتراكية الحقيقية هى حين يصبح ضمير كل فرد هو الضمير الجماعى، والضمير الجماعى هو ضمير كل فرد. ويتطلب ذلك بناء جدياً وعميقاً وطويل المدى.

ويحلل جيفارا فى دراسة نشرتها مجلة الثورة فى هافانا، التجربة الكوبية فى مرحلة الانتقال إلى الاشتراكية ويكشف الأخطاء التى رافقت هذه المرحلة، وهى أخطاء ترافق تجربة كل بلد فى طور انتقاله إلى الاشتراكية.

يقول جيفارا: عندما قمنا بأول محاولات فى التخطيط، نسينا أن الثورة الاشتراكية والدولة الاشتراكية أمران مختلفان، لذلك تجاهلنا أو أغفلنا أنه يجب على التخطيط وعلى الاشتراكية الخضوع لشروط معينة. فقد قيل عن حق هنا أن التخطيط مستحيل بدون اشتراكية. يمكننا القيام بالتخطيط خلال بناء الاشتراكية، ولكن شرط أن نأخذ بعين الاعتبار دائماً أنه يجب أن يخضع التخطيط لشروط موضوعية تبرز عند تنفيذ الخطة. فلقد نقلت إلينا تجارب البلدان الشقيقة. وكان ذلك خطأ. لم يكن من أفدح الأخطاء ولكنه خطأ فادح كبح تتطور قوانا وأسهم بخطورة فى نمو احدى الظواهر التى يجب محاربتها خلال الثورة الاشتراكية: البيروقراطية. وهذا يعنى أننا قد تعلمنا بواسطة الممارسة، بأخطائنا وبالاصطدام بالعقبات

الصعبة، إن التخطيط والاشتراكية متلازمان وأنه لا يمكن التخطيط بنجاح إذا لم تسمح بذلك الظروف الاقتصادية القائمة.

ويضيف جيفارا: سأعرض بشكل عام جداً، أحوال كوبا سنة ١٩٥٩. كانت ثمة ثورة، حركة شعبية، حطمت السلطة السياسية والعسكرية لمثلى الاستعمار الأمريكى. ولم يكن قادة الثورة سوى فريقاً من المقاتلين ذوى المثل العليا، ولكن ذوى التهيئة الناقص.

كان البناء الفوقى للدولة الرأسمالية والاستعمارية الجديدة كما هو، فكان يجب العمل على تحطيمه وبناء مجتمعنا على أسس جديدة. الهيئات المالية للدولة بيد خونة لاحقين كانوا قد أخذوا ينتهجون سياسة كبح العملية الثورية: كانوا بتطبيقهم للمعارف التقنية البورجوازية فى حقل المالى، يضعون أمام تطورنا العراقيل الدائمة.

وكانت الوزارات القديمة بؤراً يعشش فيها البيروقراطيون والطفيليون، دون أية حياة داخلية، دون أى انسجام داخل الحكومة، دون أية وحدة بين مدرائها الرئيسيين وبين الخط الأساسى للثورة. كانت السلطة البرجوازية تولد داخل الدولة الجديدة، مستغلة، مثل الصخور فى البحر، ومعزولة عن المد البشرى المتقدم. كان يجب تغيير البنى، وقد شرعنا بالتغييرات بدون خطة، دون أن نقترح أية خطة أو بالكاد. فأصدر الفريق الثورى، بقيادة فيديل كاسترو، قانون الاصلاح الزراعى، وقد برهن هذا القانون الذى لا يمكن الاستغناء عنه على أنه سلاح رهيب: سلاح صراع الطبقات، فدفع الثورة الكوبية إلى الأمام بسرعة فائقة.

ما العمل حيال هذا الاختيار؟ رأينا أن أصح طريق وأقله خطراً، من بين كل الطريق، هو التقدم إلى الأمام.

ولكن بما أننا كنا نتقدم إلى الأمام أصلاً، أخذنا نتقدم بعمق، بعنف. وهكذا فالإصلاح الزراعى الذى تصورناه إصلاحًا زراعياً ذا مضمون بورجوازى يمنح ملكية الأرض للفلاحين الفقراء، يتحول إلى نضال عنيف صودرت خلاله، دون أى تعويض، ملكيات جميع ملاك الأرض الكبار فى كوبا. فانضم هؤلاء إلى العدو الأجنبى واتخذوا الاجراءات ضدنا وأخذوا يوجهون لنا الضربات من كل صوب. وشعرنا بالصدمة أحياناً ولم يكن بمقدورنا إلا أن نرد بضربات جديدة.

أضحت وسائل الانتاج الرئيسية ملكاً للشعب وانتظم الفلاحون فى تعاونيات أولية فى بعض المناطق. أمم أكثر من ٩٠٪ من الصناعة واحتكرت الدولة كل التجارة الخارجية.أممت الشبكات الكبرى للتجارة الداخلية وقمنا إلى جانب ذلك بالاصلاح المدنى فأعطينا المنازل للساكنين فيها ومنعنا المضاربة على الايجارات وأحرزنا خطوات تقدمية مهمة فى مجال الصحة العامة والتعليم. إلا أن النضال ظل مستمراً. بلغ الحصار الاستعمارى ذروته، فوجدنا أنفسنا مجبرين على النضال يوماً بعد يوم لتأمين الخبز لشعبنا وللحفاظ على صناعتنا وتنمية الزراعة والتجارة والدفاع عن أنفسنا ضد تخريب العصابات والعدوان الأجنبى المباشر والغارات الجوية واعتداءاتها اليومية على سيادتنا.

وكان لدينا بالإضافة إلى ذلك أن نخضع الرجعيين فى البلد ونفضح الخونة ونطردهم من الحكومة: فكانوا يسلكون طريق المنفى أحياناً أو طريق السجن أو الموت أحياناً أخرى.

ويواصل جيفارا تحليله للوضع الاقتصادى الذى كانت عليه كوبا فيقول:

كيف كانت البنية الاقتصادية فى كوبا خلال هذه السنوات الأولى؟ بلد ذو انتاج وحيد وهو السكر، ذو زراعة وحيدة هى قصب السكر، ذو تجارة

وحيدة الوجهة. فالولايات المتحدة الأمريكية تسيطر على ٧٥٪ من صادراتنا ووارداتنا. وكان رأس المال الأجنبى والأمريكى الشمالى خاصة، يسيطر على بلدنا كله. وعندما كان ينشىء الصناعات كان يفعل ذلك بطريقة تجبرنا على استعمال التقنية الأمريكية الشمالية مع جهدنا من اليد العاملة الرخيصة ويصدرون أرباحهم إلى الشمال، بتواطؤ الجمارك.

كان القسم الأكبر من الكوادر التقنية فى بلدنا قد تعلم فى الولايات المتحدة وتأثر بتقنيتها. بلد بدون صناعة، بدون تنمية زراعية، يحمل عبئاً ثقيلاً على عاتقه، يملك احتياطاً من المال قابلاً للتمويل. كل هذا يكفى للتدليل على أهمية المصاعب. وكان النقص فى الاحصائيات حول الماضى والحاضر الاقتصاديين يحول دون صياغة ملائمة لخطة العمل. خلال مدة من الزمن لم نكن نملك الوقت لكى نفكر بوسائل العمل الاقتصادى، لأننا كنا فى معركة مباشرة مع العدو، حريصين على عدم التخلى عن شبر واحد من أرضنا، وأمامنا مهمة الدفاع عن أنفسنا فى كل لحظة ضد تهديدات العدو الجديدة.

ففى ١٥ نيسان ١٩٦١ قامت طائرات عسكرية أمريكية، بشعارات كوبية مرسومة على أجنحتها، بقصف موانئنا لكى تقضى على قوتنا الجوية الصغيرة، محاولة اقناع العالم بأن المعتدون مهاجرون كوبيون.

فى اليوم التالى، بمناسبة مأتم ضحايا العدوان، أعلن رئيس حكومتنا وأمين العام لحزب الثورة الاشتراكية الموحد، أعلن للعالم الطابع الاشتراكى للثورة الكوبية. ثم جاءت محاولة الغزو فى بلاياجيرون أى خليج الخنازير، وانتصرنا فيها.

أضحت المقاطعة أقسى فأقسى، وحاول الاستعمار تحدينا بشتى الوسائل. وقد لقنا العالم بأسره درساً فى الكرامة خلال أزمة تشرين

الأول ١٩٦٠. ولكن بينما كان يحدث كل ذلك، كان يجب أن ننمى اقتصاد البلد حيث كان كل حجر يأتينا من الخارج حيث كانت التقنية ترد من بلد أجنبى هو فى حالة حرب ضدنا لكى يتسلط على مواردنا وذلك ليس لمصلحة شعبنا بل لحساب الرساميل الأمريكية. كان علينا أن نجعل المصانع والزراعة والنقل بدون قروض، بدون مبيدات للحشرات. بدون مواد أولية ولا قطع غيار ولا تقنين أو تنظيم. وطوال هذا الوقت، كانت العصابات العاملة على أرضنا بدعم من الولايات المتحدة تخرب وتعتدى. وقد اضطرنا خطر الغدو الدائم أن نعبىء الشعب الكوبى مرتين أو ثلاث مرات كل عام فنشل بذلك حياة البلد.

ولكننا دفعنا ثورتنا إلى الأمام بهذه الطريق وصححنا أخطاءنا. كانت هذه الأخطاء متنوعة ولكنها انحصرت بشكل خاص فى مجال التخطيط. وقمنا بعملين متناقضين يصعب التأليف بينهما: فقد نسخنا، على نحو مبالغ فيه، وسائل التخطيط عن بلد شقيق جاء خبراؤه لمساعدتنا (يقصد الاتحاد السوفيتى) ومن جهة ثانية لم نتوقف عن اتخاذ قرارات عاجلة سريعة دون تحليلها خاصة فى المجال السياسى وهى قرارات يجب اتخاذها فى كل يوم فى حياة حكومة ما.

لم نعتمد على الاحصائيات ولا على التجربة التاريخية. تركنا الطبيعة تفعل فعلها على نحو ذاتى كما لو أن مجرد الكلام معها كاف لاقناعها مهملين تجارب البلدان الأخرى.

كنا نريد انشاء المدارس، فأنشأناها، وكنا نريد انشاء المستشفيات فأنشأناها أيضا، مددنا الطرق وبنينا المراكز السياحية، ونوادى العمال، ورفعنا الأجور، كل ذلك ونحن نتكلم عن تطوير قوى الانتاج. ولم يكن التخطيط ممكناً نظراً للعلاقات الاقتصادية والسياسة فى مجال الانتاج. وهذه بعض الأمثلة

العملية ليفهم الناس ما الذى جرى فى كوبا: كنا بحاجة إلى مليون حذاء. ماذا يحتاج ذلك؟ أكثر من مليون كيلو من الجلد، العديد من العمال، الكثير من الامكانات التقنية فى مدابغنا، الكثير من المواد الأولية المستوردة. كان بالامكان الحصول على كل هذه ولكن كان عندنا الخطة أولاً، التى تقول: ٢٢ مليون حذاء. أما نحن فكنا نعرف أننا لن نستطيع بلوغ هذا الرقم.

إن الصناعة الكوبية لم تنتج قط ما يزيد على ١٠ ملايين حذاء. صحيح أن المنشآت الكافية كانت متوفرة وربما كان بالامكان الحصول على الماشية الكافية لذلك، ولكن كان من الضرورى وجود تنظيم مسبق، ولنتوصل إلى هذا التنظيم. لم تضع خطة الرقم النهائى والمهمات الرئيسية إلا سطحياً. فالواقع أنه لم يكن عندنا ما يكفى من الماشية والعتاد لصنع الجلد. وباختصار، فقد كانت الخطة الأولى تعبيراً عن ذاتية مطلقة تعتمد بشكل خاص على الأرقام لحساب امكناتنا الحقيقية التى لا يمكن تحقيقها ككل. هكذا كانت نتيجة القرارات التى اتخذت فى القيادة. ماذا جرى بالنسبة إلى القرارات المتخذة فى القاعدة؟ مثال عن حساب الخشب. ما هى كمية الخشب الموجودة؟ يجيب مدير دائرة الخشب: يوجد الكمية التالية. ويقول فلان: لم أتذكر. كنا نعلم أن الأمر محال، ولكنهم هم كانوا يقولون، يؤكدون بحزم. ولهذا فإن كوبا، وهى البلد المصدر تقليدياً للخشب، سرعان ما أضحت فى الصفوف الأولى من المستوردين، لأنها لم تأخذ بعين الاعتبار أراء فنيى وتقنيى القاعدة. النتيجة أننا ما زلنا نستورد الخشب، ولكننا نستورده بشكل سيىء ونحن نبحث بيأس عن بلد نستورده منه.

إن تجارتنا الخارجية قد اتخذت اتجاهاً جديداً كل الجدة من الناحية الجغرافية. فقد انتقلت من نسبة ٧٥٪ مع الولايات المتحدة الأمريكية إلى



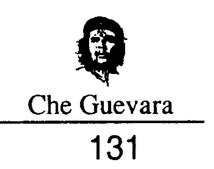
نسبة ٧٥و٨٠٪ مع البلدان الاشتراكية. كان التغيير ايجابياً بالنسبة إلينا على الصعيدين السياسى والاجتماعى ولكننا كنا بحاجة إلى تنظيم أكمل على الصعيد الاقتصادى.

خلال التخطيط، ارتكبنا عدة أخطاء فى فهم تطور الصناعة والزراعة وتوازن اقتصادنا. فى الصناعة، وضعنا خطة تقوم على فكرة الاكتفاء الذاتى بواسطة سلسلة من السلع الاستهلاكية الجارية أو سلع الصناعة المتوسطة كان يمكن الحصول عليها بسهولة من البلدان الصديقة. وهكذا، فقد خفضنا من قدرتنا على التحويل دون أن نكون قد استخدمنا مواردنا الخاصة للمواد الأولية استخداماً كاملاً.

وفى الزراعة ارتكبنا خطأ فادحاً هو التقليل من أهمية قصب السكر، منتجنا الوطنى، وذلك بمحاولة القيام بتنويع متزايد له، مما أدى إلى افقاره. وأضيفت إلى ذلك فترة جفاف غير عادية خنقتنا طوال سنتين فأدت إلى انخفاض كبير فى انتاجنا.

أما فى توزيع السلع فقد بالغنا فى أهمية اشباع الحاجات الاجتماعية فى الآونة الأولى بواسطة دفع أجور أعدل، وذلك دون الأخذ بعين الاعتبار الوضع العام لاقتصادنا. وأدى انعدام قاعدة لمعايير العمل فى الزراعة والصناعة إلى تغيير عنيف فى تطلعات العمال، مما ولد الظاهرة التالية: الزراعة تفتقر إلى الأيدى العاملة وذلك فى بلد لا تزال البطالة موجودة فيه، فكان علينا أن نتوجه كل عام إلى العمال المتطوعين لمساعدتنا على حصد موسم قصب السكر وعلى زراعته تضمن زيادة المردود.

وهكذا، فأن تخطيطنا الكامل بتفاصيله، الجامد فى متطلباته أضحى كابحاً لثورتنا لفقدان الاحتياطات الكافية ونتيجة تغيرات عنيفة. إذا عدنا إلى طرح المشكلة فكيف نفعل ذلك؟



سوف نحاول، بادىء بدء، أن نعرف الحد الأقصى مما يمكننا معرفته عن الوضع الراهن. وبدون التوقف عن العمل للتوصل إلى كل المعطيات الممكنة، فأننا سنفضى إلى معرفة الاحصاءات والأرقام طابع الضرورة الوطنية الحقيقية، فنفترض أسلوباً معيناً من العمل والتفكير يقوم أساساً على معرفة الوقائع وتحليلها. وسوف نتولى أيضاً امتحان اقتصادنا وحاجاتنا الملحة بالقدر الممكن من الواقعية، آخذين بعين الاعتبار امكاناتنا الاقتصادية والوسائل التى يجب استخدامها لاشباع الحاجات الاجتماعية فى بلدنا. وسوف نضع خطة عامة ومرنة، راصدين الاحتياطات الوفيرة للطوارىء. ثم نضع الخطوط السنوية انطلاقاً من هنا، وضمن هذه الحدود. وسوف تكون الاستثمارات ممركزة إلى أقصى حد، دون السقوط فى التفاصيل البيروقراطية التافهة. يجب أن يتم كل ذلك ضمن اطار صراع الطبقات، يتدخل فيه المستغلون وأسيادهم الاستعماريون. وصراع الطبقات يتمتع بمنطق لا يتلائم دوماً مع تعمير البلد.

إن التعليم والصحة العامة هما المجالان حيث تتوج عمل الحكومة الثورية بنجاح سريع جداً. على صعيد التعليم، قضينا على الأمية إذ جعلنا التعليم الزامياً ومجاناً بما فى ذلك الكتب والأدوات المدرسية حتى السنة الثالثة من المرحلة الثانوية. ويوجد الآن حوالى مائة ألف طالب بعثة من الحكومية الثورية.

أما على صعيد الصحة العامة فقد أنشأنا كمية كبيرة من المستشفيات الريفية وأقمنا حملات وطنية للتلقيح ضد شلل الأطفال وقررنا إرسال طلاب الطب الريف وطورنا المدارس الفرعية للطب والتمريض والأشعة وغيرها. وبالرغم من سفر عدد كبير من الأطباء إلى الولايات المتحدة،



فإن استخدام الجهاز العام كله لخدمة الشعب وتوزيع هذه الخدمات على نحو أفضل، قد سمحا بايلاء هذه المشكلة العناية الكبرى، عناية تشمل السكان كلهم.

وفى مجال الضمان الاجتماعى، أصدرنا قوانين جديدة تؤمن وقاية كل عامل مهما كانت ظروف الحادث أو المرض الذى يتعرض له.

إن الوضع الحالى للاقتصاد الكوبى هو كما يلى: يتم أكثر من ثلاثة أرباع تجارتنا الخارجية مع المعسكر الاشتراكى، وتردنا، بواسطة بيع قصب السكر ثلاثة أرباع العملة الأجنبية. هذا يعنى أن بنية اقتصادنا ذات المنتج الواحد لم تتغير بعد منذ أربع سنوات من الثورة. ولكننا قد حددنا ما يمكنه أن يصير مع الوقت اقتصاداً يقوم على قاعدة صلبة من المواد الأولية الكوبية ومن الانتاج المتنوع ودرجة من التقنية تمكن المنتجات من المنافسة فى الأسواق العالمية. وقد انطلقت زراعتنا انطلاقة صحيحة بعد أن تغيرت وجهتها ونحن نحقق تنوعاً ملائماً فى المحاصيل فى نفس الوقت الذى تطور فيه مزارع قصب السكر. إن الاتجاه إلى تأميم كل وسائل الانتاج ما زال قائماً، إلا أنه يتم حالياً حيث انتصرنا نهائياً على القوى الرجعية داخل البلد بالوتيرة التى تعتبرها الثورة أصح وتيرة. وندفع لجميع الملاك الصغار للمشروعات المؤممة تعويضاً لقاء استعادة الدولة لأملاك الشعب. ونضطر فى بعض الحالات الانتقالية من الصراع الطبقى إلى اتخاذ اجراءات قصوى مثل تأميم كل التجارة فى مناطق معينة كالصناعة الغذائية والصناعات الأخرى المرتبطة بها التى تفاقمت فيها المضاربة إلى حد كبير.

بوسعنا أن نتساءل، فى الختام: ما هى المهمات المرتقبة للتخطيط فى كوبا؟ إننا نعتقد أن المهمة الأساسية هى تأمين قاعدة احصائية كافية

تسمح بكشف مواقع الضعف فى الجهاز الاقتصادى بسرعة وتدريب كوادرنا على العمل بمقتضى ذلك. إننا نسير فى هذا الاتجاه ولكن الشوط الأكبر ما زال أمامنا.

ثم يجب علينا، بعد أن نعرف أخطائنا، أن نحللها وأن نستلخص الاستنتاجات المفيدة للمستقبل، فنعدل من جهازنا بحيث يمارس وظيفته الحقيقية، وظيفة إدارة الاقتصاد وتحريكه فى آن واحد.

إن تحقيق خطة للمستقبل تتلاءم مع امكاناتنا الواقعية المتواضعة، تلبى بدقة حاجات الشعب اليومية، أى تحل، جزئياً على الأقل، احدى أخطر المشكلات التى تواجه ثورتنا، وأن نجد فى الوقت نفسه الحل الاقتصادى الذى يسمح بالافادة القصوى من امكاناتنا، أن نستفيد إلى أقصى حد من كل بيزو نستثمره، وأن نستثمر الطاقات المخبأة عند الشعب ونضعها فى خدمة المجتمع، كل هذه المهمات لا تقوى على الاضطلاع بها إلا الاشتراكية.

إننا نبنى الاشتراكية على أرضنا ونضع حبة الرمل الصغيرة هذه فى خدمة أمل الإنسانية الأكبر: الغاء استغلال الإنسان للإنسان، هذا الإنسان الذى يشكل الاستعمار ألد عدو له.

إننا نناضل من أجل الانتصار النهائى للشيوعية، المجتمع اللا طبقى.

لكن الأمور لم تسر على ما يرام فسرعان ما تبين أن جيفارا يختلف عن غيره من الثوار الذين جلسوا على الكراسى وصاروا يتمتعون بأبهة الحكم، علاوة على أنه كان يطرح أفكاراً لم تلق قبولاً من بعضهم. ثم إنه اصطدم مع التواجد السوفيتى فى كوبا وكان يرفض أن تتحول الدولة الناشئة إلى تابع للاتحاد السوفيتى.وهوأيضاً كان يطرح شيوعية مختلفة

عما يطرحه الاتحاد السوفيتى وكان يرى أن النظام الشيوعى الذى تطبقه الصين هو الأفضل لكوبا.

كره تشى اتكال الثورة الكوبية على الاتحاد السوفيتى، واستمر فى ابتكار وسائل أخرى للحصول على التمويل وتوزيعه. ولأنه الوحيد الذى درس فعلاً أعمال كارل ماركس بين قادة حرب العصابات المنتصرين فى كوبا، فإنه كان يحتقر البيروقراطيين ومافيا الحزب الذين صعدوا على أكتاف الآخرين فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية، وفى كوبا أيضاً.

وكان جيفارا مثل كثيرين فى الحركة الناشئة لليسار الجديد حول العالم، خاض تجربته الأولى مع بيروقراطية الحزب الشيوعى وكره ورفض محاولاتهم لفرض بيروقراطيتهم على الحركات الثورية للسكان الأصليين.

اصطدم احتقار تشى لكهنوت الماركسية الرسمى (بينما كان يعتبر نفسه ماركسياً)، واحتقاره للبيروقراطيين من كل لون، اصطدم بالنزعة الاقتصادية الميكانيكية المخدرة التى صارت عليها الماركسية. "الثورة"، عند تشى واليسار الجديد الذى يستلهم جيفارا، تقهقرت إلى خلفية الأجندة التاريخية.

بالنسبة لتشى، القاعدة الماركسية الأساسية: "من كل حسب قدرته إلى كل حسب احتياجه"، لم تكن ببساطة شعاراً للمدى الطويل ولكنها ضرورة عملية ملحة يجب تطبيقها على الفور. العراقيل المضنية لتطوير بلد صغير طبقاً لقواعد اشتراكية، وعلى الجانب الآخر، العراقيل الخاصة فى سياق هجوم الإمبريالية الأمريكية المستمر (على شكل حصار



ومـقـاطـعـة، وغـزو، وتهـديد بحـرب نووية، وتحـرشـات اقـتـصـادية وأيديولوجـيـة)، كل ذلك كـان يصـارع ضـد رؤية تشى وضـيق اخـتـيـارات المجتمع الثورى لبدائل أحلاهما مر.

فى خـضـم هذه الضـغـوط المتـعـارضـة، حـاول جيـفـارا وضـع مـقـاييس مـخـتلفـة لكوبا، وللإنسـانية عـمومـاً. أدار جيـفـارا عملية توزيع مـلايين الدولارات التى حصل عليها من الاتحـاد السـوفيـتى، كوزير للمـالية، على الفنانين، وعلى الفلاحين الذين يعيشون فى فقر مدقع، وهو أمر يعتبر فى الولايات المتحدة، كما نقول عليه، "مخاطر شديدة التواضع".

استشـاط البيـروقراطيون الروس غيظاً، مثل أى بنكير رأسـمالى، من اتجاه جيفارا القـائل بـ "خذ ما تحتاجه، ولا تشغل بالك بكيفية سداده". فقد نبهوا فيدل كاسترو إلى ضرورة السيطرة على جيفارا وشددوا على ضـرورة اصدار لوائح لتنظيم التـوزيع "الأمـثل" للتـمـويل، وهو مـا حـدث بالضبط بعد عشرين سنة تحت حكم بريجنيف.

تشى، كرئيس لبنك كوبا الوطنى، وهو يبحر ضد التيار كعادته دائماً جعل ورق البنكنوت الكوبى مشهوراً عندما كان يوقع عليه بكلمة "تشى".

كان السؤال الأول الذى سـأله تشى لموظفيه عندما تولى إدارة البنك، "أين تودع كوبا احتياطى ذهبها ودولاراتها؟" وعندما أخبروه فى " فورت نوكس" بدأ مـبـاشـرة فى تحويل احتياطى الذهب الكوبى لعـمـلات غـيـر أمريكية ثم صدرها للبنوك الكندية والسويسرية.

ولم يكن اهتمام تشى منصباً على تطوير مؤسسات بنكية "كمحلل" فى كوبا، ولكن اهتمامه انصب على شيئين: محاربة الإمبريالية الأمريكية، مثل ابعاد ذهب الثورة من بين مـخالب حكومة الولايات المتحـدة (والتى

كانت تستطيع بسهولة شديدة اختراع عذراً لمصادرته، كما فعلت بالممتلكات الكوبية الأخرى فيما بعد. كان تشى بعيد النظر فى فهم أن هذه الأشياء قابلة للحدوث؛ وعلى نفس مستوى الأهمية، اهتم بإيجاد سبل بناء وتمويل خلق إنسان اشتراكى جديد دون الاعتماد على الآليات الرأسمالية، التى فهم أنها سوف تنتهى بتدمير أروع الجهود. وضع تشى وجهة نظره بأروع ما يكون، والذى جرى أيضاً أنها أصبحت أفكار اليسار الجديد دولياً، فى خطاب عن الطب الثورى قال جيفارا

"لقد زرت لحد ما، كل بلاد أمريكا اللاتينية، ما عدا هايتى وسانتو دومينجو. وكانت الظروف التى أحاطت بترحالى، فى المرة الأولى كطالب، وفيما بعد كطبيب، سبباً فى تعرفى عن قرب بالفقر، والجوع، والمرض؛ بالعجز عن علاج طفل بسبب الحاجة إلى المال؛ بظلام العقول الذى يخلقه الحرمان المستمر والمعاملة القاسية، لتلك الدرجة التى يستطيع الأب فيها أن يقبل موت احد أبنائه كأمر عادى غير مهم، كما يحدث غالباً فى الطبقات السفلى فى أمريكا موطننا الأم. بدأت وقتها إدراك أن هناك أشياء كانت فى الأهمية بالنسبة لى مساوية لأن أصبح عالماً مشهوراً أو مساوية لتقديمى مساهمة كبيرة فى العلوم الطبية: أدركت أننى أرغب فى مساعدة هؤلاء الناس.

ورغم أنه تولى بعد استقرار الحكومة الثورية الجديدة على التوالى، وأحيانا فى نفس الوقت مناصب: سفير منتدب إلى الهيئات الدولية الكبرى. منظم الميليشيا. رئيس البنك المركزى. مسئول التخطيط. وزير الصناعة. ومن مواقعه تلك قام "تشى" بالتصدى بكل قوة لتدخلات الولايات المتحدة ؛ فقرر تأميم جميع مصالح الدولة بالاتفاق مع كاسترو؛ فشددت الولايات المتحدة الحصار، وهو ما جعل كوبا تتجه تدريجياً نحو



الاتحاد السوفيتى وقتها. كما أعلن عن مساندته حركات التحرير فى كل من: تشيلى، وفيتنام، والجزائر.

وكان الاقتصاد الكوبى الذى ورثه فيديل يعتمد على تصدير السكر، وتحديداً إلى أمريكا. أراد كاسترو إنهاء هذه التبعية، وإعادة بناء كوبا كدولة إنسانية متقدمة.

وجد جيفارا نفسه فجأة وزيراً للاقتصاد. فاتبع سياسة غير رسمية فى عمله، يمكن اختصارها بالطريقة البسيطة التى وقع فيها العملة الكوبية الجديدة. تشى. بساطته وتواضعه ووسامته، جعلت منه وزيرًا غير اعتيادى للاقتصاد.

أثناء محاولات واشنطن اغتيال كاسترو بالسيجار الملغوم، كان السوفيت يعززون تحالفهم مع كوبا، لتنشأ علاقة ساهم بها تشى، على اعتبار أن الاتحاد السوفيتى يحمل النماذج الفكرية والاقتصادية التى يسعى لتطبيقها فى كوبا.

رغم أن جيفارا المحارب والقائد والزعيم، لم يكن اقتصادياً، إلا أن مساعيه زرعت روح العمل الجماعى التى ما زالت سائدة حتى اليوم، وما زال الاقتصاد الكوبى يواجه العوائق الصعاب الناجمة عن أكثر من أربعين عاماً الحصار الأمريكى المجحف ضد كوبا.

كانت ملامح جيفارا الهادئة تتناقض مع كيانه الداخلى الثائر، فقد عرف عنه المثابرة فى العمل ولكن عفته الشخصية جعلته يصلح لممارسة العمل الاقتصادى بنقاء ونظافة يده.

أما أكبر الصدامات بينه وبين الاتحاد فقد كان ما عرف بأزمة الصواريخ السوفيتية. ففى الثامن والعشرين من أكتوبر عام ١٩٦٢ حبس



العالم أنفاسه أثناء خوض كندى فى لعبة الروليت الروسية. حين علم بأن خروتشوف قد وضع صواريخ نووية على أرض كوبا، أصدر تهديداً نهائياً بإعلان حرب نووية إن لم يتم انتزاع تلك الصواريخ. بعد الاتفاق مع واشنطن نزع خروتشوف الصواريخ وأعادها إلى روسيا دون التشاور مع كوبا.

غضب جيفارا لما اعتبره استخفافاً من قبل خروتشوف لتخطيه سيادة كوبا وزعامتها. كما أغضب ذلك فيديل كاسترو أيضاً، ولكنه نجح كسياسى فى ضبط مشاعر الغضب لديه وتسخيرها لتعزيز التحالف مع السوفييت لما فيه مصلحة كوبا ومستقبل الثورة فيها.

فى نفس الوقت بقى جيفارا على عهده فى مقارعة الأمريكيين ومساعيهم التوسعية فى أرجاء العالم مسلطاً الأضواء على جميع تحركاتهم المشبوهة فى أرجاء العالم، وفى بداية الستينات ألقى فى أحد المحافل الدولية خطاباً حذر فيه واشنطن من مغبة الاستمرار فى محاولات الهيمنة الجارية فى القارة السمراء فقال:

والآن تسعى القوات الأمريكية إلى التدخل فى الكونغو، ولماذا؟ للتورط فى فيتنام أخرى، وكى تتعرض لهزيمة أخرى دون شك، مهما مر على ذلك من وقت، ولكن هزيمتهم حتمية.

الثوار ينتابهم الصقيع على الكراسى

لم يكن جيفارا خلال تلك الفترة "رجل الثورة الكوبية الاقتصادى" فحسب، بل كان رجل المهمات السرية والخاصة، فنرى كاسترو يرسله كديبلوماسى متجوّل إلى الأرجنتين والأمم المتّحدة وجنيف وإلى دول العالم الثالث، فيقابل نهرو وعبد الناصر وسوكارنو، ويوقع فى موسكو

سنة ١٩٦٢ الاتّفاق السرى الذى سوف يؤدّى إلى تركيز الصواريخ السوفيتية فى كوبا، وما سينتج عنها من توتّر دولى.

لكنّ التململ ما لبث أن انتابه من جديد، وأخذ يشعر بأنّه لم يعد ثائراً حقيقياً بل مجرّد رجل مسئول. وكان يردّد أنّ جميع البروتوكولات والرسميات "على حذائه"، وأنّه لن يدفن نفسه إلى الأبد فى كرسى المسئولية والحكم. كان يسخر ويهزأ بكلّ شىء، إلا الثورة. لذلك، نرى الأعداء يكثرون حوله، خاصة بعد فشل بعض مخطّطاته الاقتصادية، وبعدما برز كمثالى وإنسانى و"ماركسى متطرّف" أكثر ممّا برز كعالم يقيم للحسابات والأرقام وزناً.

ويصف رينيه دومون جيفارا، فى الكتاب الذى خصّصه عن كوبا، فيقول: "إنّ "تشى" له نظرة مثالية إلى الإنسان الاشتراكى الغريب، فى مجتمع تجارى، وأنه كان يحكم بقسوة على النجاح الصناعى فى الاتّحاد السوفيتى فيقول: "كلّ الناس تعمل وتكدّ وتنشط لتتجاوز نفسها، لكنّ الهدف الوحيد هو الربح. وأنا ضدّ الربح، ومع الإنسان. ماذا يفيد المجتمع، أى مجتمع، إذا ربح الأموال وخسر الإنسان؟"

فى ١٩٦٤، يرسل كاسترو "تشى" جيفارا كسفير متجوّل للثورة الكوبية، وكان ذلك بعدما بدأت كوبا تتخلّى عن مخطّطاته فى التصنيع والتنمية الاقتصادية. ويلقى جيفارا خطاباً فى الأمم المتّحدة، ثم ينتقل إلى إفريقيا وآسيا مطلقاً تصريحات عنيفة كانت تثير جدلاً داخل كوبا وخارجها.

فى الجزائر، يعلن أنّ "أفريقيا تمثّل ساحة من أهم ساحات المعارك ضدّ جميع قوى الاستغلال الموجودة فى العالم". ثم ينتقد الاتّحاد السوفيتى الذى أصبح "بلداً أنانياً بورجوازياً" على حدّ تعبيره، ويطلب من

الاتّحاد السوفيتى أن يساعد مجاناً ومن غير شروط الدول الاشتراكية الفقيرة. ثم ينتقد مبدأ التعايش السلمى بين موسكو وواشنطن ويقول: "إنَّ الواجب المعنوى والسياسى للدول الاشتراكية يتطلّب منها تصفية كلّ نوع من التعاون مع الدول الرأسمالية فى الغرب". ويطالب الاتّحاد السوفيتى بإعادة علاقاته مع الصين الشعبية ويقول: "نحن مرتبطين أشدّ الارتباط بقوة المعسكر الاشتراكى ووحدته، لذلك فإنَّ الخلاف السوفيتى الصينى يشكّل خطراً شديداً علينا".

أثارت تصريحات جيفارا أوساط الحكومة الكوبية، خاصةً وأنَّ كاسترو كان قد انضمَّ إلى المعسكر السوفيتى، لإنقاذ ثورته، بعدما قطع جميع العلاقات مع الولايات المتّحدة، ووجد أن موسكو تستطيع وحدها مساعدة كوبا. لكن جيفارا كان له رأى آخر: الخطّ الصينى بقيادة ماو تسى تونغ هو الخطّ الماركسى الثورى الصحيح، وأما خط موسكو فهو يميل إلى "بورجوازية وبيروقراطية الدولة، وإلى التساهل فى الكثير من الأمور الثورية الحقيقية".

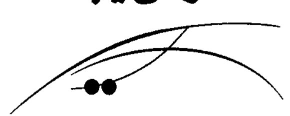
وفى عام ١٩٦٥ يقرر جيفارا أن يودع حياة السياسة ليعود ثانية إلى الحياة التى يعتقد أنه خلق من أجلها. ويبدو أنه قرر ذلك، من ناحية لأنه أدرك أنه لا أمل فى تحقيق ما يريد لهذه الدولة الناشئة التى كان يحلم أن تكون نموذجاً. ومن ناحية ثانية ليقينه وإيمانه أن الدور الأكبر والأعظم له هو أن يظل ثائراً يقاتل فى سبيل تحقيق أحلام الفقراء وتخليصهم من المظالم والديكتاتورية والذل.

أما عن أسباب قرار جيفارا، وعن عودته للكفاح المسلح ضد الإمبريالية فسوف نتناوله فى الفصل المقبل.

■ ■ ■

9

الجلوس على
الكرسى يجمد الثوار

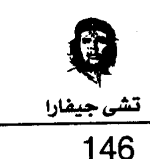


آمن جيفارا أنه لا يمكن لثائر أن يركن إلى الراحة وأن يدع بندقيته بعد أن تنجح ثورته، فمعارك الثوار لا تنتهى. والثورة تتجمد كما أن الثوار ينتابهم الصقيع حين يجلسون على الكراسى. ثم أنه كان يؤمن بأن نجاح المعركة فى كوبا يجب أن يكون حافزاً على الانتصار فى معارك أخرى فى العالم. يجب أن يتم تحرير كل بلاد العالم الواقعة تحت الاستعمار والرازحة تحت حكم أنظمة ديكتاتورية. ولهذا كان جيفارا على يقين أن معركته لم تنته بعد وأن كوبا ليست إلا الجولة الأولى فيها. كما أن جيفارا عاهد نفسه على مقاومة الإمبريالية الأمريكية فى كل مكان فى العالم. ولأنه يدرك أنه ثائر أممى فإن الواجب عليه أن يهب لمساندة الثوار فى كل بقاع الأرض. ولهذا لم يكن غريباً أن يقرر جيفارا اعتزال السياسة والعودة من جديد إلى صفوف الثوار وإلى حمل البندقية التى يجب ألا تفارق الثائر طوال حياته.

وفى ٥ مارس ١٩٦٥، يعود جيفارا إلى هافانا بعد عدة جولات قام بها بتكليف من كاسترو للدعاية للثورة الكوبية، زار خلالها دولاً فى آسيا وأفريقيا. لكن مع هذه العودة يبدأ السر يخيم على هذا الرجل. وهناك روايتان حول اختفاء جيفارا من كوبا.

الرواية الأولى تقول إن جيفارا شعر بفشله كرجل دولة، وأدرك أنه لا يستطيع أن يكون إلا الثائر المتجول الذى ينطلق فى أمريكا اللاتينية المليئة بحكايات الأبطال والثوار. وتقول هذه الرواية إن جيفارا بعد عودته إلى هافانا من جولة دامت ثلاثة أشهر، أعلن أمام كاسترو حاجته إلى ترك الكرسى الذى يجلس فوقه وضرورة مغادرته البلاد ليعود الثائر الباحث عن الآمال البعيدة. ويردد جيفارا أمام كاسترو العبارة الشهيرة التى دفعته فى يوم إلى أن يتخلى عن مجتمعه وعائلته ووطنه: "التاعسون هم مصدر القوة فى العالم".

ويقول جيفارا إنه سيبحث عنهم وسيثور من أجلهم ثم يضيف: "إن الثورة تتجمد، والثوار ينتابهم الصقيع حين يجلسون على الكراسى ويبدأون بناء ما ناضلت من أجله الثورة. وهذا هو التناقض المأساوى فى الثورة: أن تناضل وتكافح وتحارب من أجل هدف معين، وحين تبلغه، وتحققه، تتوقف الثورة وتتجمد فى القوالب. وأنا لا أستطيع أن أعيش ودماء الثورة مجمدة داخلى". على أن هذا الموقف لم يكن مفاجئاً حيث أن جيفارا كان قبله قد اصطدم بالممارسات الوحشية والفاسدة التى كان يقوم بها قادة حكومة الثورة وقتها، والتى كانت على عكس ما يرى فى الماركسية من إنسانية.. فقرر الـ"تشى" مغادرة كوبا متجها إلى الكونغو الديمقراطية (زائير)، وأرسل برسالة إلى كاسترو فى أكتوبر ١٩٦٥ تخلى فيها نهائياً عن مسئولياته فى قيادة الحزب، وعن منصبه كوزير، وعن رتبته كقائد، وعن وضعه ككوبى، إلا أنه أعلن عن أن هناك روابط طبيعة أخرى لا يمكن القضاء عليها بالأوراق الرسمية، كما عبر عن حبه العميق لكاسترو ولكوبا، وحنينه لأيام النضال المشترك.



أما موقف كاسترو فرغم إدراكه أهمية التركيز على تعزيز إنجازات الثورة وضمان التقدم والتنمية فى كوبا إلا أنه لم يتردد فى احترام قرار جيفارا فى تقديم الدعم للحركات الثورية المناهضة لأمريكا فى العالم.

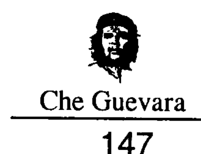
سعى جيفارا لإقامة مجموعات حرب عصابات فى الكونغو، مع أن فكرته لم تلق صدى واسعاً لدى بعض القادة، أصر جيفارا على موقفه، وتموه بملابس رجل أعمال ثرى، لينطلق فى رحلة طويلة سافر فيها من بلد إلى آخر ليواجه المصاعب تلو الأخرى. ولكنه لم يتمكن من الوصول إلى الكونغو التى سعى إليها، فبقيت الثورة هناك حلماً يراود أفكاره.

بعد أشهر من حروبه المتعاقبة، نشرت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية شائعات تدعى فيها اختفاء جيفارا فى ظروف غامضة ومقتله على يد زميله فى النضال القائد الكوبى فيديل كاسترو ما اضطر الزعيم الكوبى للكشف عن الغموض الذى اكتنف اختفائه من الجزيرة للشعب الكوبى فأدلى بخطابه الشهير الذى ورد بعض أجزائه ما يلى:

" لدى هنا رسالة، كتبت بخط اليد، من الرفيق، إرنيستو جيفارا يقول فيها: أشعر أنى أتممت ما لدى من واجبات، تربطنى بالثورة الكوبية على أرضها، لهذا استودعك، وأستودع الرفاق، وأستودع شعبك، الذى أصبح شعبى. أتقدم رسمياً باستقالتى من قيادة الحزب، ومن منصبى كوزير، وعن رتبة القائد، وعن جنسيتى الكوبية، لم يعد يربطنى شىء قانونى بكوبا.

أكدت هذه الرسالة إصراره على عدم العودة إلى كوبا بصفة رسمية، بل كثائر يبحث عن ملاذ آمن بين الحين والآخر. ثم أوقف مساعيه الثورية فى الكونغو وأخذ الثائر فيه يبحث عن قضية عالمية أخرى.

علق الآمال على قدرته فى مساعدة الفلاحين فى حروبهم الثورية من أجل المساواة، فصار حينها يبحث بشغف عن مكان يتابع منه مواجهة



التوسع الأمريكى. تحولت أمريكا اللاتينية إلى هدف رئيسى لما فيها من فقر ومعاناة وشروط تضمن الظروف اللازمة لاستمرار الثورة، اختار جيفارا البلد الأكثر تعرضاً للهجمة الأمريكية فى القارة، فدعم كاسترو قراره بكل احترام.

وافق فيديل كاسترو على مساعى جيفارا، فقدم له الدعم اللازم، وساعده فى تقديم كل ما يلزم لمتابعة مسيرته الثورية على طريقته. فانتحل جيفارا هوية رجل أعمال من أوروجواى وتوجه إلى بوليفيا التى وجد فيها نقطة انطلاق لحرب ثورية مناهضة للتوسع الأمريكى وتساهم بنشر الاشتراكية فى العالم أجمع.

ولكن المصاعب أخذت تتوالى على مشروعه الهائل، كانت الحياة صعبة، وفيها بعض الأمل، وكأن الفلاحين ترددوا فى السعى لتغيير الحالة السائدة. عندما وصل جيفارا إلى هناك مع رجاله يبحثون عن مجندين، لم يجدوا إلا قلة وقفت معهم نتيجة الحملات الدموية التى أعلنتها الحكومة المؤيدة للولايات المتحدة هناك، والتى أدرك الفلاحون والهنود أنها لن تستثنى أحداً فى دمويتها المعهودة.

كما ساهمت الدسائس الأمريكية فى خلق نزاعات فى أوساط اليساريين أنفسهم كثيراً ما تحدث عنها زعيم الحزب الشيوعى البوليفى ماريو مونهى فى عدة مناسبات محذراً جيفاراً من حالة الجزر الثورية والانقسامات التى تعانيها البلاد فى تلك الفترة.

منذ بداية عام ١٩٦٧، وجد جيفارا نفسه مع مقاتليه العشرين، وحيدا يواجه وحدات الجيش المدججة بالسلاح بقيادة السى أى إيه فى برارى بوليفيا الاستوائية.

أما لماذا اختار جيفارا بوليفيا؟ فيجيب عن ذلك ريجيس دوبريه، المفكّر الفرنسى الماركسى الذى ارتبط اسمه مؤخّراً بقضية جيفارا، بعد أن قابل هذا الأخير، فى آذار ١٩٦٧ وذكر أنه كلف بمهمة من قبل الثوار، وهو يحاكم فى بوليفيا بتهمة التعاون مع جيفارا والثوار، فى مقال نشر عام ١٩٦٥ فى مجلة "الأزمة الحديثة": "إن بوليفيا هى أضعف حلقة من سلسلة بلدان أمريكا اللاتينية المعدة للانقلابات. وتشكل المناجم البوليفية، من حيث أهميتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية (مستوى الوعى والتنظيم) أهم وأمتن منطقة حرة فى القارة الأمريكية. فمنذ ثورة ١٩٥٢، وهى الثورة الأولى فى أمريكا اللاتينية التى صنعها عمال المناجم وانتصروا فيها ثم نظموا أنفسهم فى كل منجم على شكل ميليشيا، وأصبح النضال المسلح الواقع اليومى لعمال المناجم. وبوليفيا هى البلد الذى تجتمع فيه الشروط الذاتية والموضوعية على أفضل صورة، والبلد الوحيد فى أمريكا اللاتينية التى أصبحت فى الثورة الاشتراكية مدرجة فى جدول الأعمال، رغم إعادة بناء الجيش، الذى تدمر تدميراً كاملاً عام ١٩٥٢. كما أنها البلد الوحيد الذى يمكن للثورة فيه أن تتخذ الشكل البولشيفى".

وفى ٢٣ مارس ١٩٦٧، يظهر "تشى" جيفارا من جديد حين يقود حركة رجال العصابات ضد نظام الجنرال رينيه بارينتوس العسكرى فى بوليفيا لإسقاطه. ووجدت حركة "تشى" تأييداً من مختلف الفئات السياسية فى بوليفيا، إذ إن الأحزاب السياسية البورجوازية هناك هى مع رجال العصابات وليست ضدهم. لكن الجيش استطاع أن يرد هجمات رجال العصابات، وإن لم ينتصر عليهم نهائياً ولم يقبض على جيفارا رغم وعود الجنرال بارينتوس المتكررة. وكانت التعزية الوحيدة للجنرال أن رجاله



قبضوا على دوبريه ووضعوه فى السجن، وعذبوه، ثم قدموه إلى المحاكمة، على أمل أن يحكم عليه بالعقوبة الأقصى أى ٣٠ سنة فى السجن مع الأشغال الشاقة.

كان جيفارا يحمل معه فى تجواله عبر أمريكا اللاتينية، ونشره بذور الثورة فى بلادها الشاسعة الكبيرة، المبادىء والآراء التى ذكرها فى كتابه الشهير "حرب العصابات" المنشورة للمرة الأولى فى كوبا سنة ١٩٦٣. والكتاب يشكل نواة أساسية للثورات والثوار فى أمريكا اللاتينية، انطلاقاً من تجربة جيفارا نفسه خلال الثورة الكوبية.

لكنه لم يهتم بالمناصب والأمجاد والسلطة (إن الثوار ينتابهم الصقيع حين يجلسون على الكراسى)، ودفع به اقتناعه بأن حرب العصابات الثورية هى الوسيلة الوحيدة لتخليص البلاد المقهورة من التصلت الامبريالى على مقدرات شعوبها، لكنه آمن بالنضال الأممى بعيداً عن الشوفينية: (لايهمنى متى وأين وكيف سأموت بل كل ما يهمنى هو أن يبقى الثوار واقفين يملأون الأرض ضجيجاً كى لا ينام العالم بكل ثقله فوق أجساد البائسين والفقراء والمظلومين).

وعن ذلك يقول كاسترو (لم تفارقه فكرة أنه عندما ينتهى الكفاح فى كوبا فإن عليه واجبات فى أمكنة أخرى من العالم، لقد قطعنا على أنفسنا وعداً بأننا لن نطلب منه البقاء ولن نمنعه من تحقيق هذه الرغبة).

لتفسير كل ما حدث من بعد، يقول فيديل كاسترو إن «الوعد الوحيد الذى قطعته لجيفارا أيام المكسيك هو بعدم الضغط عليه يوم يقرر المغادرة».



وهناك رواية أخرى عن اختفاء جيفارا تبدو للوهلة الأولى أكثر "واقعية". تقول هذه الرواية إنَّ فيديل كاسترو وشقيقه راؤول ودورتيكوس ـ الذى احتلَّ جميع مراكز "تشى" ـ كانوا ينتظرون جيفارا يوم ٥ مارس ١٩٦٥ فى المطار، وأنّه فور نزوله من الطائرة أخذوه إلى غرفةٍ صغيرة زجاجية تستعمل لاستقبال ضيوف الشرف وكان يبدو أنَّ السلطات الكوبية تريد أن يتجنب جيفارا التحدث إلى أحد.

وتضيف الرواية أن مشادة عنيفة وقعت بين جيفارا من جهة، وراؤول كاسترو ودورتيكوس من جهة ثانية، بينما بقى فيديل "على الحياد". ويُقال إن الجدال اشتد إلى درجة أن دورتيكوس، الذى أثارته ردود تشى العنيفة، أخرج مسدسه من جيبه الخلفى وحاول إطلاق النار عليه.

لكن كاسترو منعه من ذلك. وكان النقاش يدور حول تهجم جيفارا على الاتحاد السوفييتى، والذى اعتبره المسئولون فى كوبا تهجماً غير مباشراً على سياسة كوبا نفسها.

وتقول الرواية أيضاً إن جيفارا التقى مرةً ثانية ليلة وصوله إلى هافانا بفيديل كاسترو وشقيقه راؤول ودورتيكوس وبعض الرفاق القدامى، وأن الجدال اشتد بين تشى والآخرين فاضطر أحد الموجودين لأن يشهر مسدسه ويطلق رصاصة. ولا أحد يعلم أين انطلقت الرصاصة ومن أصابت.

ومنذ ذلك اليوم بدأ السر يحوم حول جيفارا.

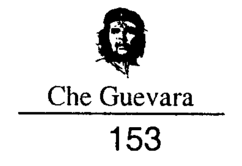
وفى ٢٢ مارس ١٩٦٥ يلقى تشى محاضرة بين عدد ضئيل من المستمعين، يتحدث فيها عن رحلته، ويقول إنه مرتاح الضمير لأنه خدم قضية كوبا بينما يتهمه الآخرون بخيانتها.

وفى مايو من السنة نفسها، يشاهد جيفارا للمرة الأخيرة فى هافانا فى دار "منشورات الثورة"، حيث جاء لتصليح "بروفات" كتابه: "الاشتراكية والإنسان فى كوبا".

■■■

10

الاشتراكية والإنسان فى كوبا



اعـتـدنا أن نـسـمع من فم الناطـقـين الـرأسـمـاليـين هذا الاعـتـراض الإيديولوجى بأن فـترة بناء الاشتراكية، التى نـرتبط بها، تتميز بتضحية الفرد على مذبح الدولة.

لن أحاول دحض هذا التأكيد على قاعدة نظرية مجردة، بل سأعيد الواقعات كما عاشها الناس فى كوبا مضيفا إليها تعليقات عامة.

فقبل كل شىء، سأرسم بإيجاز الملامح الكبرى لتاريخ نضالنا الثورى قبل وبعد الاستيلاء على السلطة.

فـى ٢٦ تمـوز ١٩٥٣ وُلِدَتْ النضالات الثورية التى انتهت إلى الثورة فى الأول من كانون الثانى ١٩٥٩. عندما هاجمت جماعة من الرجال، يقودهم فيدل كاسترو، فى فجر ذلك اليوم، ثكنة مونكادا فى المقاطعة الشرقية. كان الهجوم فاشلا وتحول الفشل إلى نكبة، إذ أُلقى القبض على الأحياء وسجنوا، لكنهم عادوا إلى النضال الثورى حالما عُفِىَ عنهم. وخلال هذا التسلسل الذى لم تكن الاشتراكية فيه سوى فكرة خبيئة، كان الإنسان هو العامل الأساسى. ففى الإنسان الكائن الوحيد، الذى يحمل اسما ولقبا، كنا نضع ثقتنا، وبأهليته للعمل كان يرتبط نجاح الصراع الدائر أو فشله.



ثم جاءت مرحلة الغوار. لقد نما الغوار فى أوساط متباينة فى الشعب. الكتلة التى كانت ما تزال نائمة والتى كان يجب تعبئتها، وفى طليعتها المغاوير، الذين كانوا يحركون الوعى الثورى والحماس القتالى. كانت هذه الطليعة العامل الوسيط الذى خلق الشروط الذاتية الضرورية للنصر. وبمقدار ما كنا نتبنى المثل العليا للبروليتاريا، وكانت الثورة تتم فى عاداتنا وفى أذهاننا، كان الفرد ما يزال عاملا أساسيا.

فكل محارب من محاربى السييرا ماسترا، اكتسب رتبة أعلى فى القوات الثورية، كان يحقق عددا كبيرا من الأعمال الباهرة. وعلى هذه القاعدة كان يحصل على رتبه.

وفى خلال هذه المرحلة البطولية الأولى، كنا نتخاصم للحصول على المهام المشتملة على أكبر المسئوليات وأفدح الأخطار دون أن تُرضى شيئا آخر غير القيام بالواجب.

وغالبا ما نرجع إلى هذه الواقعة المليئة بالتعاليم فى عملنا التربوى الثورى. كان موقف محاربينا يشف عن إنسان المستقبل. فقد تكرر هذا التفانى الكلى للقضية الثورية فى مناسبات أخرى عديدة من تاريخنا، وقد رأينا، خلال أزمة تشرين الأول ولدى وقوع إعصار افلوراب، أفعال شجاعة وتضحيات استثنائية يحققها شعب بأسره.

إن إحدى مهامنا الأساسية، من وجهة النظر الإيديولوجية، هى إيجاد الصيغة لإدامة هذا الموقف البطولى فى الحياة اليومية.

فى كانون الثانى ١٩٥٩، تشكلت الحكومة الثورية، بمشاركة مختلف الأعضاء من البرجوازية الرجعية. وكان وجود الجيش المتمرد، عامل القوة، يشكل ضمانة الحكم. لكن ظهرت فى الحال تناقضات جدية أمكن التغلب

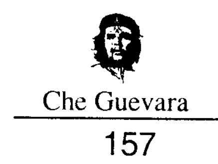
عليها جزئيا عندما تقلد فيدل كاسترو فى شباط ١٩٥٩ قيادة الحكومة بصفته وزيرا أول. وقد وجب أن تؤول هذه الأحداث، فى تموز من السنة نفسها، إلى استقالة الرئيس أوروتيا تحت ضغط الجماهير. وهكذا ظهر بوضوح فى تاريخ الثورة الكوبية عنصر سيتبدى بانتظام: الجماهير.

تفسير صحيح لرغبات الشعب

هذا الكائن ذو الأوجه العديدة ليس، كما يزعمون، مجموعا من العناصر المتشابهة، كلها يعمل كقطيع مطيع (بعض الأنظمة تعتبره كذلك). صحيح أنه يتبع قادته، دون تردد، وبصورة رئيسية فيدل كاسترو، بَيْدَ أن درجة الثقة التى حاز عليها فيدل تتناسب على وجه الضبط مع تفسيره الصحيح لرغبات الشعب وآماله ومع الكفاح الصادق الذى خاضه لتحقيق الوعود التى قطعها.

لقد شاركت الجماهير فى الإصلاح الزراعى وفى المهمة الشاقة، مهمة إدارة مشروعات الدولة، وعانت التجربة البطولية فى بلاياخيرون، وتمرست فى الكفاح ضد مختلف قُطاع الطرق الذين تسلحهم وكالة المخابرات المركزية، وعاشت أهم لحظات التاريخ الحديث أثناء أزمة تشرين الأول، وهى اليوم تواصل العمل فى بناء الاشتراكية.

قد يُظن لأول وهلة أن أولئك الذين يتحدثون عن خضوع الفرد للدولة محقون فى قولهم، فالجماهير تنجز، بحماس وانضباط لا مثيل لهما، المهام التى حددتها الحكومة، سواء أكانت اقتصادية أو ثقافية، دفاعية أو رياضية، الخ. وتأتى المبادهة، بصورة عامة، من فيدل أو من القيادة العليا، للثورة فتشرح لشعب الذى يتبناها. وكثيرا ما يطرح الحزب والحكومة تجربات محلية، لتعمم بعدئذ، تبعا للطريقة ذاتها.



ومع ذلك تُخدع الدولة أحيانا. فعندما يحصل خطأ من هذه الأخطاء، نلاحظ نقص الحماس لدى الجماهير من تناقض نشاط كل واحد، ويشل العمل حتى يتقلص إلى أبعاد تافهة، عندها تحين لحظة تبديل الطريقة.

هذا ما حدث فى آذار ١٩٦٢، حيال سياسة التشيع التى فرضها هانيبال إسكالانته.

الوحدة الديالكتيكية بيت فيدل والجماهير

بديهى أن هذه الآلية لا تكفى لضمان اتخاذ قرارات فعالة وأنه ينقصها ترابط أكثر التحاما بالجماهير.

يجب علينا أن نحسّن هذه الآلية خلال السنوات المقبلة، بَيْدَ أننا نستعمل فى الوقت الحاضر، بالنسبة للمبادهات الصادرة عن الطبقات العليا فى الحكومة، الطريقة شبه الحدسية التى تنحصر فى معاينة ردود الفعل العامة تجاه المشكلات المطروحة. إن فيدل معلم فى هذه الأمور، ولا نستطيع تثمين الأسلوب الخاص الذى يندمج فيه بالشعب إلا إذا رأيناه أثناء العمل، ففى الاجتماعات العامة الحاشدة، نلاحظ ظاهرة مماثلة لظاهرة الطنين فى مقياسى نغم، فيبدأ فيدل والشعب بالاهتزاز فى حوار متزايد الشدة حتى يبلغ أوجه النهائى الذى يكرسه هتافنا بالنضال والنصر.

ومن الأمور الصعبة، بالنسبة لمن لا يعيش تجربة الثورة، أن يفهم ذلك الديالكتيك الوثيق القائم بين كل فرد والجماهير، وذلك التفاعل بين الجماهير وقادتها.

يمكن أن نرى بعض الظاهرات المماثلة، فى المجتمع الرأسمالى، عندما يظهر رجال سياسيون قادرون على إثارة التعبئة الشعبية. بَيْدَ أن القضية

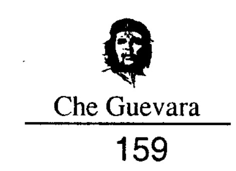


لا تكون عندئذ حركة اجتماعية، ذلك أن الحركة تدوم ما دام حيا ذلك الذى أمدَّها بالدفع، أو حتى نهاية الأوهام الشعبية، التى يفرضها المجتمع الرأسمالى. ففى هذه الحركة الأخيرة، يوجه الإنسان نظام قاس، لا تصل إليه الأفهام، عادة. والفرد المنحط يرتبط بالمجتمع فى مجموعه بحبل غير منظور: هو قانون القيمة. وهذا القانون يؤثر فى أوجه حياته كلها، ويكيف مصيره.

القوانين غير المنظورة للرأسمالية

إن القوانين العمياء للرأسمالية، القوانين التى لا يراها معظم الناس، تفعل فى الفرد دون أن يشعر بفعلها. فلا يرى سوى أفق واسع يبدو له غير محدود. بهذه الصورة تطمح الدعاية الرأسمالية إلى تقديم حالة روكفلر حقيقة أم لا - على أنها درس فى امكانات النجاح. فالبؤس الذى يجب تكديسه لينبثق مثال كهذا، ومجموع الحقارات التى تتضمنها ثروة على هذا القدر من الضخامة لا تظهر فى اللوحة ولا تستطيع القوى الشعبية أن ترى دوما هذه الظاهرات بوضوح. (كان يجب أن ندرس هنا الشكل الذى يفقد فيه العمال، فى البلدان الرأسمالية، وعيهم الأممى تحت تأثير إشراكهم فى قدر معين من استثمار البلدان التابعة، وكيف أن استعدادهم للقتال فى بلادهم، يضعف، تبعا لذلك، إلا أن هذا الموضوع يخرج عن نطاق بحثنا).

وعلى أية حال، فإن الطريق الذى يجب اجتيازه، فى مجتمع كهذا ملىء، بالعقبات، ويبدو فى الظاهر، أن فردا يمتلك صفات معينة يستطيع وحده اجتيازه للوصول إلى الهدف، ويترصد الناس المكافأة البعيدة بَيْدَ أن الطريق مقفر، يضاف إلى ذلك قانون الغاب: ذلك أن فشل الآخرين يتيح وحده النجاح.



سأحاول الآن تعريف الفرد، صانع هذه المأساة الغريبة والمثيرة، مأساة بناء الاشتراكية، فى وجوده المزدوج ككائن وحيد وعضو فى المجتمع.

أعتقد أن الأسهل الاعتراف بصفته ككائن غير تام. فعيوب المجتمع القديم تستمر فى الوعى الفردى ويجب القيام بعمل متواصل لمحوها. والتسلسل مزدوج: من جهة، المجتمع الذى يؤثر فى تربيته المباشرة، ومن جهة أخرى الفرد الذى يخضع فى موقف واع من التربية الذاتية.

محاربة الماضى بقسوة

يجب على المجتمع الجديد السائر فى طريق التكوين أن يحارب بقسوة كبيرة الماضى الذى يتردد صداه لا فى الوعى الفردى وحده، حيث تثقل كاهله بقايا تربية موجهة بانتظام نحو انعزال الفرد، بل يتردد أيضا فى الصفة ذاتها لهذه الفترة الانتقالية التى تدوم فيها العلاقات التجارية. فالبضاعة هى النواة الاقتصادية للمجتمع الرأسمالى، وما دامت هذه البضاعة موجودة، ستظل آثارها بادية فى تنظيم الإنتاج، وبالتالى، فى الوعى.

أبرز ماركس فى رسمه المبسَّط، فترة الانتقال على أنها نتيجة التحويل المتفجِّر للنظام الرأسمالى الذى تمزقه تناقضاته، ولقد رأينا، فى الواقع، كيف تنفصل عن الشجرة الإمبريالية بعض البلدان التى تكون فروعها الأضعف، وهى ظاهرة توقعها لينين.

ففى هذه البلدان، نمت الرأسمالية نموا كافيا لتشعر الشعب بنتائجها بشكل أو بآخر، بَيْدَ أن تناقضاتها هى، ليست هى التى تفجِّر النظام فى آخر المطاف. إن الكفاح التحررى ضد الطاغية الأجنبى، والبؤس الذى تحدثه أمور طارئة خارجية كالحرب، تكون نتيجتها زيادة ضغط الطبقات المتميزة على الطبقات المستثمَرة، وحركات التحرير التى تستهدف قلب

الأنظمة الاستعمارية الجديدة، هى عوامل تطلق عادة الحركة الثورية. وينجز العمل الواعى ما يتبقى.

لم تتم فى هذه البلدان بعد تربية كاملة موجهة نحو العمل الاجتماعى، ولا تتيح ظاهرة التملك وضع هذه الثروات فى متناول الجميع.

إن تبدُّلاً سريعاً وبلا تضحيات أمر مستحيل، بفعل التخلف فى التنمية من جهة، وهرب الرساميل العادى نحو البلدان المتمدنة من الجهة الأخرى. فما يزال علينا أن نقطع مراحل كثيرة قبل أن نصل إلى مستوى كافٍ من التنمية الاقتصادية، والإغراء كبير جداً للسير على دروب مطروقة، واللجوء إلى المصلحة المادية كدافع لتنمية اقتصادية متسارعة.

وعندئذ نتعرض لخطر هو أنه تخفى الأشجار الغابة: فثمة خطر لأن نقع فى مأزق إذا تتبعنا وهم تحقيق الاشتراكية بمساعدة أسلحة عفنة ورثناها عن الرأسمالية (البضاعة باعتبارها وحدة اقتصادية، جماعة العمل، المصلحة المادية الفردية باعتبارها حافزا، الخ). والواقع أننا ننتهى إلى مأزق بعد أن نجتاز مسافة طويلة تصالبت أثناءها الطرق فى أغلب الأحيان، مما يجعل من الصعوبة بمكان معرفة اللحظة التى ضللنا فيها الطريق. وفى هذه الأثناء، تكون القاعدة الاقتصادية المتبناة قد فعلت فعلها التخريبى فى تنمية الوعى. فمن أجل بناء الشيوعية، يجب تبديل الإنسان فى الوقت الذى نبدل فيه القاعدة الاقتصادية.

من هنا الأهمية العظيمة لانتقاء تعبئة الجماهير انتقاء صحيحاً. ويجب أن تكون هذه الأداة بصورة أساسية أداة أخلاقية، دون أن ننسى استخدام الحافز المادى استخداماً صحيحاً، ونخص بالذكر الحافز ذا الطبيعة الاجتماعية.

يجب أن يكون المجتمع مدرسة جبارة

سبق أن قلت إن من السهولة بمكان إعمال الحوافز الخلقية فى ساعات الخطر الأقصى، لكن، لكى تظل هذه الحوافز حية، يجب تنمية قيم جديدة فى الوجدانات، ويجب أن يصير المجتمع كله مدرسة جبارة. إن الخطوط الكبرى لهذه الظاهرة مماثلة لخطوط تكوين الوعى الرأسمالى فى حقبته الأولى. فالرأسمالية تلجأ للقوة، لكنها تعلم بالإضافة إليها إيديولوجيتها، إيديولوجية الطبقة المسيطرة. ويقوم بالدعاية المباشرة أولئك الناس المكلفون بشرح حتمية النظام الطبقى، سواء أكان من أصل إلهى أو فرضته الطبيعة بصورة آلية. وهذه الدعاية تجرد الجماهير من سلاحها، حيث ترى نفسها مظلومة من قبل شر يستحيل عليها مكافحته.

ثم يجىء الأمل، وبهذا تفترق الرأسمالية عن الأنظمة الطبقية السابقة التى لم تكن تدع أى مخرج ممكن.

يرى البعض، أن الصيغة الطبقية ستظل صالحة: المكافأة لأولئك الذين يطيعون، ذلك هو الدخول بعد الموت إلى عوالم رائعة أخرى يكافأ فيها الطيبون، وهكذا، تستمر التقاليد القديمة. ويرى آخرون أمراً مبتكرا: فالانقسام إلى طبقات يظل أمراً محتوماً، بيْدَ أن الأفراد يمكن أن يخرجوا من الطبقة التى ينتمون إليها بالعمل، والمبادهة، الخ. هذه التربية الذاتية بقصد النجاح براء محض: فهم يحاولون أن يعظوا لغاية مصلحيّة. إن هذه الكذبة، النجاح الفردى، فى متناول الجميع.

أما نحن فنرى أن التربية المباشرة ترتدى أهمية أكبر بكثير. فالتفسير مقنع لأنه صحيح، ولا يحتاج إلى الحيل. والتربية المباشرة تتم من خلال

جهاز الدولة التربوى تبعاً للثقافة العامة، التقنية والإيديولوجية، بواسطة هيئات رسمية مثل وزارة التربية وجهاز التربية فى الحزب. فتنغرس التربية فى الجماهير ويميل الوضع الجديد المقترح لأن يصير عاماً، وتتبناه الجماهير وتضغط على أولئك الذين لم يتربوا بعد. ذلك هو الشكل غير المباشر لتربية الجماهير، وهو شكل يساوى فى قوته الشكل الثانى.

تربية الفرد الذاتية

بَيْدَ أن هذه التربية واعية، ويتلقى الفرد باستمرار تأثير السلطة الاجتماعية الجديدة ويدرك أنه لم يتآلف معها تآلفاً تاماً. ويحاول، بالتربية غير المباشرة أن يتكيف مع وضعه يبدو له عادلا، وهو أمر لم يستطع تحقيقه حتى الآن بسبب نقص تنميته الخاصة. فهو يربى نفسه بنفسه.

فى هذه الحقبة من بناء الاشتراكية، نستطيع أن نساعد فى ولادة الإنسان الجديد. إن صورته لم تحدد بعد كل التحديد، ولا يمكن أن تكون كذلك باعتبار أن هذا التطور مواز لتنمية بنى اقتصادية جديدة. فعدا أولئك الذين يدفعهم نقص تربيتهم نحو طريق وحيد، نحو الإرضاء الأنانى لأطماعهم، هنالك الذين يميلون، حتى فى داخل الإطار الجديد للتطور الجماعى، إلى التقدم منعزلين عن الجماهير التى يرافقونها.

والمهم أن يكتسب الناس كل يوم وعياً أكبر لضرورة اندماجهم فى المجتمع ولأهميتهم كمحرك لهذا المجتمع فى الوقت ذاته. فلم يعودوا يتقدمون تماماً لوحدهم، عبر طرق ملتوية، نحو رغباتهم البعيدة. بل يتبعون طليعتهم المكونة من الحزب والعمال الطليعيين، والناس الطليعيين الذين يتقدمون متصلين بالجماهير ومتحدين معها اتحاداً وثيقاً.



إن أبصار الطلائع تتجه نحو المستقبل ونحو مكافأتها، بَيْدَ أن هذه المكافأة لا تستشف كشىء ما فردى، فمكافأتهم، هى المجتمع الجديد الذى سيكون فيه الناس متباينين، مجتمع الإنسان الشيوعى.

طريق طويل وملىء بالصعاب

الطريق طويل وملىء بالصعاب. فأحياناً يجب أن نتراجع، إذ نقع فى مأزق، وأحياناً أخرى، نفترق عن الجماهير، إذ نتقدم بسرعة كبيرة، وفى بعض المناسبات، نسير ببطء شديد ونشعر بلهاث أولئك الذين يتعقبونها قريباً جداً. ففى طموحنا كثوريين، نسعى إلى السير بأسرع ما يمكن، ونشق طريقنا، لكننا نعلم أننا نأخذ مادتنا من الجماهير وأن هذه الجماهير لن تستطيع التقدم بسرعة أكبر إلا إذا شجعنا بالاقتداء بنا.

ورغم الأهمية المعطاة للحوافز الخلقية، فإن وجود الانقسام إلى مجموعتين رئيسيتين (طبعاً، عدا العدو الصغير من أولئك الذين لا يشاركون، لسبب أو لآخر، فى بناء الاشتراكية)، يدل على النقص النسبى فى تنمية الوعى الاجتماعى.

إن المجموعة الطليعية متقدمة إيديولوجياً أكثر من الجماهير، فالجماهير تعرف القيم الجديدة لكنها تعرفها معرفة غير كافية. وفى حين أن تغييراً كيفياً يحدث لدى الطلائع يتيح لها التفانى فى وظيفتها الطليعية، تكون الجماهير أقل وعياً ويجب أن تخضع لضغوط ذات شدة معينة، تلك هى ديكتاتورية البروليتاريا التى تمارَس لا على الطبقة المغلوبة وحدها، بل تمارس فردياً على الطبقة الظافرة. وهذا يتضمن، لكى يكون النجاح شاملاً، ضرورة سلسلة من الآليات: المؤسسات الثورية مجموعة متناسقة من الأقنية، والمراتب، والمسننات المشحمة جيداً- التى



ستتيح وحدها الاصطفاء الطبيعى لأولئك المهيئين لأن يسيروا فى الطليعة وتوزع المكافآت والعقوبات حسب استحقاقات كل واحد.

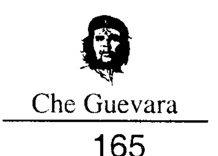
تحديد كامل لهوية الحكومة والجماعة

لم نتوصل بعد إلى إحلال مؤسسات الثورة. فنحن نسعى إلى شىء جديد يتيح التحديد الكامل لهوية الحكومة والجماعة بمجملها (مؤسسات متآلفة مع الشروط الخاصة لبناء الاشتراكية والبعيدة قدر الامكان عن الأماكن المشتركة للديموقراطية البرجوازية المنقولة إلى مجتمع جديد فى طور التكوين، مثل المجالس التشريعية). فقد قمنا ببعض التجارب، دون تسرع كبير، بهدف خلق مؤسسات الثورة بصورة تدريجية. وكان لاجمنا الأكبر الخوف من أن تفصلنا علاقة صورية عن الجماهير وعن الفرد ولا يفقدنا التطلع إلى آخر وأهم مطمح ثورى، مطمح تحرير الإنسان من انحطاطه.

ورغم تلكؤ المؤسسات، التلكؤ الذى يجب التغلب عليه تدريجياً، فإن الجماهير تصنع الآن تاريخها كمجموعة واعية من الأفراد تناضل من اجل قضية واحدة.

إن الإنسان أكثر كمالا، فى النظام الاشتراكى رغم توحيده الظاهر، وإمكانيته فى التعبير والضغط على النظام الاجتماعى أكبر بكثير رغم غياب آلية متآلفة تمام التآلف.

وما يزال من الضرورى زيادة اشتراكه الواعى، الفردى والجماعى فى جميع آليات الإدارة والإنتاج، وربط هذا الاشتراك بالتربية التقنية والإيديولوجية، بحيث يشعركم أن هذه التسلسلات مترابطة ترابطا وثيقا وتقدمها متوازيا. وهكذا، سيبلغ الوعى الكلى لكيانه الاجتماعى، وتحقيقه التام كمخلوق إنسانى، بعد أن يحطم قيوده.



وسيترجم ذلك بصورة ملموسة بإعادة احتلال طبيعته الخاصة به من خلال العمل المتحرر وبالتعبير عن شرطه الإنسانى، عبر الثقافة والفن.

يجب أن يكتسب العمل صفة خاصة

لكى يستعيد الإنسان طبيعته، يجب أن يكف الإنسان-البضاعة عن الوجود وأن يدفع له المجتمع نصيبه لقاء القيام بواجبه الاجتماعى. فتعود وسائل الإنتاج إلى المجتمع والآلة كالخندق حيث يتم القيام بالواجب. ويبدأ الإنسان بتحرير فكره من القلق الناجم عن ضرورة سد حاجاته المباشرة بواسطة العمل ويبدأ بالتعرف إلى نفسه فى عمله وفهم عظمته الإنسانية من خلال الشىء الذى يخلقه والعمل الذى ينجزه. فلم يعد يفترض عمله التخلى عن جزء من كيانه بشكل قوة مباعة، لم تعد ملكا له، بل يصير إصدار من ذاته ومجلوبا للحياة المشتركة، وإنجازا لواجبه الاجتماعى.

إننا نعمل كل ما فى وسعنا لإعطاء العمل ذلك البعد الجديد للواجب الاجتماعى ولربطه من جهة بتنمية التكنيك، الذى سيأتى بشروط حرية أكبر، ومن جهة أخرى، بالعمل الطوعى، هذان العاملان يستجيبان للتخمين الماركسى القائل إن الإنسان لا يبلغ واقعيا، تمام شرطه الإنسانى إلا عندما ينتج دون إكراه من الضرورة الجسمانية لأن يبيع ذاته كبضاعة.

ما تزال هنالك، بالتأكيد، أوجه قسرية فى العمل، حتى عندما يكون طوعيا. فالإنسان لم ينجح بعد فى القيام بالعمل الذى يقع على عاتقه حسب منعكس شرطى ذى طبيعة اجتماعية وما يزال ينتج فى أغلب الأحيان تحت ضغط الوسط (هذا ما يدعوه فيدل الإكراه المعنوى). ولا يستطيع أن يتمتع كل التمتع بعمله، المنجز فى إطار العادات الجديدة، دون ضغط الوسط الاجتماعى، ولن يتاح له ذلك إلا فى الشيوعية.

إن التبدل لا يحدث آليا فى الوعى، كما لا يحدث فى الاقتصاد. وتكون التحولات بطيئة منتظمة، فثمة فترات تسارع، وفترات جمود بل وفترات تراجع.

الحقبة الانتقالية الأولى نحو الشيوعية

سبق أن قلنا إنه يجب أن تعتبر أيضا أننا لا نواجه حقبة انتقال صرف كتلك التى وصفها ماركس فى نقد برنامج غوتا وأرفورت، بل طورا جديدا، لم يتوقعه: الحقبة الانتقالية الأولى نحو الشيوعية أو حقبة بناء الاشتراكية.

تجرى هذه الحقبة وسط نضالات طبقية عنيفة وتعمل عناصر الرأسمالية التى تظل باقية على طمس معالم طبيعتها بحيث يصعب فهمها.

فإذا أضفنا إلى هذا السكولاستيك، الذى أعاق تنمية الفلسفة الماركسية ومنع بصورة منتظمة دراسة هذه الحقبة التى لم تحلل أسسها الاقتصادية، يجب التسليم بأننا ما نزال فى المهد وأن علينا أن نباشر البحث عن جميع المميزات الأولية لهذه الحقبة، قبل أن نضع نظرة اقتصادية وسياسية ذات مدى أكبر.

وستعطى هذه النظرية أولوية كلية لعمودى بناء الاشتراكية: تكون الإنسان الجديد وتنمية التكنيك. فى هذين المجالين ما يزال علينا أن نفعل الكثير، بَيْدَ أن تأخر هذه القاعدة الأساسية أى التكنيك أقل تبريرا لأن القضية بالنسبة لنا ليست التقدم على العلماء، بل أن نتبع لفترة من الزمن الطريق الذى شقته البلدان الأكثر تقدما فى العالم. ولذا يلح فيدل إلحاحًا كبيرًا على ضرورة التكوين التقنى والعلمى لبلادنا وخاصة لطليعتها.



الضرورة المادية والضرورة الخلقية

من الأسهل تمييز الضرورة المادية والضرورة الخلقية فى ميدان الفاعليات غير المنتجة. فمنذ زمن طويل، يحاول الإنسان التحرر من الانحطاط بواسطة الثقافة والفن. وهو يموت يوميًا خلال ثمانى ساعات يقوم خلالها بدوره كبضاعة لينبعث بعدئذ فى الإبداع الفنى.

بَيْدَ أن هذا الدواء يحمل بذور المرض ذاته: فالذى يسعى إلى الاتحاد مع الطبيعة هو كائن منعزل، يدافع عن فرديته التى يطغى عليها الوسط ويقوم برد فعل أمام أفكار جمالية ككائن وحيد، يطمح إلى أن يظل نقيا. فليست القضية سوى محاولة للهرب.

إن قانون القيمة لم يعد الانعكاس البسيط لعلاقات الإنتاج، فالرأسماليون الاحتكاريون يحيطونه ببناء معقد يجعل منه خادما مطيعا، حتى عندما تكون الطرائق المستخدمة تجريبية صرفا.

وتفرض البنية الفوقية نمطا من الفن يستلزم عملا تربويا للفنانين جد متقدم فالمتمردون يخضعون للتكنيك والمواهب الاستثنائية وحدها تستطيع أن تخلق عملا شخصيا. ويصير الآخرون أجراء أذلاّء أو يفشلون. ويشيرون إلى البحث الفنى الذى يعتبرونه تعريفا للحرية، بَيْدَ أن هذا االبحثب له حدوده، التى لا يمكن رؤيتها حتى نصطدم بها، أى حتى نطرح المشكلات الواقعية للإنسان ولانحطاطه. إن القلق الذى لا مبرر له أو الإلهيات العامية تكوّن متنفسات موفقة للقلق الإنسانى: فنحارب الفن منذ أن يصير سلاحا للفضح، فإذا احترمنا قواعد اللعب، نحصل على جميع الأمجاد، المماثلة للأمجاد التى يمكن أن يحصل عليها فرد اخترع فريرات. والشرط الوحيد هو عدم محاولة الإفلات من القفص غير المرئى.

وثبة جديدة للعمل الفنى

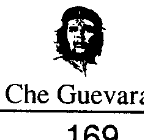
عندما استولت الثورة على الحكم ذهب إلى المنفى أولئك الذين أُخضعوا خضوعا كليا. أما الآخرون، الثوريون أو غير الثوريين، فقد سلكوا طريقا جديدا. وتلقى البحث وثبة جديدة ومع ذلك، كانت الطرق مرسومة إلى حد ما وتخفّت فكرة الهرب تحت كلمة "حرية". وقد ظل هذا الموقف، لدى الثوريين، انعكاسا فى وعيهم للمثالية البرجوازية.

وقد زعموا، فى البلدان التى مرت بتطور مماثل، أنهم يحاربون هذه الميول بجمود عقائدى مفرط. وتحولت الثقافة العامة أو كادت إلى حرام وأعلن عن تمثيل للطبيعة صحيح صوريا أنه غاية الطموح الثقافى، وتحول هذا التمثيل فيما بعد إلى تمثيل آلى للواقع الاجتماعى الذى كان يراد إبرازه، المجتمع المثالى الذى يكاد يخلو من النزاعات والتناقضات التى كانوا يحاولون خلقها.

إن الاشتراكية فتية، ولها أخطاؤها. وتنقصنا، نحن الثوريين، فى أغلب الأحيان المعارف والجرأة الثقافية الضرورية لمواجهة مهمة تنمية الإنسان الجديد بطرائق متباينة عن الطرائق الاتفاقية جدا، المختومة بخاتم المجتمع الذى خلقها (ومرة أخرى تظهر مشكلة العلاقات بين الشكل والمحتوى). إن ارتباكنا عظيم ومشكلات البناء المادى تستغرق وقتنا. فليس ثمة فنانون كبار يتمتعون فى الوقت ذاته بسلطة ثورية عظيمة. وعلى رجال الحزب أن يأخذوا تلك المهمة على عاتقهم ويسعوا إلى بلوغ الهدف الرئيسى: تربية الشعب.

الواقعية الاشتراكية قائمة على فن القرن الماضى

إنهم يسعون عندئذ إلى التبسيط، إلى المستوى الذى يفهمه الناس كلهم، أى إلى ما يفهمه الموظفون. فينعدم البحث الفنى الأصيل وتنحسر



مشكلة الثقافة العامة إلى تملك للحاضر الاشتراكى والماضى الميت (وبالتالى غير المؤذى). هكذا تولد الواقعية الاشتراكية على قواعد من القرن الماضى.

بَيْدَ أن الفن الواقعى فى القرن التاسع عشر هو كذلك فن طبقى ربما يزيد رأسمالية محضا. عن ذلك الفن المنحط، فن القرن العشرين، الذى يشف عن قلق الإنسان المنحط. لقد أعطت الرأسمالية، فى الميدان الثقافى، كل ما تضم فى ذاتها، ولم يبق منها سوى جيفة نتنة تتبدى فى الفن بانحطاطها الحالى. لكن لماذا يزعمون البحث فى الأشكال الجامدة للواقعية الاشتراكية عن طريقة العمل الصالحة الوحيدة؟ لا نستطيع أن نعارض بالواقعية الاشتراكية الحرية لأن الحرية لم توجد بعد، ولن توجد ما دامت تنمية المجتمع الجديد لم تكتمل، فلا يزعمنّ أحد إدانة جميع أشكال الفن اللاحقة للنصف الثانى من القرن التاسع عشر من أعلى العرش الحبرى للواقعية المغالية لأننا نقع فى خطأ برودونى، خطأ العودة إلى الماضى، وهكذا فليس التعبير الفنى للإنسان الذى يولد ويبنى ذاته اليوم، لباسا من القوة.

وينقصنا تنمية آلية ثقافية إيديولوجية تتيح البحث وتقتلع العشبة السامة التى تتكاثر بسهولة كبيرة على الأرض الخصبة، أرض التسليف من قبل الدولة.

الإنسان الذى يجب أن نخلقه

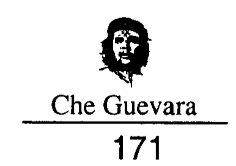
لم نسقط، فى بلادنا، فى خطأ الواقعية العامية، بل فى الخطأ المعاكس. وذلك، لأننا لم نفهم ضرورة خلق إنسان جديد لا يكون إنسان القرن التاسع عشر، ولا إنسان قرننا المنحط والمعفّن. إنه إنسان القرن

الحادى والعشرين، ذاك الذى يجب أن نخلقه رغم أنه ما يزال مجرد طموح ذاتى وغير منتظم. تلك هى على وجه الضبط إحدى النقاط الأساسية لدراستنا ولعملنا وبمقدار ما نحصل على نجاحات ملموسة على قاعدة نظرية، سنستخلص منها، بالعكس، نتائج نظرية ذات صفة عامة على قاعدة أبحاثنا الملموسة، نكون قد قدمنا مجلوبا ثمينا للماركسية اللينينية، لقضية الإنسانية. إن رد الفعل على إنسان القرن التاسع قد أوقعنا من جديد فى انحطاط القرن العشرين، فليس ذلك خطيرا جدا، بل يجب أن نصلحه تحت طائلة فتح الطريق أمام التحريفية.

إن الجماهير الكبرى التى ينمو وعيها، والأفكار الجديدة التى تتقدم بالموازاة فى أحضان المجتمع والامكانات المادية لتنمية جميع أعضائه تنمية كاملة، تجعل العمل مثمرا أكثر بكثير. فالحاضر مصنوع من النضالات، والمستقبل لنا.

خطيئة المثقفين الأصلية

وباختصار، فإن ذنب الكثير من مثقفينا وفنانينا نتيجة خطيئتهم الأصلية: ذلك أنهم ليسوا ثوريين أصليين. يمكن أن نحاول تطعيم شجرة الدردار لتثمر إجاصا، وإنما يجب أن نزرع فى الوقت ذاته أشجار إجاص. وستلد الأجيال الجديدة متحررة من الخطيئة الأصلية. فكلما وسعنا حقل الثقافة وإمكانات التعبير، زادت فرصنا فى أن نرى انبثاق فنانين استثنائيين. ومهمتنا هى منع الجيل الحالى الذى تمزقه نزاعاته من أن يَفسد ويُفسد الأجيال الجديدة. ويجب ألاّ نخلق أجراء خاضعين للفكر الرسمى، ولا داخليين مجانيين يعيشون فى حمى حصتهم المجانية



ويمارسون حرية بين هلالين فسيجىء الثوريون الذين سينشدون نشيد الإنسان الجديد بصوت الشعب الأصلى. فالأمر تهيئة تتطلب الوقت.

فى مجتمعنا يلعب الشباب والحزب دورا عظيما. وللشباب أهمية خاصة لأنهم عجينة الخزف التى يمكن أن نصنع منها الإنسان الجديد المتحرر من كل عيوب الماضى. فلنعالجها وفق مطامحنا. وتزيد تربيته كمالا كل يوم ولا ننسى دمجه بالعمل منذ البداية. إن طلابنا المجانين يقومون بعمل جسمانى خلال عطلتهم أو أثناء الدراسة فالعمل مكافأة فى بعض الحالات، وأداة للتربية فى حالات أخرى، وليس ذلك عقابا أبدا. لأن جيلا جديدا يولد.

الحزب، منظمة طليعية

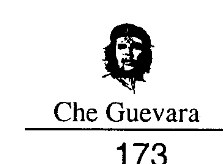
الحزب منظمة طليعية. فيقترح الرفاق أفضل الشغيلة للدخول فيه والحزب قلة، إلا أن له سلطة عظيمة نظرا لصفة كوادره. إننا نطمح إلى أن يصير الحزب جماهيريا، عندما تكون الجماهير قد بلغت درجة تنمية الطليعة، أى عندما يكونون قد تربوا على الشيوعية، وتتصرف جهودنا كلها إلى هذا الاتجاه. فالحزب مثال حى، ويجب أن تعطى كوادره دروسا من الحمية فى العمل والتضحية، ويجب أن يقودوا الجماهير، بعملهم، إلى نهاية مهماتها الثورية. وهذا يتضمن سنوات من النضال الشاق ضد صعوبات بناء الاشتراكية، والأعداء الطبقيين، ومخالفات الماضى، والإمبريالية. أود الآن أن أشرح الدور الذى تلعبه الشخصية، والإنسان بصفته قائدا للجماهير التى تصنع التاريخ. ويتعلق الأمر بتجربتنا وليس بطريقة عمل.

لقد أعطى فيدل الثورة وثبتها خلال السنوات الأولى وقادها دوما، وأضفى عليها صبغتها. إلا أن ثمة مجموعة من الثوريين تتطور فى

الاتجاه ذاته الذى يتطور فيه القائد الأعلى، وجمهورا عظيما يتبع القادة لأن هؤلاء القادة عرفوا كيف يفسرون مطامحه.

لكى يشعر الفرد أنه أغنى

ليس المقصود هنا عدد الكيلوغرامات من اللحم التى نأكلها، ولا عدد المرات التى نستطيع فيها الذهاب إلى المسابح، ولا عدد الأصناف الكمالية التى نستطيع استيرادها بالأجور الحالية. المقصود على وجه الضبط أن يشعر الفرد أنه أغنى داخليا وأكثر مسئولية بكثير. فإنسان بلادنا يعلم أن العصر المجيد الذى يعيشه هو عصر تضحية، وهو يعرف معنى التضحية لقد جربها أوائل الناس فى السييرا ماسترا، ثم عرفناها فى كوبا كلها. وكوبا هى طليعة أمريكا اللاتينية ولأنها تشغل هذا المكان الطليعى، لأنها تدل الجماهير الأمريكية اللاتينية على الحرية الحقيقية، يجب أن تقدم التضحيات. وفى داخل البلاد يجب أن يقوم القادة بدورهم الطليعى ويجب أن نقول بكل صراحة، إن مهمة الثورى، فى ثورة حقيقية تعطى كل شىء ولا ينتظر منها أية مكافأة مادية، هى مهمة عظيمة ومقلقة فى القوت ذاته، اسمحوا لى أن أقول، ولو بديت بمظهر مضحك، إن الثورى الحقيقى الأصيل ينقاد لمشاعر عظيمة كريمة، ويستحيل تصور ثورى أصيل دون هذه الصفة. فقد تكون إحدى مآسى القائد الكبرى، أنه يجب أن يضم إلى جانب المزاج العاطفى عقلا هادئا (ويتخذ قرارات أليمة دون أن تتقلص أية عضلة من عضلاته). يجب أن ترتفع طلائعنا الثورية إلى المثالية بحبها للشعب، وللقضايا المقدسة، وأن تجعله وحيدا، غير منقسم. ولا تستطيع هذه الطلائع أن تمارس حساسيتها اليومية على مستوى الناس الآخرين ذاته.



إن لقادة الثورة أطفالا لا يتعلمون، فى لجلجاتهم الأولى، أمهات ونساء ضحَّين، هن أيضا، فى سبيل انتصار الثورة. وتتناسب دائرة الأصدقاء تناسبا دقيقا مع دائرة رفاق الثورة. فلا حياة خارج الثورة. وفى هذه الشروط، يجب أن يكون المرء إنسانيا كثير الإنسانية، وأن يتمتع بحس عظيم من العدالة والحق كى لا يقع فى الجمود العقائدى المتطرف، وفى مدرسية باردة، وكى لا ينعزل عن الجماهير.

يجب أن يناضل كل يوم ليبتدى هذا الحب الإنسانى فى واقعات ملموسة، تكون مثالا للجماهير ومعبئة لها.

الثورى - فى حزبه - المحرك الإيديولوجى للثورة، يتلف فى هذه المهمة المتواصلة التى تنتهى بالموت، إلا إذا انتصر بناء الاشتراكية فى العالم كله.

فإذا بردت حماسته الثورية بعد أن تحقق المهمات الملحة، على النطاق المحلى، وإذا نسى الأممية البروليتارية، كفّت الثورة عن أن تكون محركا وتغرق فى خمول مريح يستفيد منه أعداؤنا اللدودون، الإمبرياليون، الذين يحققون كسبا. إن الأممية البروليتارية واجب، وهى أيضا ثورية. هذا ما نعلمه لشعبنا.

أخطار الجمود العقائدى ونواحى الضعف لدينا

أكيد أن الوضع الحالى يشتمل على الأخطار. وهو لا يشتمل على خطر الجمود العقائدى وحده، ولا على خطر تجميد علاقاتنا بالجماهير وسط مهمتنا العظيمة، بل يشتمل كذلك على نواحى ضعف يمكن أن نسقط فيها. فالرجل الذى يكرس حياته كلها للثورة لا يستطيع أن يتلهى بالتفكير بما ينقص ولده، بأحذيته العتيقة، بالضرورى الذى تفتقر إليه



عـائلتـه. وإذا مـا سـمـح لهـذه الشـواغل بالتـسلط على فكره، خلق أرضـا صالحة لتنمية الفساد.

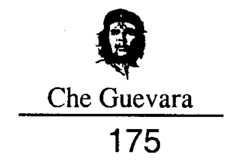
لقد رأينا دوما، فيمـا يتعلق بنا، أن أولادنا يجب أن يحـصلوا على مـا يحصل عليه الأطفـال الآخرون، لكن يجب أن يكونوا مـحرومين مما حـرم منه الأطفـال الآخـرون. ويجب على عـائلتنا أن تفهم هذه الحـقيـقـة وأن تناضل من أجلهـا. فـالثـورة تقـوم من خـلال الإنسـان، بَيْـدَ أن على هذا الإنسان أن يقوِّى، يوما بعد يوم، روحه الثورية.

هكذا نتقدم. وعلى رأس الرتل الكبير فيدل ذلا نخجل من هذا القول- وخلفه تسير خيرة كوادر الحزب، وبعدها مباشرة، وقريبا منها كل القرب بحيث نشعر بقوته الهائلة، يأتى الشعب الذى يمضى بحزم نحو الهدف المشترك. إنه مركَّب من أفراد اكتسبوا وعى ما يجب عمله، وعى أُناس يناضلون للخروج من مملكة الضرورة ليدخلوا فى مملكة الحرية.

وينتظم هذا الجمهور العظيم، ويتناسب انضباطه مع ضرورة يفهمها الجميع فلم يعد جمهورا متفرقا، منقسما إلى ما لا نهاية، يحاول فيه كل واحد، بأية وسيلة، وبالكفاح العنيد ضد أنداده، أن يجد سندا يواجه به المستقبل غير الأكيد.

إننا نعلم أننا ما نزال بحاجة إلى التضحيات، وأن علينا أن ندفع ثمن وضعنا البطولى كأمة طليعية. ويجب أن ندفع، نحن القادة، ليحق لنا القول إننا طليعة الشعب، الذى يسير فى طليعة أمريكا اللاتينية.

فنحن ندفع كلنا، بانتظام، حصتنا من التضحيات، وأعين أننا سنجد مكافأتنا فى القيام بالواجب وفى التقدم معا نحو الإنسان الجديد الذى يلوح فى الأفق.



إننا، نحن الاشتراكيين، أكثر حرية، لأننا أغنى، ونحن أغنى لأننا أكثر حرية.

لقـد أصـبح هـيكل حـريتنا الكاملة جـاهزا. لا ينقص سـوى مـادته وألبسته، وسنخلقها.

إن حريتنا وخبزنا اليومى ملونان بلون الدم ومنتفخان بالأضاحى.

تضحيتنا واعية، إنها ثمن الحرية التى نبنيها.

الطريق طويل وجزء منه غير معروف. فنحن نعرف حدودنا. وسنجعل من أنفسنا إنسان القرن الحادى والعشرين.

سنتقوى فى العمل اليومى إذ نخلق الإنسان الجديد بتكنيك جديد.

الشخصية تلعب دورًا معبئًا عظيمًا وموجهًا كبيرًا منذ أن تجد أسمى فضائل الشعب ومطامحه ولا تبتعد عن الطريق.

لجماعة الطليعية هى التى تفتح الطريق، خيرة الطيبين، الحزب.

الخزف الأساسى لعملنا هو الشبيبة. نضع فيها آمالنا كلها ونعدها لتحمل هدفها. تقبلوا تحياتنا، طقسية كقبضة من الأيدى أو «السلام عليك يا مريم».

الوطن أو الموت!

■■■



11

هل كوبا حالة استثنائية
أم طليعة الكفاح
ضد الامبريالية؟



لم يحدث قط فى أمريكا حدث له من الميزات العجيبة، والجذور والنتائج العميقة بالنسبة لمصير الحركات التقدمية فى القارة، ما لحربنا الثورية، حتى إن البعض يدعونه الحدث رقم ١ فى تاريخ أمريكا ويضعونه إلى جانب الثلاثى المؤلف من الثورة الروسية والتحولات الاجتماعية التى تلت هزيمة الجيوش الهتلرية فى أوروبا الشرقية، والثورة الصينية.

ففى حين كانت هذه الحركة متنوعة غاية التنوع فى أشكالها وفى مظاهرها، اتبعت - ولم يكن بمقدورها إلا تتبع - الخطوط العامة لجميع الأحداث التاريخية الكبرى التى تتميز بالنضال ضد الاستعمار والانتقال إلى الاشتراكية.

على أن بعض الجماعات حاولت، عن حسن نية أو بدافع من المصلحة السياسية أن ترى فى الثورة الكوبية سلسلة من العلل والميزات الاستثنائية. فبالغت فى أهميتها، ومضت حتى جعلت منها عوامل حاسمة لتفسير هذه الأحداث الاجتماعية والتاريخية العميقة. إنما يتحدثون عن " استثنائية " الثورة الكوبية بالمقارنة مع خطوط العمل للأحزاب التقدمية الأخرى فى أمريكا. ويؤكدون فى الحقيقة أن شكل الثورة الكوبية وطرائقها هى نتاج وحيد وأن التطور التاريخى للشعوب فى البلدان الأخرى من أمريكا سيكون مختلفاً.

إننا نعترف أن هذه العوامل الاستثنائية يجب أن تضفى على الثورة الكوبية مميزات خاصة. وأنه لأمر ثابت بوضوح أن كل ثورة تتضمن هذا النوع من العوامل الاستثنائية. بيد أنه لا يقل ثبوتاً ووضوحاً أن الثورات تخضع كذلك لبعض القوانين المزعومة.

أول هذه العوامل، وأحدثها ربما أهمها، تلك القوة من قوى الطبيعة المسماة "فيديل كاسترو روز" الذى بلغ فى عام واحد أبعاداً تاريخية. إن مؤهلاته يمكن أن تصنف إلى جانب مؤهلات عظماء الرجال فى تاريخ أمريكا اللاتينية. فما هى الظروف الاستثنائية التى تحيط بشخصية فيديل كاسترو ؟

ثمة عوامل عدة فى حياته وفى طباعه تجعله يرتفع على رفاقه وعلى كل أولئك الذين يتبعونه، ويتمتع فيديل بشخصية غير عادية إلى درجة تجعل منه زعيم أية حركة يشترك فيها، هذا ما فعله خلال حياته كلها، منذ كان طالباً حتى صار زعيم بلادنا وزعيم الشعوب المضطهدة فى أمريكا.

إنه يتمتع بصفات الثائر الكبير، وقد استطاع فيديل كاسترو بقدرته على عقد الصلات، وتوحيد الشمل ومعارضته الفرقة الموهنة، وبمهارته فى قيادة عمل الشعب بصفته زعيماً أسمى، وبرغبته العجيبة فى الإصغاء دوماً لإرادة الشعب. أن يفعل أكثر مما فعل أى إنسان فى كوبا لبناء الجهاز الضخم الحالى للثورة الكوبية انطلاقاً من لا شىء.

ومع ذلك، لا يستطيع أحد أن يؤكد أن الشروط السياسية والاجتماعية فى كوبا كانت تختلف اختلافاً كلياً عن شروط البلدان الأخرى فى أمريكا وأن الثورة الكوبية نتجت بسبب هذه الفوارق. كما لا يستطيع أن يؤكد أيضاً أن فيديل كاسترو قام بالثورة رغم هذه الفوارق. فقد قاد فيديل

الثورة فى كوبا باللحظة والأسلوب اللذين حصلا، بعد أن حلل الاضطرابات السياسية العميقة التى كانت تهيئ الشعب للقفزة الكبرى على طريق الثورة.

كانت توجد كذلك بعض الشروط التى سيصعب على الشعوب الأخرى استثمارها رغم أنها لم تكن خاصة بكوبا. ذلك أن الامبريالية، خلافاً لما تعتقد بعض الجماعات التقدمية، تستخلص الدروس من أخطائها.

إن الشرط الذى يمكن أن نسميه استثنائياً هو أن الامبريالية الأمريكية الشمالية قد ضللت ولم تكن قادرة على تقدير العمق الحقيقى للثورة الكوبية. وهذا ما يفسر الكثير من التناقضات الظاهرية فى السياسة الأمريكية الشمالية. فقد فكرت الاحتكارات أولاً. كما هى العادة فى مثل هذه الحالات، بخلف لباتيستا، لأنها على وجه الضبط كانت تعرف أن الشعب المستاء، كان يبحث هو أيضاً فى تطلع ثورى عن هذا الخلف، وقد كان من الأمور الذكية المبصرة سحب الديكتاتور الصغير الذى لم يعد صالحاً واستبداله بـ" شباب " جدد يكونون قادرين فى الوقت المناسب على خدمة مصالح الاحتكارات خدمة أفضل. وقد لعب الامبرياليون هذه الورقة لبعض الوقت، وخسروا خسارة محزنة. كنا نقلقهم قبل النصر، لكننا لم نكن نخيفهم، أو بالأحرى لعبوا ورقتين، مستخدمين تجربتهم فى هذه اللعبة المزدوجة التى لم تكن خسارتها ممكنة من حيث المبدأ. فجاء مرات عديدة مندوبون عن وزارة الخارجية الأمريكية، متنكرون بزى صحفيين لسبر هذه الثورة " الوقحة " لكنهم لم يتوصلوا أبداً إلى تشخيص أقل علامة من علامات الخطر الكامن. وعندما أرادت الامبريالية أن ترد، وعندما أدركت أن مجموعة الشباب الذين لا يملكون الخبرة والذين كانوا يجتاحون ظافرين شوارع هافانا



يفهمون فهماً واضحاً واجبهم السياسى وينوون بحزم توجيه حياتهم تبعاً له، كان الأوان قد فات. وهكذا ولدت فى كانون الثانى ١٩٥٩ أول ثورة اجتماعية فى منطقة الكاريبى كلها وأعمق الثورات الأمريكية.

ونظراً للشروط التى دارت فيها الحرب الثورية والتركيب المعقد للقوى السياسية التى كانت تعارض الطغيان، لم يكن عجيباً أن تتبنى بعض العناصر من الإقطاعيين موقف الحياد أو على الأقل عدم العداء تجاه القوات المتمردة. وإنه لأمر مفهوم أن تنظر البرجوازية الوطنية، التى خربتها الامبريالية والطغيان، بعين العطف إلى هؤلاء الشباب المعتصمين فى الجبال وهم ينزلون العقاب بالجيش المرتزق، أداة الامبريالية فى خدمة مصالحها.

إن هذه القوة، رغم عدم ثوريتها، قد ساعدت الثورة فى الاستيلاء على الحكم.

وإذا ما ذهبنا إلى أبعد أيضاً، نستطيع أن نضيف عاملاً جديداً من عوامل الاستثنائية هو تحول الشعب إلى كادحين فى الشطر الأعظم من الأرض الكوبية، نتيجة عمل الرأسمال الكبير فى كوبا، والمكننة النصفية لأشكال الزراعة، التى كانت تؤدى إلى تنظيم نجم عنه تعاظم الوعى الطبقى.

هذا أمر يمكن التسليم به، إلا أن علينا أن نشير رغبة منا فى إظهار الحقيقة، إلى أن الأرض الأولى التى احتلها الجيش المتمرد المؤلف من بقايا الرتل الذى اندحر لدى نزوله فى " جرانما "، كانت مأهولة بطبقة من الفلاحين المتباينين بأصولهم الاجتماعية والثقافية عن أولئك الذين كانوا يقطنون فى مناطق الزراعة الواسعة أو نصف الممكنة من مناطق كوبا. والواقع أن السييرا مايسترا، المركز الثورى الأول، كانت ملجأ لجميع



هؤلاء الفلاحين الذين كانوا يتقاتلون يومياً مع الإقطاعيين. كانوا يقيمون على أراضى الدولة أو أراضى بعض كبار الملاك، ويحاولون الحصول على قطعة من الأرض، وقليل من الرخاء، وكان عليهم باستمرار أن يحاربوا مظالم الجند الذين كانوا دوماً حلفاء الإقطاعيين، فلم يكن أفقهم يتعدى الحصول على سند الملكية، إن الجنود الذين تكون منهم جيشنا الأول، جيش الفلاحين المغاورين ،جاءوا من تلك الطبقة الاجتماعية التى أظهرت بشكل يكاد يكون عدوانياً رغبتها فى حيازة الأرض، والتى عبرت أفضل تعبير عن الروح المسماة " برجوازية صغيرة "، فالفلاح يقاتل لأنه يريد الأرض لنفسه، ولأولاده، يريد أن يديرها وأن يبيعها وأن يثرى من عمله.

ويتعلم الفلاح بسرعة رغم ذهنيته البرجوازية الصغيرة، أنه لا يستطيع تحقيق أمنية حيازة الأرض دون تحطيم نظام الملكية الإقطاعية. إن الإصلاح الزراعى الجذرى الذى يستطيع وحده إعطاء الأرض للفلاحين يصطدم مباشرة بمصالح الامبرياليين، وكبار الملاك العقاريين وأثرياء السكر وتربية المواشى. وتخشى البرجوازية محاربة مصالحها. أما البروليتاريا فليس لها مصالح تخاف عليها. وبهذا المعنى، فإن مسير الثورة ذاته هو الذى يوحد بين العمال والفلاحين. فالعمال يساندون الكفاح ضد الإقطاعيين، ويساند الفلاح الفقير، الذى يأخذ الأرض، مساندة مخلصة للسلطة الثورية ويدافع عنها ضد أعدائها الامبرياليين والمناوئين للثورة.

ونعتقد أنه لا يوجد عامل آخر من عوامل الاستثنائية. ولنتحر الآن القواعد الدائمة لكل ظاهرة اجتماعية فى أمريكا، والتناقضات التى تمت فى أحضان المجتمعات الحديثة والتى تحدث تبديلات يمكن أن تبلغ أبعاد ثورة كالثورة الكوبية.



فهنالك قبل كل شيء، إن لم يكن حسب ترتيب الأهمية فى الوقت الحاضر، النظام الإقطاعى. كان هذا النظام قاعدة السلطة الاقتصادية للطبقة القائدة طيلة الفترة التى تلت الثورات التحررية والمعادية للاستعمار فى القرن الأخير. وهذه الطبقة من ملاك الأراضى الموجودة فى جميع البلدان متأخرة بصورة عامة عن الأحداث الاجتماعية التى توجه العالم. غير أن أكثر أبناء هذه الطبقة من الملاك العقاريين فطنة والذين ينظرون منهم إلى الأمور نظرة صائبة يرون الخطر، إلى حد ما ويبدأون بتبديل شكل توظيف رساميلهم. ويمكننون الانتاج الزراعى فى بعض الأحيان، يحولون قسماً من ثرواتهم إلى الصناعة، أو يصيرون هم أنفسهم عملاء تجاريين للاحتكارات. هذه الثورة التحررية الأولى لم تحطم الإقطاع بصفته قاعدة اقتصادية، بل تركت عنصراً رجعياً يدافع عن مبدأ العبودية فى العمل. إنها ظاهرة تتبدى دون استثناء فى جميع بلدان أمريكا وتشكل قوام جميع المظالم المقترفة منذ العصر الذى كان فيه ملوك اسبانيا يقطعون أنبل الفاتحين أراضى واسعة، ولا يتركون لـ " أهل البلاد الأصليين " المولدين والخلاسيين - فى حالة كوبا - سوى الريلانحو أى الجزء من الأرض المحصور بين ثلاث قطع دائرية كبرى متلاصقة. وقد تحالف مالك الأرض الذى كان يدرك فى معظم البلدان أنه لا يستطيع العيش وحيداً تحالف مع الاحتكارات التى كانت بالتأكيد أقوى مضطهدى شعوب أمريكا وأشرسها.

كانت أمريكا ساحة قتال بالنسبة لكبريات الشركات الاحتكارية الامبريالية. وفى نهاية الحرب العالمية الثانية تقرر مصير هذه الحرب بشكل يكاد يكون تاماً لصالح الاحتكارات الأمريكية الشمالية. ومنذ ذلك الوقت كرس الامبرياليون جهودهم لتعزيز سيطرتهم على مستعمراتهم

وتحسين ترتيباتهم ضد تسلل المنافسين القدامى والجدد من أمبرياليي البلدان الأخرى. وقد أنتج هذا كله اقتصاداً ممسوخاً وصفه رجال الاقتصاد فى الأنظمة الرأسمالية بكلمة غير مؤذية تدل على الإحسان العميق الذى يكنونه لنا، نحن " متخلفى التنمية ". (ويسمون الهنود الأمريكيين البائسين، المستثمرين، الجهلة " الهنود الصغار " ويطلقون على جميع الناس من العرق الأسود أو الخلاسى اسم " الملونين" ويتخذونهم كأفراد وكطبقة أداة لتقسيم الجماهير العاملة فى نضالها من أجل مستقبل اقتصادى أفضل).

ما هو تخلف التنمية؟

إن قزماً له رأس ضخم وصدر عريض يعتبر متخلفاً بمعنى أن ساقيه الضعيفتين وذراعيه القصيرين لا تتناسب مع بقية جسمه، فهو مسخ ناتج عن تشويه عوج تنميته. ذلك هو واقعنا نحن الذين ندعى بلطف " متخلفى التنمية " البلدان المستعمرة أو نصف المستعمرة أو المستقلة. فبلداننا ذات اقتصاد شوهته السياسة الامبريالية التى نمت تنمية غير عادية الفروع الصناعية أو الزراعية بحيث تصير مكملة لاقتصاديات الامبرياليين المعقدة. إن تخلف التنمية أو التنمية المشوهة يؤدى إلى التخصص فى المواد الأولية تخصصاً خطيراً يجعل جميع الشعوب مهددة دوماً بالمجاعة، فنحن " متخلفى التنمية " بلدان زراعة وحيدة أيضاً. أى بلاد محصول وحيد يرتبط تصريفه غير الأكيد بسوق وحيدة تفرض الشروط وتحددها. تلك هى الصيغة الكبرى للسيطرة الاقتصادية الامبريالية التى تتلاقى مع الحكمة الرومانية القديمة الخالدة : فرق تسد.

إن نظام الإقطاع يحدد إذن بعلاقاته مع الامبريالية تحديداً تاماً " تخلف التنمية " المزعوم الذى يؤدى إلى نتائج منها البطالة وانخفاض



الأجور. وإن ظاهرة انخفاض الأجور والبطالة حلقة مفرغة تقود إلى أجور أكثر انخفاضاً وبطالة أكبر بمقدار ما تزداد تناقضات النظام حدة. وتخلق ببقائها على الدوام تحت رحمة الترجرجات الاقتصادية مخرجاً مشتركاً لشعوب أمريكا من " الريوبرافو " إلى القطب الجنوبى. وهذا المخرج المشترك ـ الذى نكتبه بحرف كبير ـ والذى يستخدم منطلقاً لكل أولئك الذين يهتمون بهذه الظاهرات الاجتماعية، هو جوع الناس وتعبهم من أن يكونوا مظلومين و مضطهدين ومستثمرين إلى أقصى الحدود، وتعبهم من بيع قدرتهم على العمل بسعر تافه يوماً فيوماً (أمام خطر تضخم صفوف العاطلين عن العمل) ليكون بالمستطاع استنزاف أكبر قدر من الربح من جسم بشرى وتبذيره فى بذخ القابضين على الرأسمال.

هنالك إذن مخارج مشتركة جوهرية وحتمية فى أمريكا اللاتينية ولا نستطيع القول إننا أعفينا من أى عامل من هذه العوامل المتضامنة. فالنظام الإقطاعى سواء من حيث شكله الاستثمارى البدائى أو شكله الاحتكارى يتآلف مع الشروط الجديدة ويتحالف مع الامبريالية. ذلك أن هذا الشكل من الاستثمار بواسطة الرأسمال الأجنبى يخلق اقتصاداً من نمط استعمارى يدعى باسم لطيف على السماع " تخلف التنمية ".

كان كل ذلك موجوداً فى كوبا. وكان فيها الجوع أيضاً. كانت نسبة البطالة فى كوبا أعلى نسبة فى أمريكا اللاتينية، وكانت الامبريالية فيها أشرس بكثير مما هى عليه فى البلدان الأخرى. وكان الإقطاع قوياً قوته فى أية جمهورية من الجمهوريات الشقيقة.

ماذا عملنا لنحرر أنفسنا من هذا النظام الامبريالى القوى، بموكبه من الحكومات العميلة فى كل بلد، وجيوشها المرتزقة التى تدافع عن هذا النظام المعقد، نظام استثمار الإنسان للإنسان ؟ كانت الشروط الموضوعية

للنضال معطاة بجوع الشعب وبردة الفعل ضد هذا الجوع، بالإرهاب الذى كان يستدعى ردة الفعل الشعبية وبموجة الحقد التى كان القمع يخلقها بذاته. وكانت الشروط الذاتية غير متوافرة فى أمريكا، باعتبار أن أهم هذه الشروط هو وعى النصر الممكن عبر كفاح عنيف ضد السلطة الامبريالية وحلفائها الداخليين. وقد خلق كفاحنا المسلح هذه الشروط إذ أتاح توضيح ضرورة التبدل وأتاح أيضاً هزيمة الجيش وتصفيته تصفية كاملة من قبل القوات الشعبية (وهذا شرط لابد منه لكل ثورة حقيقية).

إن قواتنا المسلحة التى خلقت فى الأرياف غزت المدن من الخارج، واتحدت مع الجماهير العاملة ونمت حسها السياسى باحتكاكها مع هذه الجماهير.

فهل يمكن أن يتحقق هذا فى بلدان أخرى من أمريكا اللاتينية؟ لنشرح الصعوبات التى ستجعل - فى رأينا - النضالات الثورية فى أمريكا عسيرة.

أشرنا فى بداية هذا المقال إلى أن بعض العوامل يمكن أن تعتبر استثنائية وهى موقف الامبريالية التى فوجئت فى حينه بالثورة الكوبية وإلى حد ما، موقف البرجوازية الوطنية التى فوجئت هى أيضاً، والتى كانت تنظر بشىء من العطف إلى عمل المتمردين بسبب الأضرار التى ألحقها بها الامبرياليون (وينطبق هذا الوضع أيضاً على البلدان الأخرى). بيد أن الامبريالية قد فهمت درس كوبا ولن تفاجأ فى أية جمهورية من الجمهوريات الأمريكية العشرين. وهذا أمر مهم لأنه إذا كانت حرب التحرير الكوبية التى دامت سنتين من المعارك المتواصلة، صعبة، فإن المعارك الجديدة التى تنتظر الشعوب فى أرجاء أخرى من أمريكا اللاتينية ستكون أصعب بكثير. فالولايات المتحدة تقدم المزيد من الأسلحة للحكومات العميلة التى تتعرض للخطر، وتوقع معها مواثيق ارتباط تسهل على الصعيد الحقوقى، القمع والتدخل فى الشئون

الداخلية بل والتدخل المسلح. يضاف إلى هذا تدعيم الإعداد العسكرى لهذه الجيوش القامعة بحيث تصير أدوات فعالة ضد الشعب.

وما هو موقف البرجوازية ؟ إنها مسألة تطرح، لأن فى الكثير من البلدان الأمريكية تناقضات موضوعية بين برجوازية وطنية تكافح فى سبيل تنمية نفسها وبين الامبريالية التى تغرق الأسواق بحيث تختنق الصناعة الوطنية فى منافسة غير متساوية.

ورغم هذه التناقضات لا تستطيع البرجوازية الوطنية بصورة عامة أن تقف موقفاً نضالياً فى وجه الامبريالية. ويثبت هذا أنها تخشى الثورة الشعبية أكثر مما تخشى الاضطهاد الاستبدادى من قبل الاحتكارات التى تهين القومية وتجرح مشاعر الوطنية وتستعمر الاقتصاد.

إن البرجوازية الوطنية لا تتردد فى التحالف مع الامبريالية والإقطاع للنضال ضد الشعب وقطع الطريق على الثورة.

تلك هى الصعوبات التى يجب أن تضاف انطلاقاً من تدعيم الثورة الكوبية التى لا تقبل الرجعة إلى الصعوبات التى تنبثق من شروط الكفاح فى أمريكا اللاتينية.

وهنالك مشكلات أخرى أكثر نوعية. فمن الصعب تشكيل جماعات من المغاورين فى بلدان مكتظة بالمدن وذات صناعة خفيفة ومتوسطة أكثر تنمية. رغم عدم وجود التصنيع بالمعنى الحقيقى للكلمة. إن التأثير الأيديولوجى للمدن يلجم الغوار إذ يخلق الآمال بكفاح الجماهير المنظمة تنظيماً هادئاً. ويخلق نوعاً من النزعة التأسيسية لا تكون فيها الشروط خلال فترات عادية إلى حد معين، قاسية على الشعب قساوتها فى حالات أخرى.

وينبعث الأمل حتى من الزيادة الكمية فى التمثيل البرلمانى للعناصر الثورية. زيادة قد تؤدى إلى تبديل كيفى. وفى رأينا أن هذا الأمل غير

محتمل التحقيق فى الشروط الحاضرة فى أى بلد من بلدان أمريكا اللاتينية. ورغم أنه يجب ألا نستبعد إمكانية بدء التغيير بالتسلسل الانتخابى، فإن الشروط التى تسوده فى جميع البلدان تجعل تلك الإمكانية أمراً بعيداً جداً.

ولا يستطيع الثوريون أن يتوقعوا الأنواع التكتيكية كلها التى يمكن أن تطرأ خلال النضال على برنامجهم التحررى. فالطاقات الحقيقية للثورى تقاس بمهارته فى إيجاد تكتيك ثورى ينطبق تمام الانطباق على كل تغيير فى الوضع. وسيكون خطأ لا يغتفر التقليل من قيمة ما يمكن لبرنامج ثورى أن يربحه من تسلسل انتخابى معطى. بيد أنه سيكون أمراً لا يغتفر كذلك ألا نفكر إلا بالانتخابات وأن نهمل الأشكال الأخرى للنضال بما فيها النضال المسلح لاكتساح السلطة، الأداة اللازمة لتطبيق البرنامج الثورى وتنميته.

عندما يحدثوننا عن اكتساح السلطة بتسلسل انتخابى، فإن مسألتنا هى على الدوام ذاتها : إذا استولت حركة شعبية على الحكم بكسب غالبية الأصوات الشعبية، وقررت البدء بالتحولات الاجتماعية الكبرى التى تكون البرنامج، عليها ألا تدخل مباشرة فى نزاع مع الطبقات الرجعية فى البلاد ؟

ألم يكن الجيش على الدوام أداة هذه الطبقات ؟ وإذا كان الأمر كذلك، فمن المنطقى الافتراض بأن الجيش سيكون إلى جانب طبقته ويشترك فى النضال ضد الحكومة. وتقلب الحكومة بانقلاب دموى أو غير دموى وتعود اللعبة القديمة من جديد إلى ما لا نهاية. طبعاً يمكن أن يحدث كذلك أن يقهر جيش الاضطهاد بردة فعل شعبية تداخل الحكومة. وهذا أمر يبدو لنا غير محتمل، لأن القوات المسلحة تقبل القيام باصلاحات اجتماعية عميقة وترضى بهدوء بأن تصفى كطبقة.



وإذا سلمنا بالإعتماد على مساعدة الطبقة العسكرية فى قيادة المعركة، يجب أن نحلل مشكلتين. أولاً، إذا انضم الجيش فعلاً إلى القوات الشعبية على فرض أنه نواة منتظمة تمتلك سلطة مستقلة لاتخاذ القرار. ففى هذه الحالة يقع انقلاب قسم من الجيش ضد القسم الآخر، يترك على الأرجح بنية الطبقة العسكرية سليمة. والحالة الثانية التى يتحد فيها الجيش بسرعة وبصورة عفوية مع القوات الشعبية لا يمكن أن تحصل. فى رأينا إلا بعد أن يقهر الجيش وينحدر انحداراً عنيفاً من قبل عدو قوى وثابت، أى فى شروط مفجعة بالنسبة للسلطة المتشكلة. فالظاهرة يمكن أن تحدث عندما يكون الجيش قد انحدر وتحطم معنوياً، بيد أن من الضرورى على الدوام أن تدور رحى معركة تمهيدية. ونعود دوماً على أكبر مشاركة ممكنة للجماهير العمالية وتهتدى بطبيعة الحال بأيديولوجيتها.

لقد تحدثنا بما فيه الكفاية عن الصعوبات التى ستلقاها الحركات الثورية فى أمريكا اللاتينية. ونستطيع الآن أن نتساءل هل توجد الشروط الملائمة للمرحلة التمهيدية. مرحلة فيديل كاسترو فى " السييرا مايسترا" أم لا. ونعتقد أن ثمة شروطاً عامة. هنا أيضاً تسهل انبثاق مراكز للتمرد. وأن فى بعض البلدان شروطاً نوعية أكثر ملاءمة أيضاً. سنلح على عاملين ذاتيين هما من أهم نتائج الثورة الكوبية : أولهما إمكانية قيام حركة ثورية تعمل فى الريف، وتجتذب الجماهير الفلاحة، وتنتقل من الضعف إلى القوة، وتحطيم الجيش فى معركة مجابهة، وتستولى على المدن وتعزز بقتالها الشروط الذاتية اللازمة للاستيلاء على الحكم.

إن " الاستثنائيين " الحقيقيين هم هؤلاء الأفراد غريبو الأطوار الذين يجدون أن الثورة الكوبية حدث وحيد من نوعه ولا يمكن تقليده فى العالم وهذا كذب محض.



فإمكانية انتصار الجماهير الشعبية فى أمريكا اللاتينية تتبدى بوضوح بشكل حرب الغوار يقودها جيش من الفلاحين يحطم تحطيماً كاملاً بنية العالم الاستعمارى القديم. والعامل الثانى الذاتى يمكن أن يعتبر فى واقعه أن الجماهير لا تعرف إمكانية الانتصار فحسب، بل تعرف الآن مصيرها. وهى تعرف بيقين متعاظم أن المستقبل يعود للشعب. أياً كانت مصائب التاريخ خلال فترات قصيرة لأن المستقبل سيأتى بالعدالة، وسيكون هذا المفهوم وسيطاً ثورياً فى أمريكا اللاتينية.

نستطيع أن نورد عوامل أقل تعميماً تتحول شدتها من بلد إلى بلد. وأحد هذه العوامل، عامل مهم جداً هو استثمار الفلاحين. وقد كان هذا العامل بصورة عامة أقل فى كوبا منه فى بلدان أمريكا اللاتينية الأخرى. فأولئك الذين يزعمون أنهم يرون فى الفترة التمردية لمعركتنا نتائج تحول الريف إلى البروليتاريا، يجب أن يتذكروا أنه مهما كان مجلوب هذا التحول البروليتارى فى التعجيل بتشكيل التعاونيات التى تلت الاستيلاء على الحكم والإصلاح الزراعى. فإن الفلاح الذى كان قبل كل شىء مركز الجيش المتمرد ونخاعه الشوكى، هو نفسه الفلاح الذى أصبح اليوم فى السييرا مايسترا مالكاً فخوراً بأرضه وفردياً متمسكاً بفرديته . ومن المؤكد أن ثمة خصائص فى أمريكا، فالفلاح الأرجنتينى لا يسلك السلوك ذاته للفلاح البيروفى والبوليفى أو الاستوائى. بيد أن الرغبة فى الأرض تظل دوماً حاضرة لديهم وهم الذين بصورة عامة يجعلون أمريكا تنقاد لقوتهم.

ولما كان الفلاحون فى معظم البلدان الأخرى ما يزالون مستثمرين أكثر مما كان عليه الفلاح الكوبى فإن ثمة فرصاً كبرى لأن تثور هذه الطبقة.

وهنالك أيضاً واقعة أخرى. فقد كان جيش باتيستا بكل نقائصه جيشاً منظماً تنظيماً يجعل من جميع أفراده، من الجندى البسيط إلى الجنرال



خبراء فى استثمار الشعب. كانوا كلهم مرتزقة وهذا ما أدى إلى بعض التلاحم فى جهاز القمع. إن جيوش أمريكا تضم إجمالاً ضباطاً ممتهنين ومجندين غير ممتهنين يدعون إلى الخدمة بصورة دورية، وفى كل سنة يغادر المجندون الشباب منازلهم التى سمعوا فيها البؤس والظلم الاجتماعى. فإذا ما دعوا يوماً لقتال المدافعين عن عقيدة يعترفون فى سريرتهم بعدالتها فإن قدرتهم على العدوان ستنحسر انحساراً غريباً. وإننا نحصل على نتائج فعالة باتباع نظام من الدعاية التى تظهر للمجندين عدالة وصواب المعركة التى يخوضها الشعب.

بعد هذه الدراسة السطحية للأحداث الثورية. نستطيع القول إن الثورة الكوبية قد تضمنت عوامل استثنائية تمنحها خصائص وعوامل مشتركة لجميع الشعوب الأمريكية التى تعبر خير تعبير عن الضرورة الداخلية لمثل هذه الثورة. ونرى أيضاً أن ثمة شروطاً جديدة ستسهل بقدر أكبر انطلاق الحركات الثورية. وعى الجماهير لمصيرها، وعى الضرورة ووعى قدر معين من انجاز هذه الإمكانية وتوحد فى الوقت ذاته شروطاً تزيد من صعوبة وصول الجماهير إلى هدفها، الاستيلاء على الحكم، فالبرجوازية الوطنية مرتبطة بالامبريالية ارتباطاً وثيقاً إلى درجة تدفعها إلى محاربة القوات الشعبية مباشرة.

إن أياماً قاتمة تنتظر أمريكا اللاتينية. ويجب على الشعوب أن تضرب بقوة دائماً وحيثما أبدى الشر نواجذه. يجب ألا تنزلق إلى الوراء بل أن تقوم بصلابة وأن ترد على كل عدوان بضغط متزايد القوة من الجماهير الشعبية. ذلك هو طريق النصر.

■■■

12

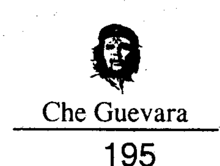
الجيش المتمرد
ودوره الاجتماعى

هذه الأمسية هى أمسية الذكرى، ولذا أود أن ألخص ما كانت عليه حركة ٢٦ تموز، وما هى عليه الآن، قبل أن أدخل فى صلب الموضوع أى فى مغزاه التاريخى.

لا أستطيع العودة إلى الوراء حتى الهجوم على ثكنة " مونكادا" فى ٢٦ تموز ١٩٥٣. وإنما أريد أن أتحدث عما يختص بمشاركتى فى الأحداث المختلفة التى أدت إلى انتصار الثورة فى أول كانون الثانى الأخير.

إنه لأمر مهم جداً بالنسبة لنا جميعاً أن نعرف فكر أولئك الذين يؤلفون جيشنا المتمرد، وفكر تلك المجموعة التى اندفعت فى مغامرة " جرانما " وتطور هذا الفكر الذى تولد داخل حركة ٢٦ تموز وتحولاته المتتالية تبعاً لمراحل الثورة، كى نصل إلى درس هذا الفصل الآخر الذى يختتم به الشطر التمردى.

قلت لكم إنى تعرفت إلى الأعضاء الأوائل فى حركة ٢٦ تموز فى المكسيك. كان المسقط الاجتماعى للمجموعة مختلفاً كل الاختلاف قبل حادثة " جرانما "، وقبل أن يقع الانقسام الأول داخل حركة ٢٦ تموز، أثناء الهجوم على ثكنة " المونكادا"، وأذكر أنى عرضت أثناء اجتماع سرى عقد فى منزل من منازل مكسيكو ضرورة تقديم برنامج ثورى لشعب



كوبا، وقد أجابنى أحد محاربى " المونكادا"، الذى هجر لحسن الحظ حركة ٢٦ تموز، جواباً ما أزال أذكره فقال : " هذا أمر بسيط جداً، يجب أن نقوم بانقلاب، باتيستا قام بانقلاب واستلم الحكم فى يوم واحد، ومن الضرورى وقوع انقلاب ثان لطرده. . ارتضى باتيستا بمائة تنازل للأمريكيين، وسنقدم لهم نحن مائة تنازل آخر ". كانت المسألة بالنسبة إليه مسألة الاستيلاء على الحكم. وكنت أرى من جانبى أن نقوم بهذا الانقلاب على أساس بعض المبادئ، وأن المهم فى الأمر هو أيضاً معرفة ماذا سنفعل عندما نصير فى الحكم، لقد رأيتم ما الذى كان يفكر به عضو من أعضاء الفترة الأولى لحركة ٢٦ تموز، بيد أنه، لحسن حظنا، كما قلت لكم، هجر حركتنا الثورية وسلك طريقاً آخر كجميع أولئك الذين كانوا يفكرون مثله.

انطلاقاً من تلك اللحظة بدأت ترتسم ملامح المجموعة التى ستنطلق فيما بعد إلى " الجرانما "، تكونت بصعوبة كبيرة لأننا كنا ملاحقين باستمرار من السلطات المكسيكية التى توصلت إلى تعريض نجاح حملتنا لخطر شديد. لقد عملت بعض الأسباب الداخلية على التقليل من عدد أعضاء حملتنا، منها مثلاً موقف بعض الأفراد الذين كان يبدو أنهم يريدون فى البداية الاشتراك فى المغامرة ثم هجرها بحجة من الحجج، وفى نهاية المطاف، بقى ٨٢ رجلاً للنزول فى " جرانما". أما تكملة القصة فمعروفة تماماً لدى الشعب الكوبى.

إن ما يهمنى، وما أجده مهمًا، هو الفكر الاجتماعى للذين ظلوا على قيد الحياة بعد " أليجريا دى بيو " وهى النكبة الأولى والوحيدة التى حلت بالجيش المتمرد طوال فترة التمرد. كنا حوالى خمسة عشر رجلاً مضعضين جسمياً بل ومعنوياً، ولم نستطع مواصلة الكفاح إلا بفضل

الثقة الكبرى لدى " فيديل كاسترو " فى تلك اللحظات الحاسمة، وبفضل شخصيته القوية كزعيم ثورى وإيمانه بالشعب إيماناً لا يتزعزع. كنا مع رجال المدينة نطوف بـ"السييرا ما يسترا " دون أن نكون ملتصقين بها. كنا ننتقل من كوخ إلى كوخ، ولم نكن بطبيعة الحال، نمس شيئاً مما لا نملك، حتى إننا لم نكن نأكل شيئاً لا نقدر على دفع ثمنه (وغالباً ما كان هذا المبدأ يسلمنا للجوع). كنا مجموعة تلقى التسامح من الناس لكنها لم تكن مندمجة بهم، ودام هذا الحال زمناً طويلاً. . لقد قضينا عدة أشهر تائهين فى أعالى القمم من جبال " سييرا ما يسترا " حيث كنا نعود إلى الصعود بعد القيام بعمليات متفرقة وكنا ننتقل من قمة إلى أخرى، فى منطقة خالية من الماء، والحياة فيها شاقة غاية المشقة.

تبدل شيئاً فشيئاً موقف الفلاح منا بسبب القمع الذى تقوم به قوات " باتيستا"، فقد كانت تقتل وتدمر المنازل وتظهر عداء شاملاً لأولئك الذين كانوا يتصلون بجيشنا المتمرد أقل اتصال، حتى لو كان عرضياً. ووجد هذا التبدل تعبيره بظهور قبعة القش لدى مغاورينا وتحول تدريجياً جيشنا المؤلف من مدنيين إلى جيش فلاحى. وعندما انضم الفلاحون " الجـواخـيـيـروس" إلى النضـال المسلح للمطالبـة بالحـرية وبالعـدالة الاجتماعية، ظهرت الكلمة السحرية التى ستعبئ الجماهير المضطهدة الكوبية فى النضال من أجل امتلاك الأرض : الإصلاح الزراعى. وهكذا تحدد المشروع الاجتماعى الكبير الأول الذى سيصبح لواء حركتنا، رغم فترة القلق الشديد التى وجب أن نمر بها بسبب سياسة جارتنا الشمالية الكبرى. فى تلك الفترة، كان حضور صحفى أجنبى، والأفضل أن يكون أمريكياً أهم بالنسبة إلينا من تحقيق نصر عسكرى. وكنا نهتم بالمناضلين الأمريكيين، الذين يمكن أن ينفعونا فى تصدير دعايتنا الثورية، أكثر من



اهتمامنا بانضمام الفلاحين الذين كانوا يجلبون للثورة إيمانهم ومثلهم الأعلى.

فى هذا الوقت بالذات وقع فى "سانتياجو" حادث مؤسف. مصرع رفيقنا فرانك بايس، فكان انعطافاً لبنية الحركة الثورية كلها، لقد تأثر شعب سانتياجو كوبا تأثراً عميقاً لموت فرانك بايس فنزل عفوياً إلى الشارع. وقد شلت هذه المحاولة الأولى للإضراب السياسى العام شللاً تاماً مقاطعة " أوريانته " رغم غياب القيادة، وترددت أصداؤه فى مقاطعتى " كاماجواى " و" لاس فيلاس". وصفت الديكتاتورية هذه الحركة التى انبثقت دون تحضير ودون إشراف ثورى، هذه الظاهرة الشعبية قد أتاحت لنا أن نلتفت إلى وجوب إدخال الشغيلة فى الكفاح لتحرير كوبا، وفى الحال بدأت النشاطات السرية فى المراكز العمالية للقيام بإضراب عام يساعد الجيش المتمرد على الاستيلاء على السلطة.

وهكذا بدأت حملة تنظيمات سرية بروح تمردية، بيد أن الذين شجعوا هذه الحركات لم يكونوا يعرفون حقاً مغزى النضال الجماهيرى وتكتيكه، فقادوه فى طرق مضللة تماماً، لأنهم لم يؤمنوا بالروح الثورية وبوحدة المقاتلين، ولأنهم حاولوا توجيه الإضراب من القمة دون أن تكون لهم أية صلات بقاعدة المضربين.

إن انتصارات الجيش المتمرد والنشاطات السرية الضارية قد هزت البلاد وخلقت غلياناً كبيراً إلى حد الإضراب العام فى ٩ نيسان، وقد فشل الإضراب لأسباب تنظيمية على وجه الضبط وخاصة بسبب انعدام الاحتكاك بين الجماهير العمالية والقيادة. بيد أن التجربة كانت مفيدة وحدث فى حركة ٢٦ تموز صراع أيديولوجى أثار تبديلاً جذرياً فى نظرتها إلى واقع البلاد وفى تنظيم قطاعات نشاطها.



خرجت حركة ٢٦ تموز من الإضراب الفاشل عزيزة الجانب وقد علمت التجربة قادتها حقيقة ثمينة، هى أن الثورة ليست ملكاً لهذه المجموعة أو تلك، بل يجب أن تكون من عمل الشعب الكوبى بأسره، فتوجهت طاقات مناضلى حركتنا كلها هذه الوجهة، فى السهل وفى الجبل على السواء.

وفى هذه الفترة وقعت محاولات الجيش المتمرد الأولى لإعطاء الثورة نظرية وعقيدة بتقديم البراهين الملموسة عن التنمية والنضج السياسى للحركة التمردية. فقد انتقلنا من المرحلة التجريبية إلى المرحلة البناءة. ومن المحاولات إلى الأفعال النهائية. وفى الحال أخذت " الصناعات الصغيرة " فى " السييرا مايسترا" فى الظهور. لقد حصل تحول مماثل لذلك الذى كان أجدادنا قد عرفوه قبلنا بكثير. إذا انتقلنا من الحياة البدوية إلى الحياة الحضرية. فنشأ مركزان للإنتاج تبعاً لحاجاتنا الملحة. وهكذا أوجدنا مصنعاً للأحذية، ومصنعاً للأسلحة وورشة كنا نعيد فيها تركيب القنابل التى كان الطغيان يقذفنا بها، لنردها إلى جنود باتيستا بشكل ألغام.

إن رجال جيشنا المتمرد ونساءه لم ينسوا قط، لا فى السييرا مايسترا ولا فى مكان آخر، أن رسالتهم الرئيسية هى تحسين شروط الفلاح، والاندماج فى الكفاح من أجل الأرض ومساعدته بفضل المدارس التى أنشأها المعلمون المرتجلون فى الأماكن الأكثر وعورة من منطقة أوريانته. ففى هذه الأماكن جرت المحاولة الأولى لتوزيع الأراضى وفق نظام زراعى حرره بصورة رئيسية الدكتور " هومبرتو سورى ماران " و " فيديل كاسترو" وكان لى شرف المعاونة فى هذا العمل، ووزعت الأراضى، وصارت شيئاً فشيئاً جميع أراضى الدولة ملكاً لفلاحى المنطقة. لقد حان الوقت لأن



نحدد هويتنا تحديداً تاماً كحركة فلاحية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالأرض تحت راية الإصلاح الزراعى.

عرفنا فيما بعد نتائج إضراب ٩ نيسان الفاشل، فقد بدأنا نشعر فى نهاية آيار بالقمع الوحشى الذى لجأ إليه باتيستا إذ أحدث بين كوادرنا المناضلة تراخياً خطيراً جداً كان من شأنه أن يؤدى إلى نتائج مفجعة لقضيتنا. لقد هيأت الديكتاتورية هجومها الأكثر وحشية، فهاجم عشرة آلاف جندى مدججين بالسلاح مواقعنا حوالى ٢٥ آيار من السنة الأخيرة، وركزوا هجومهم على الرتل رقم ١ الذى كان يقوده قائدنا الأعلى فيديل كاسترو. كان الجيش المتمرد يحتل رقعة ضيقة جداً ولم يكن أحد يصدق أننا نستطيع الصمود أمام هذه الجمهرة المؤلفة من عشرة آلاف جندى بثلاثمائة بندقية من بنادق الحرية، البنادق الوحيدة التى كانت موجودة فى ذلك الوقت فى السييرا مايسترا. وبفضل قيادة تكتيكية جيدة انتهى هجوم باتيستا فى ٣٠ تموز، وانتقل المتمردون من الدفاع إلى الهجوم فاستولينا على أكثر من ٦٠٠ قطعة سلاح جديدة " أى أكثر من ضعف عدد البنادق التى بدأنا بها المعركة " وبلغت خسائر العدو أكثر من ألف رجل بين قتيل وجريح وهارب وأسير.

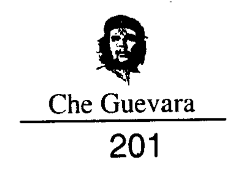
فى نهاية هذه المعركة كان الجيش المتمرد مستعداً لأن يبدأ هجوماً فى السهل، هجوماً تكتيكياً وسيكولوجياً لأن سلاحنا لم يكن قادراً على منافسة سلاح الديكتاتورية فى الكيفية وأقل قدرة على منافسته فى الكمية. إنها حرب اعتمدنا فيها دوماً على الشعب، ذلك الحليف الذى لا يقدر بوزن ولا ثمن. كانت أرتالنا تستطيع على الدوام أن تخدع العدو وتحتل أفضل المواقع، بفضل الميزات التكتيكية والمعنويات العالية لجنودنا، وكذلك بفضل مساعدة الفلاحين مساعدة مهمة جداً. كان الفلاح المتعاون



غير المرئى يتكفل بكل ما لم يكن يستطيع المتمرد فعله، ينقل إلينا المعلومات، ويراقب العدو، ويترصد نقاطه الضعيفة، وينقل بسرعة الرسائل العاجلة، ويتحرى حتى فى صفوف جيش باتيستا. لم يكن ذلك أعجوبة بل نتيجة لسياسة المطالب الزراعية التى شرعنا بها بقوة. وأمام عنف الهجوم وحصار الجوع اللذين طوقا السييرا مايسترا صعد إلى الجبل عشرة آلاف رأس من البقر جمعت من الملكيات المجاورة بأكملها، وقد استخدمت فى تغذية الجيش المتمرد، لكنها وزعت كذلك على الفلاحين الفقراء الذين عرفوا الرخاء لأول مرة فى هذه المنطقة القاحلة بشكل خاص، ولأول مرة أتيح للفلاحين الصغار أن يشربوا الحليب وأن يأكلوا لحم البقر. ولأول مرة عرفوا محاسن الثقافة، لأن الثورة جلبت معها المدارس. وهكذا تكون لدى الفلاحين جميعاً رأى محبذ لنظامنا.

ومن جهة أخرى كانت الديكتاتورية تقدم لهم بانتظام حرق منازلهم، وطردهم من أرضهم وقتلهم. كان الموت يأتيهم من الأرض كما كان يأتيهم من السماء، وكان جيراننا الديمقراطيون فى الشمال قد قدموا بطيبة خاطر لباتيستا قنابل نابالم تزن ٥٠٠ كيلو جرام ليرهب بها السكان. كان سقوط هذه القنابل يزرع الخراب فى دائرة قطرها يزيد على مائة متر. إن سقوط قنبلة نابالم على مزرعة للبن يعنى خراب هذه الثروة فى قطر يبلغ مائة متر وضياع سنوات العمل التى تمثلها، وإن التعويض عما خرب فى دقيقة يقتضى جهد خمس أو ست سنوات.

فى هذه الفترة بدأ السير على لاس فيلاس. وأتحدث عنها لا لأنى شاركت فيها، بل لأننا رأينا لدى وصولنا إلى لاس فيلاس منظراً سياسياً واجتماعياً جديداً للثورة.



وصلنا إلى لاس فيلاس مع علم ٢٦ تموز، وكانت الإدارة الثورية وجماعات جبهة الايسكامبرى الثانية، وجماعات الحزب الاشتراكى الشعبى والجماعات الصغيرة من المنظمة الأصلية تناضل ضد الديكتاتورية.

وكان يجب أن ننجز مهمة سياسية خطيرة وقد بدا أكثر من أى وقت مضى أن الوحدة كانت عنصراً أولوياً من عناصر النضال الثورى. كان على حركة ٢٦ تموز وعلى رأسها الجيش المتمرد أن توحد مختلف العناصر المستاءة التى وجدت فى عمل السييرا مايسترا الحافز الوحيد إلى الوحدة. كان يجب قبل كل شىء وضع خطة لهذه الوحدة التى كان عليها أن تجمع شمل منظمات السهل ومجموعات المحاربين على حد سواء. لقد وجب علينا أن ننصرف إلى عمل غاية فى الأهمية هو تصنيف جميع الأقسام العمالية فى المقاطعة. فاصطدمنا بخصوم عديدين. منهم خصوم فى صفوف حركتنا نحن كانوا ما يزالون يعانون من مرض التشيع.

فور وصولنا إلى لاس فيلاس، كان أول عمل حكومى قمنا به - قبل إنشاء المدرسة الأولى - نشر تصريح بتطبيق الإصلاح الزراعى، وقد نص هذا التصريح على بنود كثيرة منها أن على مالكى قطع الأرض الصغيرة أن يمتنعوا عن دفع أجورهم حتى تفصل الثورة فى كل حالة على حدة. لقد صار الإصلاح الزراعى رأس الحربة للجيش المتمرد. ولم يكن ذلك مناورة ديماجوجية، فبعد عشرين شهراً فقط من الثورة، صارت الصلات بين القادة والجماهير الفلاحة وثيقة إلى حد أنها كانت تدفع الثورة فى بعض الأحيان إلى العمل بصورة غير متوقعة. لم نكن نحن الذين ابتكرنا الإصلاح الزراعى، بل إن الفلاحين هم الذين دفعونا إليه فقد أقنعناهم أن النصر مؤكد إذا تسلحوا، وتنظموا، وكفوا عن خشية العدو. وفرض

الفلاحون، من جانبهم، على الثورة، وقد كانت لديهم أسباب وجيهة لذلك، الإصلاح الزراعى ومصادرة قطعان البقر وجميع التدابير ذات الصفة الاجتماعية التى اتخذت فى السييرا مايسترا.

فى زمن المهزلة الانتخابية فى ٣ تشرين الثانى، نشر القانون رقم ٣ فى السييرا مايسترا، كان ينص على إجراء إصلاح زراعى حقيقى وحتى لو لم يكن تاماً فقد كان يتضمن نقاطاً إيجابية جداً : توزيع أراضى الدولة، وأراضى خدم الديكتاتورية وأولئك الذين يمتلكون سندات ملكية حصلوا عليها بواسطة مناورات دنيئة مثل ملتهمى الأراضى الذين احتكروا آلاف " الكاباليرياس" وإعطاء صغار المزارعين الذين كانوا يدفعون أجوراً تقل عن كاباليرياس ملكية الأرض التى كانوا يشغلونها. كان كل ذلك مجاناً. فالمبدأ كان ثورياً جداً. وقد استفاد من الإصلاح الزراعى أكثر من مائتى ألف عائلة. بيد أن الثورة الزراعية لم تنته بالقانون رقم ٣, فما يزال على الثورة أن تسن القوانين للحد من الملكية الكبيرة كما ينص على ذلك الدستور. ويجب عليها أن تحدد بالضبط ما هى الملكية الكبيرة التى تميز بنيتنا الزراعية. إن الملكية الزراعية الكبيرة، العلة الأكيدة لفقر بلادنا ولجميع الشرور التى تعانى منها الجماهير الفلاحة، لم تمس بعد.

سيكون على الجماهير الفلاحة المنظمة أن تفرض قانوناً، يحظر الملكية الكبرى، تماماً كما أرغمت الجيش المتمرد على فرض مبدأ الإصلاح الزراعى المتضمن فى القانون رقم ٣, علينا كذلك أن نأخذ بعين الاعتبار وجهاً آخر للمساءلة : فالدستور ينص على أن كل نزع لملكية الأرض يجب أن يسبقه دفع تعويض نقدى فإذا نفذ الإصلاح الزراعى حسب هذا المبدأ، كان بطيئاً وباهظ التكاليف. إن العمل الجماعى



للفلاحين الذين كسبوا الحق فى الحرية منذ انتصار الثورة أمر ضرورى كذلك للمطالبة ديمقراطياً بالشذوذ عن هذا المبدأ وليكون بمقدور الثورة أن تحقق دون منازعة إصلاحاً زراعياً حقيقياً وعميقاً.

وهكذا نصل إلى الدور الاجتماعى للجيش المتمرد، فقد حققنا الديمقراطية المسلحة وعندما وضعنا خطة الإصلاح الزراعى، واحترمنا متطلبات القوانين الثورية الجديدة التى تكملها وتجعلها قابلة للحياة وفورية، كنا نفكر بالعدالة الاجتماعية المتمثلة فى إعادة توزيع الأرض، كما كنا نفكر بخلق سوق داخلية واسعة وبتوزيع الزراعات. هذان الهدفان الجوهريان واللذان لا ينفصلان عن الحكم الثورى لا يمكن تأجيلهما، باعتبارهما يمثلان مصلحة الشعب.

إن جميع الفاعليات الاقتصادية مرتبطة فيما بينها. فعلينا أن نمضى فى تصنيع البلاد، دون أن نهمل المشكلات العديدة التى تؤدى إليها. بيد أن سياسة التصنيع تقتضى اتخاذ بعض التدابير الجمركية الخاصة بحماية الصناعة الناشئة وإيجاد سوق داخلية قادرة على امتصاص البضائع الجديدة. ونحن لا نستطيع توسيع هذه السوق إلا إذا أخلنا إليها الجماهير الفلاحة الواسعة، أولئك الفواخيروس الذين لا يملكون القدرة الشرائية والذين لا يستطيعون حالياً شراء ما يسدون به حاجاتهم.

نحن نعى أن هذه الأهداف الوحيدة، وإنها تلقى على عاتقنا مسئولية كبيرة جداً. ويجب أن نتوقع عداء أولئك الذين يشرفون على أكثر من ٧٥٪ من مبادلاتنا التجارية ومن سوقنا، ويجب توقعاً لهذا الخطر، أن نستعد لتطبيق تدابير مضادة، خاصة التعريفة الجمركية والإكثار من الأسواق الداخلية، فنحن بحاجة إلى خلق أسطول تجارى كوبى لنقل



السكر، والتبغ والبضائع الأخرى، وسيؤثر امتلاك هذا الأسطول تأثيراً مشجعاً جداً على كيفيةً النقل البحرى الذى يرتبط به إلى حد كبير تقدم البلدان النامية مثل كوبا.

وإذا كان علينا أن نضع موضع العمل برنامجاً تصنيعياً، فالأهم أن نستثمر المواد الأولية التى كان الدستور يدافع عنها بحكمة، وكانت ديكتاتورية باتيستا تسلمها للاحتكارات الأجنبية، علينا أن نشترى باطن أرضنا، ثرواتنا المنجمية، وهناك عنصر آخر مهم من عناصر التصنيع هو الكهرباء. سنتأكد من أن الكهرباء قد أوكلت إلى كوبيين. كما يجب أن تؤمم شركة الهاتف التى تسير العمل بشكل سيئ وباهظ التكاليف.

فعلى أية موارد يجب أن نعتمد لننفذ على خير وجه مثل هذا البرنامج ؟ لدينا الجيش المتمرد وهو الذى يجب أن يكون أداتنا الأول فى الكفاح، وسلاحنا الأكثر إيجابية والأشد مضاء، يجب أن نحطم كل ما تبقى من الجيش الباتيستى، ويجب أن ندرك جيداً أن هذه التصفية لا تمت بصلة إلى روح الانتقام ولا حتى للعدالة وحدها، بل علينا أن نحيط أنفسنا بجميع الضمانات لتحقيق مكتسبات الشعب فى أقصر المهل.

لقد قهرنا جيشاً أكثر عدداً من جيشنا بكثير بفضل مساهمة الشعب، وتكتيك محكم وخلق ثورى، والآن يجب علينا أن نسلم بأن جيشنا ما زال غير مهيأ لمسئولياته الجديدة، مثل الدفاع دفاعاً فعالاً عن الأرض الكوبية كلها. ويجب أن نقوم سريعاً بإعادة النظر فى بنية الجيش المتمرد لأننا شكلنا أثناء الكفاح جيشاً مسلحاً من الفلاحين والعمال، معظمهم أميون، وغير مثقفين ومحرومون من كل تكوين تقنى. علينا إعداد هذا الجيش للمهام العظيمة التى يجب على أفراده مواجهتها وتزويدهم بتكوين تقنى وثقافى.



إن الجيش المتمرد هو طليعة الشعب الكوبى، وإذا كنا نتحدث عن التقدم والثقافى فيجب علينا أن نعرف المعنى العصرى لهذه الكلمات. لقد بدأنا تربيته تربية رمزية فى اجتماع تسوده بصورة تكاد تكون حصرية روح مارتى وتعاليمه. إن إعادة البناء القومى يجب أن تحطم كثيراً من الامتيازات. فعلينا إذن أن نكون مستعدين للدفاع عن الأمة ضد أعدائها الصريحين أو المتسترين. ويجب أن يتآلف الجيش الجديد مع الشروط الجديدة المتولدة من هذه الحرب التحريرية. نحن نعلم أننا إذا هوجمنا من قبل جزيرة صغيرة فإنما يعود الفضل لمساندة دولة تكاد تشكل قارة ؟ وعلينا أن نتحمل على أرضنا عدواناً عاتياً.

يجب إذن أن نحترز وأن نعد تقدمنا بروح الغوار واستراتيجيته، بحيث لا يتفكك دفاعنا لدى أول هجوم، ويحتفظ بوحدته المركزية. يجب أن الشعب الكوبى بأسره إلى جيش من الغوار، فالجيش المتمرد جسم فى أوج نموه لا يحده فى تنميته سوى رقم واحد هو الملايين الستة من الكوبيين، ويجب أن يتعلم كل كوبى استخدام الأسلحة وأن يعرف متى يجب أن يستخدمها للدفاع عن نفسه.

عرضت عليكم الخطوط الكبرى لدور الجيش المتمرد بعد النصر ودوره فى دفع الحكومة إلى الاستجابة للمطامح الثورية.

بقى أن أحدثكم فى نهاية هذه الكلمة عن أمر مهم، عن المثل الذى جسدته ثورتنا بالنسبة لأمريكا اللاتينية، وعن تعاليمها التى حطمت جميع نظريات الصالونات. فقد أثبتنا أن فئة صغيرة من الرجال المصممين، الذين يساندهم الشعب والذين لا يخافون من الموت، يمكن أن تتوصل إلى فرض إرادتها حيال جيش نظامى انضباطى وإلى قهره. ذلك هو الدرس الأساسى. ينتج عنه درس آخر يجب أن يفيد إخواننا فى



أمريكا الذين يصنفون على الصعيد الاقتصادى فى زمرتنا الزراعية ذاتها. هو أنه يجب عليهم أن يقوموا بثورات زراعية وأن يناضلوا فى الأرياف، وفى الجبال، وأن يحملوا الثورة من هناك إلى المدن وألا يطمحوا إلى القيام بالثورة دون محتوى اجتماعى راسخ.

والآن، تطرح، بعد تجاربنا، مسألة مستقبلنا، المرتبط ارتباطاً وثيقاً بمستقبل جميع البلدان النامية فى أمريكا اللاتينية. فالثورة ليست مقتصرة على الأمة الكوبية، بل لامست وعى أمريكا كلها واستنفرت جدياً أعداء شعوبنا. ولذا أعلنا أن كل محاولة للعدوان ستصد بقوة السلاح. لقد أحدث مثال كوبا فوراناً كبيراً فى أمريكا اللاتينية كلها وفى البلدان المضطهدة. إن الثورة أمهلت الطغاة فى أمريكا اللاتينية أعداء الأنظمة الشعبية كما أمهلت الاحتكارات الأجنبية. وبما أننا بلد صغير، فنحن بحاجة لمساندة جميع الشعوب الديمقراطية وبخاصة فى أمريكا اللاتينية.

يجب أن نعلن بكل وضوح، على العالم أجمع، الأهداف النبيلة للثورة الكوبية وأن نستعين بالشعوب الصديقة فى هذه القارة، شمالها وجنوبها. ويجب أن نخلق اتحاداً روحياً لبلداننا كلها، اتحاداً يتجاوز الثرثرة والتعايش البيروقراطى ليترجم إلى مساعدة فعلية لإخواننا الذين نعرض عليهم تجربتنا.

أخيراً يجب أن نفتتح طرقاً جديدة نحو تعريف المصالح المشتركة لبلداننا النامية، وأن نصون أنفسنا من جميع المحاولات الهادفة لتفريقنا، والنضال ضد أولئك الذين يطمعون فى بذر الشقاق فيما بيننا، ضد أولئك الذين نعرف مناوراتهم، والذين يأملون فى الاستفادة من خلافاتنا السياسية وإثارة أفكار قبلية غير مفهومة فى بلادنا.



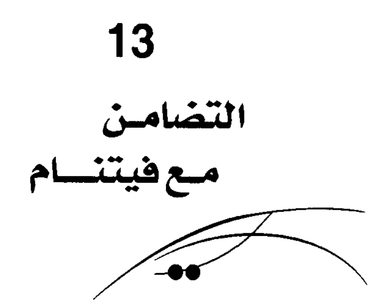
إن الشعب الكوبى بأسره مستعد اليوم للنضال، ويجب أن يظل موحداً لكى لا يكون النصر على الديكتاتورية مؤقتاً، بل المرحلة الأولى لانتصار القارة الأمريكية.

خطاب ألقاه جيفارا فى جمعية " نوستير يتيمبو "
بتاريخ ٢٢ كانون الثانى ١٩٥٩

■■■

13

التضامن مع فيتنام





لقد دام كفاح الشعب الفيتنامى سنوات عديدة، ونحن لا نستطيع فى الحقيقة أن ننظر إلى الشعب الفيتنامى تبعاً للتقسيم المصطنع الذى أوجدته اتفاقيات جنيف، فقد بدأت القوات الشعبية كفاحاً تحررياً طويلاً فى وقت كانت فيه فيتنام خاضعة للحكم الاستعمارى الفرنسى وكان جغرافيونا يسمونها الهند الصينية.

وفى الوقت الذى شهدنا فيه فى أمريكا سقوط الديمقراطية الأصلية الوحيدة التى كانت قائمة آنذاك على قارتنا - أواسط عام ١٩٥٤ - علمنا بانتصار القوات الشعبية فى " ديان بيان فو". كان ذلك بمثابة تحذير للامبرياليين بأن نصراً جزئياً فى نقطة معينة من العالم لم يكن يعنى أبداً انتصار الامبريالية. وكان ذلك أيضاً صرخة أمل أطلقتها الشعوب المضطهدة فى العالم : فالبرهان على أن اندحاراً جزئياً للقوات الشعبية لا يشكل على الإطلاق الإدانة النهائية لمطامح الشعوب إلى الحرية.

وبعد بضعة أشهر اقتنع الجيش الاستعمارى الفرنسى، من عدم جدوى كفاح كانت تستنفد فيه قوى الشعب الفرنسى، فقرر أخيراً أن يضع له حداً. وكان التوقيع على اتفاقيات جنيف التى جزأت فيتنام إلى قسمين،



وكانت تبدو فى هذه الاتفاقات الملامح الجوهرية ذاتها التى قسمت الشعب الكورى إلى قسمين قبل عدة سنوات.

ومع ذلك كانت اتفاقات جنيف تنص على إجراء انتخابات عامة تتيح للشعب الفيتنامى تقرير مصيره بنفسه. وكان الامبرياليون الفرنسيون الذين تخلوا تماماً عن تلك المنطقة من آسيا يمدون يدهم إلى الامبريالية الأمريكية الشمالية. وقد فهم الأمريكيون الشماليون بسرعة أن كل مظاهرة شعبية حرة ستكون نتيجتها الوحيدة ضياع ممتلكاتها كلها فى جنوب شرق آسيا الذى كانت تعتبره منطقة استراتيجية.

وهكذا خرقت اتفاقات جنيف. وهكذا خرق الأمريكيون الشماليون إرادة الشعب الفيتنامى وبدأوا بالاستعداد لحرب إفناء طويلة الأمد كانوا قد قرروا مواجهتها.

صبر الشعب الفيتنامى الجنوبى لبعض الوقت. وجرت بين عام ١٩٥٤، تاريخ انتهاء الحرب، وعام ، ١٩٦٠ تاريخ استئنافها تظاهرات عديدة من تظاهرات النضال السلمى لفرض احترام إرادة الشعب كاملة. لكن جاء وقت لم يعد فيه حقاً أمام الشعب سوى حل العودة إلى حمل السلاح. وقد كان يجب استنفاد جميع الحلول، لأن هذا النوع من الحروب الشعبية التى يقل فيها عدد الجيوش وتمثل بالنسبة للجماهير الواسعة العزلاء أمام الدول الاستعمارية التى تمتلك جميع وسائل التدمير أنها كابوس رهيب للشعب. إنها محرقة حقيقية للقوات الشعبية قبل أن تحصل على التحرير النهائى. غير أنه لم يكن ثمة طريق آخر، وبدأ الكفاح من جديد فى جنوب فيتنام.

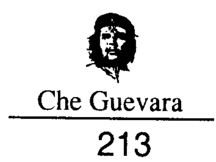
وفى ذلك الوقت كانت أمريكا قد أعلنت من جديد لشعوب العالم أن الشعوب الأمريكية لم تنم وأنها تعدل عن تحررها. وكانت الولايات المتحدة تعترف أن الثورة الكوبية صارت إحدى مشكلاتها الكبرى.

وفى الوقت ذاته كانت حرب التحرير الشعبية التى يخوضها الشعب الجزائرى قد بلغت الأوج، وكانت قد شارفت على أن تنتهى بعد بضع سنوات إلى اتفاقات " إيفيان" لتصل فى آخر المطاف إلى تحرير الشعب الجزائرى وإقامة حكومة اشتراكية. كانت القارات المضطهدة الثلاث - أمريكا، وآسيا، وإفريقيا - تعرب عن عدم قبولها لزمن أطول ببقاء الدول الاستعمارية.

ثم اندلعت حروب تحرير جديدة. فقد بقيت اللاوس فى وضع غير مستقر بعد أن تمكنت من إفشال الخطط الامبريالية على الأقل. وفى أنجولا وغينيا البرتغالية نشب كفاح مباشر بشكل حرب غوار " عصابات " وفى قارتنا تبرهن الشعوب حالياً فى نيكاراجوا وهندوراس وجواتيمالا وسان دومينج وكولومبيا وفنزويلا والباراجواى، عن حيويتها وعن عجز الجيوش الحكومية فيما يتعلق بقمع الشعوب والوقوف فى وجه حريتها.

لقد حققت القوات الشعبية فى فنزويلا وجيش التحرير فى جنوب فيتنام، خلال الأشهر الأخيرة من هذا العام انتصارات عظيمة، فالخسائر التى تكبدها العدو خلال العمليات الأخيرة والبالغة ٨٠٠٠ إصابة - منها ٤٠٠٠ أسير أو هارب و٤٠٠٠ بين قتيل وجريح - تثبت القوة التى اكتسبتها حركة تحرير فيتنام، فقد حررت عملياً القواعد الجبلية فى الشمال، وانكفأت القوات المسلحة لجنوب فيتنام نحو السهل حيث العاصمة سايجون وأخذت تضغط أكثر فأكثر على حكومة الدمى الفيتناميين الجنوبيين.

ولا نستطيع تقدير الزمن الذى ستستغرقه هذه النضالات، فهى طويلة جداً وتنمياتها تكاد تكون بطيئة جداً على الدوام، والتضحيات جسيمة، لكنها تزيد من القوات الشعبية بنسبة هندسية، وتتسارع الحلول منذ أن تقدم نسبة القوى أقل هامش لمصلحة حزب الشعب.



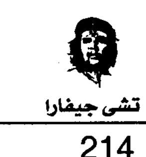
هذا ما حصل فى كوبا، وهذا ما حصل فى شمال فيتنام، وهذا ما حصل فى حرب التحرير التى لا تنتهى والتى أدت إلى تأسيس جمهورية الصين الشعبية.

لقد اكتسبت القوات الشعبية فى زمن معطى قوة بلغت بها حد الانتقال المباشر إلى الهجوم العام. فحولت قواتها المناورة إلى جيوش نظامية أو نصف نظامية، وانتقلت من عمل الغوار البسيط إلى عمل الأرتال، إلى التكتيك العملياتى وحطمت فى وقت قليل القوة الغاشمة.

ولا نعرف متى سنستطيع أن نحيى التحرير النهائى لجنوب فيتنام، ولا نستطيع أبداً أن نتنبأ بزمن تحرير كل شعب من الشعوب التى تكافح اليوم بالسلاح من أجل حريتها، لكننا نعرف بالعكس أن النتيجة الحتمية ستكون حرية الشعوب. ونعلم كذلك أنه كلما ناضلت الشعوب بقوة وحمية وثقة، قصرت الحقبة التى يجب أن تعانى خلالها من هجمات الظالمين. وقد خلقت فى جنوب فيتنام منذ بضعة أشهر شروط أرغمت الولايات المتحدة على تبديل الفريق الحاكم. فلم يطق ذلك الديكتاتور القائم.

وضربت الولايات المتحدة مثلاً جديداً لما يمكن أن يحدث للعملاء الذين لا يطيعون الأوامر فى اللحظة المناسبة. تقول الأنباء التى تناقلتها وكالات الأنباء الأمريكية الشمالية إن " نغو دين دييم " وأخاه كانا ضحية " انتحار عارض ". ويكاد يكون ذلك هو المصير ذاته الذى لقيه " تروخيللو" عندما لم يقبل هو أيضاً أن يكون عملة بديلة فى صفقة معينة حققها الحكم الامبريالى عندما استنفد فريقه أغراضه.

ومع ذلك فإن هذا كله دليل على أن الوضع أخذ يفلت شيئاً فشيئاً من إشراف القوات الطاغية فى جنوب فيتنام، وقد عبر عنه بوضوح الرفاق فى جبهة التحرير، ثمة طرق ثلاث.

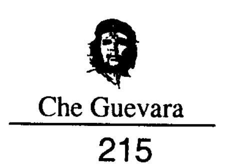


الطريق الحالى الذى ينحصر فى استخدام جيش وطنى فى جنوب فيتنام وفريق خاص فقط من المستشارين، فى القتال والقمع والتعذيب يدل على استحالة ديمومته. وسيكون البديل الانتقال إلى الغزو المباشر لجنوب فيتنام والاستخدام الشامل للقوات الغازية الأمريكية.

إن النضال سيكون بطبيعة الحال قاسياً، لكنه سيرتدى معنى أوضح بالنسبة للعالم، واليوم عندما نحتفل بالانتصارات وبالإعلان عن تكبيد جيش القمع الفيتنامى الجنوبى ٨٠٠٠ إصابة، نستطيع أن نتساءل كم عدد الناس الأبرياء بين هؤلاء الآلاف الثمانية، أبناء الشعب الذين انجرفوا لسبب أو لآخر فى النضال ضد الحرية، كما حدث ذلك فى كوبا (حيث كان الجنود ينخرطون فى جيش باتيستا لأنهم لم يجدوا عملاً آخر، ويكرسون حياتهم للجم تنمية النضال الثورى). لكن إذا أرسلت جيوش التدخل الأمريكية بأعداد كبيرة إلى جنوب فيتنام، فإن الناس يعرفون ضد من يقاتلون. ويفهم الناس بشكل أفضل من هو العدو ويحددون هويته بسرعة أكبر، ويعرف الأمريكيون أيضاً هذه الحقيقة.

وعندما نرفع اليوم بحماس علم فيتنام الجنوبية، فإننا لا نفعل ذلك فقط بدافع من الأممية البروليتارية، ومن العدالة التى أدخلتها الثورة فى أذهاننا بل لأن هذه الجبهة النضالية ترتدى كذلك أهمية قصوى بالنسبة لمستقبل أمريكا.

هنالك فى فيتنام تتدرب قوات يمكن أن تقمع يوماً من الأيام مغاورينا نحن على الأرض الأمريكية كلها. فهم يجربون فيها جميع أنواع أسلحة الإبادة الجديدة وأحدث أنواع التكنيك للنضال ضد حرية الشعوب. وفى هذه الأيام تكون فيتنام الجنوبية، بالنسبة للإمبريالية الأمريكية، مختبراً كبيراً تهيأ فيه هذه التجهيزات كلها تحسباً لمعركة على أكبر قدر من

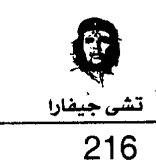


الإثارة، بل ربما كانت أكبر معركة يمكن أن تدور فى الساحة الخلفية من المملكة الاستعمارية فى القارة الأمريكية كلها.

وتعلم الولايات المتحدة أن النهاية الظافرة لهذا الكفاح تعنى كذلك نهاية الامبريالية الأمريكية الشمالية، ولذا فهى تهتم بها اهتماماً كبيراً، دون أن نتحدث عن الأهمية الاستراتيجية لفيتنام الجنوبية كقاعدة للعمليات لشن هجوم على الكتلة الاشتراكية فى آسيا. هذان الوجهان الاستراتيجيان يصنفان جنوب فيتنام فى صف إحدى المشكلات الخطيرة التى تصطدم بها الإدارة الأمريكية الجديدة، فيجب أن تحلل هذه الإدارة تحليلاً وجدانياً ما يحسن أن تفعله فى الوقت الحاضر.

وبديهى أن أحداً لا يحلم بصيغة سلم ديمقراطية فعلاً تتيح دون تعقيد للشعب الفيتنامى أن يحصل على النصر، وأن يكون أمة واحدة، وأن ينتقل كما فعل أشقاؤه فى الشمال إلى بناء الاشتراكية على قواعد التخلف الموروث من الاستعمار والثروات التى دمرتها الحرب. فالامبرياليون يفكرون بتكتيك آخر وبمعنى استراتيجى آخر. ماذا سيكون قرارهم؟ لا نستطيع أن نعرف ذلك بعد. بيد أننا نتوقع للشعب الفيتنامى الجنوبى البطل كفاحاً طويلاً وآلاماً كثيرة، شأنه فى ذلك شأن جميع الشعوب التى تناضل فى سبيل حريتها.

ورغم كل شىء فإن الوجود الحى لقوات التحرير فى جنوب فيتنام، ونجاحاتها المستمرة، وتقدمها المطرد نحو مناطق أمنع دفاعاً من مناطق العدو، هى مثال تحتذى به جميع الشعوب، ومن واجبنا هنا فى كوبا أن نقتدى بهذا المثال الحى وأن نجسده فى شعبنا لأنه يمثل العدالة، ولأنه جزء لا يتجزأ من الأخوة الكبرى، أخوة الشعوب المضطهدة فى العالم، ويجب علينا أيضاً أن ننقل هذا المثال، بجميع الوسائل إلى أمريكا



المضطهدة لنظهر كيف يكافح الناس فى القارات كلها فى سبيل انعتاق الشعوب، ولنظهر لشعوبنا الأمريكية أمراً آخر، هو أنه عندما تستنفد الشروط السليمة للنضال، عندما تمضى الدول الامبريالية دون كلل فى خداع الشعوب لا يمكن وحسب بل يجب رفع علم الثورة. إننا لا نتكلم عن أى بلد بصورة خاصة بل نتحدث عن أوضاع ملموسة. فشكل النضال ووسائله وزمنه ستقررها القوى الشعبية فى كل بلد. بيد أن الأمثلة حاضرة أمامنا تنبض بالحياة لتظهر كيف يستطيع الناس أن يناضلوا رغم الحرب الكيميائية، ورغم طرائق التدمير الجديدة التى يجربها اليانكى أنفسهم كل يوم. فإذا ما نظرنا لحظة إلى خارطة فيتنام - على صغرها - ثم نظرنا إلى العشرين مليوناً من الكيلو مترات المربعة التى تمثل أمريكيتنا الشاسعة، نرى علاوة على ذلك أننا نستطيع الكفاح بسهولة فائقة.

إن كثيراً من شعوب أمريكا قد نضجت للثورة، وليس فقط الشعوب التى باشرت فى الوقت الحاضر كفاحها. فثمة شعوب لم تبدأ النضال بعد لكنها تشحذ بصبر سيوفها لأنها تعرف أن الساعة قريبة. وتعرف أن الامبريالية الأمريكية ستتدخل فى أمريكا وتعرف كذلك أنها كلما فتحت جبهات متواقتة، ازدادت صعوبة الصراع. لم تعد القضية قضية بلد، فكوبا مثلاً ليست بلداً فى هذا الجزء من العالم، بل جزء من بلد واحد، وهى عدا ذلك رمز لأمريكا كلها.

وهكذا فإن كل شعب يباشر نضاله يبدأ كذلك بحفر قبر الامبريالية، ويجب بالتالى أن ينال منا كل مساعدة وكل إعجاب.

يحاول الامبرياليون الآن تصفية كوبا لتصفية " المثال السيئ " وهم يعتقدون بالتأكيد أنهم إذا استطاعوا الظفر فسيبيدون كل ما حققته هذه



الحكومة والمكتسبات الاجتماعية كلها وممثلى هذه الحكومة جميعهم. إننا نعرف ذلك تمام المعرفة. ولذا فنحن نخوض صراعاً حتى الموت. ويعرف ذلك أيضاً شعب جنوب فيتنام، فليس ثمة بديل للنصر سوى التدمير المتمثل فى سنوات غير محددة تسحق خلالها البلدان المضطهدة تحت جزمة الحكم الامبريالى.

لذا يجب أن يكون الصراع متزناً كل الاتزان، لكنه إذا بدأ يجب أن يستمر حتى النهاية ولا يمكن أن يكون ثمة مصالحة ولا حلول وسط. ولا يمكن أن تكون ثمة معاهدات تضمن جزئياً استقرار بلد من البلدان. فالنصر يجب أن يكون كلياً. وفى هذا التطلع يقف شعبنا مستعداً للحرب كما كان الشعب الجزائرى متهيئ لها خلال سبع سنوات. وبهذه القناعة ذاتها يقاتل اليوم شعب جنوب فيتنام، إلا أنه يتمتع ببعض المميزات الإضافية، إذا اقتضى الأمر : هى حرارة إخوته فى شمال فيتنام ومساندتهم، ولديه أكثر من أى بلد آخر مثال ما تعنيه المعركة المتواصلة التى يخوضها الشعب فى سبيل حريته، ذلك الشعب الشقيق الذى كافح تسع سنوات لينفض عن كاهله نير الاستعمار الفرنسى، ولديه أخيراً مثال الوضع الراهن فى شمال فيتنام فيستطيع مقارنته مع ما يعانيه جنوب فيتنام.

هذه الظروف كلها تجعل إيمانه أعمق، وثقته فى النصر أكبر، وهذه الظروف كلها تجعلنا ندرك ـ كما قال الرفيق الموفد ـ إن النتيجة النهائية ستكون انتصار جنوب فيتنام وتوحيد البلاد كلها أياً كانت طريقة الكفاح التى تستخدمها الامبريالية الأمريكية ـ الشمالية.

وفى الوقت الذى تنتهى فيه تظاهرات هذا الأسبوع احتفالاً بالذكرى السنوية الثالثة لتأسيس الجبهة، نحيى فى شعب جنوب فيتنام الشقيق



أخاً فى السلاح، وزفيقاً نموذجياً فى هذه اللحظات العسيرة من تاريخ العالم، أكثر من هذا، نحيى فيه شعباً من الجنود الطليعيين فى الخنادق الأولى، خنادق البروليتاريا العالمية ضد الامبريالية.

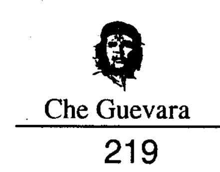
لنحيى أيضاً أخاً حقيقياً ونحن نجتمع لتحية الشعب الفيتنامى، ولنضم بين ذراعينا رجالاً فى بلاد بعيدة يناضلون من أجل أمننا، من أجل الآمال المشتركة التى توحد شعوب القارات الثلاث المضطهدة فى الوقت الحاضر، آسيا وإفريقيا وأمريكتنا.

الإطار داخل الثورة

من الأمور النافلة أن نلح على مميزات ثورتنا، وعلى الشكل الأصيل والقلة من سمات العفوية التى ارتداها الانتقال من ثورة للتحرر الوطنى إلى ثورة اشتراكية، وعلى المراحل التى عاشها بسرعة كبيرة أبطال ملحمة " المونكادا"، مروراً بفصل " الغرانما " حتى إعلان الصفة الاشتراكية للثورة الكوبية، فقد انضم تدريجياً مؤيدون جدد وكوادر جديدة ومنظمات جديدة لتعزيز البنية العضوية للحركة الأولية حتى تكونت القواعد الشعبية التى تتميز بها ثورتنا.

ولما تكشف أن طبقة اجتماعية جديدة قد أخذت نهائياً على عاتقها قيادة كوبا، رأينا الحدود التى كانت تمارس داخلها السلطة، بسبب الشروط التى وجدنا فيها الثورة، محرومة من الكوادر لانجاز الجبال من المهام التى كانت مفروضة على جهاز الدولة فى التنظيم السياسى وعلى الجبهة الاقتصادية كلها.

لقد وزعت المناصب البيروقراطية بعد الاستيلاء على الحكم مباشرة توزيعاً معتدلاً، فلم تكن هنالك مشكلات كبيرة لأن البنية القديمة لم تكن



قد هدمت. وكان الجهاز يعمل على نسق بطئ وكسول، نسق الآلة القديمة التى تكاد تتعطل، لكنه كان ذا تنظيم، وفى داخل هذا التنظيم كان منسقاً تنسيقاً كافياً ليظل قائماً بفعل الجمود، دون أن يهتم بالتحولات السياسية التى تبعتها تحويلات فى البنية الاقتصادية.

ولم تكن حركة ٢٦ تموز التى حدت كثيراً من اندفاعها الصراعات الداخلية بين جناحها اليسارى وجناحها اليمينى، قادرة على تكريس جهودها لمهام بناءة، ولم يكن الحزب الاشتراكى الشعبى قد كون كوادر متوسطة لمواجهة المسئوليات الجديدة التى   على الظهور بسبب ما كابد خلال سنوات من هجمات عنيفة ومن اللاشرعية.

ولما حصلت التدخلات الأولى من جانب الدولة فى الاقتصاد، لم يكن البحث عن الكوادر مسألة معقدة جداً، وكان الاختيار يتناول أشخاصاً يملكون قاعدة دنيا لإشغال مركز من مراكز الإدارة. غير أنه بعد تسارع الحركة. بدءاً بتأميم المشروعات الأمريكية الشمالية أولاً، ثم المشروعات الكوبية الكبيرة، حصل نقص حقيقى فى تقنيى الإدارة، وشعرنا أيضاً بالحاجة الماسة إلى التقنيين فى الانتاج، لأن كثيرين منهم غادروا البلاد، سعياً وراء أوضاع أفضل قدمتها لهم الشركات الأمريكية فى بلدان أخرى من أمريكا أو فى الولايات المتحدة نفسها، ووجب أن يبذل الجهاز السياسى جهداً شديداً، بالإضافة إلى المهام البنيوية، ليهتم على الصعيد الأيديولوجى بجماهير متعطشة إلى التعليم، بدأت اتصالها بالثورة.

ولقد أدينا جميعاً دوراً على أفضل وجه ممكن، ولم يكن ذلك خالياً من التعب والصعوبات. فارتكبت أخطاء كثيرة فى فرع الإدارة التنفيذية، وارتكبت أخطاء جسيمة من قبل الإداريين الجدد للمشروعات، والذين



كانوا يتحملون مسئوليات كبيرة ومهمة. وارتكبنا كذلك أخطاء خطيرة ذات نتائج جسيمة على الجهاز السياسى، الذى سقط رويداً رويداً فى بيروقراطية هادئة ومريحة، وتحول جزئياً إلى منطلق لترفيعات وأعباء بيروقراطية منقطعة انقطاعاً كاملاً عن الجماهير.

إن السبب الرئيسى لأخطائنا يكمن فى تجاهلنا للواقع فى لحظة معطاة. وإن ما أضعف ادراكنا وصول الحزب إلى جهاز بيروقراطى، وإن ما عرض للخطر الإدارة والإنتاج، هو نقص الكوادر المتوسطة الكفؤة. فقد نقصتنا هذه الإدارة، وكانت الكوادر تفرض نفسها كمرادف لسياسة الجماهير، وكانت الأوامر تقضى بإعادة الاتصال بالجماهير، الاتصال الذى كانت الثورة تحافظ عليه كل المحافظة خلال الفترة الأولى من حياتها. وكان يجب أن يتم الاتصال عن طريق جهاز يسمح بالاستفادة منه أكبر قدر من الفائدة، سواء فى فهم آمال الجماهير كلها أو فى نقل التوجيهات السياسية التى لم تكن تعطى فى أغلب الأحيان إلا بخطب شخصية يلقيها الوزير الأول فيديل كاسترو أو قادة آخرون للثورة.

نستطيع أن نتساءل إذن ما هو الكادر. ويجاب على ذلك بأن الكادر فرد بلغ قدراً من التكوين السياسى لتفسير التوجيهات الكبرى الصادرة عن السلطة المركزية، وتبنيها ونقلها كتوجيهات إلى الجماهير، مدركاً مظاهر رغباتها ودوافعها العميقة. إنه فرد انضباطى على الصعيد الإيديولوجى وعلى الصعيد الإدارى أيضاً. يعرف ويمارس المركزية الديمقراطية ويعرف كيف يثمن تناقضات الطريقة ليستخلص أكبر فائدة من أوجهها، ويعرف كيف يطبق فى الانتاج مبدأ المناقشة الجماعية. والقرار والمسئولية الوحيدة، وهو فرد ثبت إخلاصه وتأكدت شجاعته



المادية والأدبية على نسق تكوينه الأيديولوجى بحيث يكون مستعداً دوماً لمجابهة أى نقاش ومسئولاً عن حسن مسيرة الثورة ولو أدى ذلك إلى دفع حياته ثمناً لها. وهو كذلك فرد قادر على التحليل الشخصى، مما يتيح له اتخاذ القرارات الضرورية والبرهنة على مبادهة خلاقة لا تتعارض مع الانضباط.

فالكادر إذن مبدع، إنه قائد عظيم المدى، وتقنى على مستوى سياسى مرض، يستطيع بالمحاكمة العقلية الديالكتيكية أن يدفع قطاعه الإنتاجى فى طريق التقدم أو تكون الجمهور بفعل مركزه السياسى القيادى.

هذا الرجل المثالى المحاط ظاهرياً بخصال يصعب بلوغها، موجود مع ذلك فى صفوف الشعب الكوبى ونلتقى به كل يوم. والمهم أن نستفيد من جميع الفرص لنجعله يزداد تفتحاً ونربيه ونستفيد من كل شخصية ونجعلها أنفع قيمة للأمة.

إن تكوين الكادر يتحقق فى الفاعليات اليومية، ويجب أن يكون كذلك موضوعاً لعمل منظم فى مدارس خاصة يعمل فيها أساتذة أكفاء، قدوة لتلاميذهم، على تحقيق تقدمهم الأيديولوجى.

لا نستطيع أن نتصور فى نظام يبنى الاشتراكية كادراً لا يتحلى بتكوين سياسى رفيع، ويجب ألا نفهم بالتكوين السياسى تعلم النظرية الماركسية وحده، بل يجب أن يقتضى أيضاً مسئولية الفرد عن أعماله، والانضباط الذى يعاقب على كل ضعف عارض ولا يتعارض مع قدر كبير من المبادهة، والاهتمام المستمر بجميع مشكلات الثورة، ولتحقيق مثل هذا الكادر يجب أن نبدأ بإحلال مبدأ الانتقاء داخل الجماهير، ففى الجماهير يجب البحث عن الشخصيات الناشئة، التى عانت التضحية أو التى بدأت تعبر



عن مخاوفها، وتوجيه هذه الشخصيات نحو مدارس خاصة أو توجيهها إذا عزت المدارس نحو مراكز يتحملون فيها مسئوليات كبيرة ويتعرضون للاختبار فى الممارسة العملية.

وهكذا فقد وجدنا جمهرة من الكوادر الجديدة التى تكونت فى هذه السنوات الأخيرة، بيد أن تكوينهم لم يكن موحداً لأن الرفاق الشباب وجدوا أنفسهم أمام واقع الخلق الثورى دون توجيه حزبى مناسب. وقد حقق البعض نصراً مؤازراً، بيد أن عدداً كبيراً منهم لم يتوصل تماماً إلى هذا الهدف وظلوا فى منتصف الطريق، أو ظلوا فى التيه البيروقراطى أو إغراءات السلطة.

ولضمان انتصار الثورة وتدعيمها تدعيماً كاملاً، نحتاج لتكوين كوادر من مختلف الأنواع، نحتاج للكادر السياسى الذى يجب أن يكون قاعدة تنظيماتنا الجماهيرية والذى يوجه الجماهير بعمل الحزب الموحد للثورة الاشتراكية (بدأت هذه القواعد بالظهور مع قيام المدارس القومية والإقليمية للتثقيف الثورى ومع المباشرة بالدروس وبالحلقات الدراسية على جميع المستويات). ونحتاج كذلك للكوادر العسكرية، وللحصول على هذه الكوادر نستطيع أن نستعمل الانتقاء الذى لجأت إليه الثورة بين مقاتلينا الشباب، لقد بقى عدد كبير منهم أحياء، وهم لا يملكون حقاً معلومات واسعة، ولكنهم مجربون فى نار المعارك، متمرسون على شروط الكفاح القاسية، ويتحلون بأمانة تصمد للمحن حيال النظام الثورى، لارتباطهم الوثيق بولادة الثورة ونموها منذ بدء أعمال العصابات الأولى فى السييرا. يجب علينا كذلك تكوين كوادر اقتصادية تكرس جهودها لمهمات التخطيط الصعبة، وتنظيم الدولة فى هذه الفترة من فترات الخلق، ويجب أن نعمل مع المهنيين وأن ندفع الشباب إلى الإحاطة بأهم نواحى الحياة التقنية،



لنحاول أن نضفى على العالم لهجة الحماس الأيديولوجى الذى يضمن التنمية المتسارعة. ومن الضرورى خلق الفريق الإدارى الذى يعرف كيف يستفيد من المعلومات التقنية لدى الآخرين ويجمعها، ويوجه المشروعات ومنظمات الدولة الأخرى لتوفيقها مع نسق الثورة.

والمخرج المشترك لهذه المساعى كلها هو الوضوح السياسى ولا ينحصر الوضوح السياسى فى دعم مسلمات الثورة دون قيد أو شرط بل مساندتها مساندة عقلانية وأن نكون قادرين على التحليل الديالكتيكى الذى يتيح قيام علاقة دائمة، على جميع المستويات مع النظرية الفنية والممارسة الثورية. ويجب اختيار هؤلاء الرفاق من الجماهير حسب المبدأ الوحيد القائل إن الأفضل ينفصل وأن من الواجب إعطاء الأفضل أكبر الفرص للتنمية.

إن وظيفة الكادر، أياً كانت الجبهة التى يعمل فيها، تظل فى كل مكان واحدة لا تتغير. فالكادر هو القطعة الرئيسية فى المحرك الأيديولوجى المتمثل فى حزب الثورة الموحد. وهذا ما يمكن أن نسميه اللولب الديناميكى لهذا المحرك، وهو لولب أنه قطعة تؤمن عمله، وهو ديناميكى لأنه ليس عضواً بسيطاً ينقل الأوامر من الأعلى والمطالب من الأدنى بل خلاق يتعاون مع الجماهير فى تنميتها ومع القادة لإطلاعهم، ويعمل هكذا كنقطة اتصال، ويؤدى رسالة مهمة، رسالة اليقظة لئلا تنطفئ روح الثورة المذهلة، ولئلا تنام الثورة ولا تتباطأ، إنه مكان حساس ينقل ما يأتى من الجماهير وينقل إليها توجيه الحزب.

فتكوين الكوادر إذن مهمة ملحة، وقد باشرت الحكومة الثورية بضراوة تشكيل الكوادر، فوضعت برنامجاً للمنح الدراسية تعطى حسب مبادئ الانتقاء وبرامج دراسية للشغيلة تفسح إمكانيات مختلفة للتكوين

التكنولوجى، ووسعت المدارس التقنية الخاصة والمدارس الثانوية والجامعات التى تفتح الباب أمام مهن جديدة، وأخيراً أصدرت الأوامر إلى حزبنا كله بالدراسة والعمل واليقظة الثورية القائمة جوهرياً على اتحاد الشبيبة الشيوعية التى ستخرج فى المستقبل كل أنواع الكوادر وحتى الكوادر القائدة للثورة.

إن مفهوم " الكادر" مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمفهوم الحس بالتضحية، وضرب المثل على التعبير عن حقائق الثورة وأوامرها. وعلى الكادر بصفته قائداً سياسياً أن يكسب بعمله احترام الشغيلة، ولابد له من أن ينال اعتبار وحب الرفاق الذين يجب أن يقودهم إلى الطليعة.

إذن ليس ثمة من هو أفضل من الكادر الذى تنتخبه الجماهير فى الجمعيات التى تعين الشغيلة النموذجية، الشغيلة الذين سيدخلون فى صفوف الحزب الموحد للثورة الاشتراكية مع الأعضاء القدامى فى المنظمة الثورية المندمجة الذين يكونون قد نجحوا فى جميع مراحل الانتقاء المفروضة، وسيشكلون فى البداية حزباً مصغراً إلا أن نفوذه لدى الشغيلة سيكون عظيماً، ثم يكبر هذا الحزب كلما جعل تقدم الوعى الاشتراكى من العمل والتفانى الشامل لقضية الشعب ضرورة. إن المهام العسيرة التى تنتظرنا ستتجز بتعقيد أقل إذا توافرت الكوادر المتوسطة كهذه الكوادر. ولقد توصلنا، بعد فترة من البلبلة والطرائق السيئة إلى السياسة الصحيحة، السياسة التى لن نتخلى عنها أبداً. ومع الوثبة المتجددة على الدوام للطبيعة العاملة التى تغذى بينابيعها الغنية صفوف الحزب الموحد المقبل للثورة الاشتراكية، ومع قيادة حزبنا ندخل إلى أعماق المهمة، مهمة تكوين الكوادر التى تضمن تنمية ثورتنا تنمية نشيطة يجب أن تنتصر.

■■■



14

جيفارا.. وعبدالناصر في لقاء تاريخى



استقبله عبد الناصر وشدّ على يده.. ودار حديث...

عبد الناصر: ما بك يا تشى؟

تشى: انتصرت الثورة فى كوبا، بدأنا فى تحقيق ما كنت احلم به، ولكن، ليس طموحى ان انشأ المصانع فى كوبا، ولا ان اتسلم وزارات ولا مسؤوليات فيها، انا احلم فى الثورة الكبرى، احلم بالاممية ان تتحقق، احلم بانتصار الخير على الشر، احلم بغد الاممية يوحد البشر..

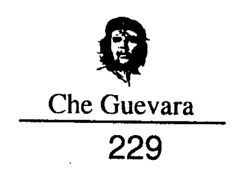
عبدالناصر: وماذا بعد؟

تشى: قصدتك لاستشيرك بعد خيبتى فى الكونغو

عبد الناصر مقاطعا: انت رجل ابيض.. هناك مفهوم الظلم مختلف.. الظلم قائم على الابيض والاسود..

تشى: فكرت فى ان اذهب إلى بوليفيا.. هناك يمكن ان نطلق ثورتنا العالمية.. يمكن ان تكون الشرارة.. فى الثورة اجد نفسى...

عبد الناصر (مقاطعا أياه): ما قلته رائع، ولكن، دعنى اقرب لك الصورة.. الثورة جميلة، شبهها بعلاقة بين رجل وامرأة، التعارف فى البداية، المغامرات ثم الخطوبة، كلها مراحل جميلة، لا يوجد فيها



مسؤوليات، نعيش هيام الحب، نحب الثورة، نحب التمرد، إلى ان نصل إلى الزواج، الزواج مسؤولية وجدّ.. انت تريد فقط من الثورة ما هو قبل الزواج.

ضحكا سويا، دون ان يقنع أحد الاخر بوجهة نظره..

بعض مما قال محمد حسنين هيكل عن اللقاء

من المعروف ان الرئيس عبد الناصر كان لا يولى الكوبيين وسياساتهم الكثير من الاهتمام.

ولم يكن هناك أى اتصال حقيقى بين الحركتين حتى يونيو ١٩٥٩ عندما وصل تشى جيفارا إلى القاهرة فى زيارة لمدة خمسة عشر يوما لدراسة تجربة الإصلاح الزراعى فى مصر.

فى هذا اللقاء، روى تشى لعبد الناصر إنه عندما كان كاسترو يجابه المصاعب والنكسات ـ وهو يقود حرب العصابات فى قمم التلال الكوبية فى سنة ١٩٥٦ ـ كان يستمد كثيرا من الشجاعة من الطريقة التى صمدت بها مصر للعدوان الثلاثى البريطانى- الفرنسى- الإسرائيلى. وقال إن عبد الناصر كان مصدر قوة روحية وأدبية لرجاله.

إلا أنه عندما بدأ الرجلان يتطرقان إلى موضوع الإصلاح الزراعى، بدا الاختلاف فى وجهات النظر واضحا بينهما.

ذكرى عبدالناصر.. وأحرار العالم

وقد ذكر أحمد حمروش أن رحيل عبدالناصر فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ مرتبط ببعض المواقف التى مازالت آثارها باقية تضئ لنا صفحات التاريخ.



فى يوم ١٩ سبتمبر مر نصف قرن على اعلان تشكيل حكومة الجزائر المؤقتة من القاهرة عام ١٩٥٨ برئاسة (فرحات عباس) رئيس حزب البيان العربى.. وكان لها نائبا رئيس هما كريم بلقاسم وزير الدفاع وأحمد بن بيللا.. ووزراء الدولة حسين آية أحمد ورابح بيطاط ومحمد بو ضياف ومحمد خيضر، ولم يكن إعلان الحكومة الجزائرية الحرة المؤقتة من القاهرة هو بداية التعاون بين ثورة ٢٣ يوليو، وثورة الجزائر.. فقد سبق أن أعلنت الاذاعة المصرية من صوت العرب ساعة الصفر للثورة الجزائرية فى أول نوفمبر ١٩٥٤ بإذاعة بيان جبهة التحرير الجزائرية المصاحب لتفجير٢٤ قنبلة فى اماكن مختلفة من الجزائر فى وقت كانت قوات الاحتلال البريطانى مازالت تحتل منطقة قناة السويس.

ولكن إعلان الحكومة المؤقتة كان يقدم أكثر من دلالة على استمرار تعاون الثورتين المصرية والجزائرية.. وهو ماصرح به جمال عبدالناصر فى حديث للصحفى الهندى كارنجيا يوم ٢٩ سبتمبر١٩٥٨ عندما قال له: إن إعلانها فى القاهرة هو الدليل الواضح على تأييدنا الكامل لها، وأننا نثق فى أن اعلانها سيكون عاملا يبعث المزيد من القوة والشجاعة فى قلوب إخواننا الجزائريين الشجعان الذين يحاربون نصف مليون جندى مسلحين بأسلحة حلف الاطلنطى.

وهنا.. لابد من الإشارة إلى أن إعلان الحكومة الجزائرية من القاهرة قد جاء فى توقيت مثير.. أعقب العدوان الثلاثى على مصر الذى شاركت فيه فرنسا التى اعتبرت ان ضرب الثورة المصرية هو ضرب لثورة الجزائر وتجفيف لمنابع تأييدها.. وقد رفضت مصر اعادة العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا لفترة طويلة رغم اعادتها مع انجلترا.. وذلك لأن ثورة الجزائر كانت مازالت مستمرة، وزاد عدد الجنود الفرنسيين المحتلين إلى ربع

مليون جندى، وهكذا وقف جمال عبدالناصر مع الثورة الجزائرية فى قيام حكومتها المؤقتة من القاهرة.. والتى مازال مقرها موجودا فى شارع شريف امام البنك المركزى حيث يوجد المركز الثقافى الجزائرى الذى يقدم للمترددين عليه اعلاما قوميا ناضجا عن العلاقات المصرية الجزائرية.

وشاءت الظروف خلال هذا الشهر أيضا ان تدعو منظمة تضامن الشعوب الافريقية الآسيوية الدكتورة آليدا جيفارا كريمة الزعيم الكوبى أرنستو شى جيفارا لزيارة مصر التى سبق لوالدها أن قام بزيارتها عامى ١٩٥٩و ١٩٦٥ والتقى مع جمال عبدالناصر.

والدكتورة آليدا هى الابنة الكبرى لجيفارا وقد ولدت فى٢٤ نوفمبر ١٩٦٠ وتعمل حاليا طبيبة اطفال بأحد مستشفيات هافانا.. وسبق لها أن عملت فى أنجولا والإكوادور ونيكاراجوا.. وتعمل على نهج ومبادئ والدها الانسانية الذى ضحى بحياته من أجلها خلال نضاله مع الشعوب من أجل التحرر، وتزور الدكتورة اليدا جيفارا فى زيارتها المقبلة لافريقيا مصر وجنوب افريقيا فقط من دول القارة.. وتحرص فى هذه الزيارة على لقاء بعض الذين قابلوا والدها فى مصر خلال زيارته لها.

وهكذا.. وبعد هذه الفترة من رحيل جمال عبدالناصر تقبل ابنة الثائر التاريخى جيفارا لزيارة مصر مؤكدة ان دور جمال عبدالناصر فى تحرير الشعوب وتضامنها لم يقف عند الحدود العربية أو آسيا وافريقيا، وإنما امتد ايضا إلى أمريكا اللاتينية التى تتحول بعض دولها فى السنوات الأخيرة إلى دول مواجهة مع العدوانات ومحاولات الهيمنة الأمريكية.. وتأتى ذكرى رحيل جمال عبدالناصر مقترنة بمحاولاته فى تهدئة الموقف بين الأمة العربية، ودعوته لعقد مؤتمر قمة لوقف القتال الذى كان قد

اشتعل بين الحكومة الأردنية ومنظمة التحرير الفلسطينية.. وبذل فيه من الجهد ما استنفد طاقته وهو مريض واسلم الروح بعد توديعه لآخر الزعماء المشاركين.

عاد السلام بين الأشقاء العرب.. واقترن رحيل جمال عبدالناصر بهذا الموقف الانسانى الرائع الذى يتجدد فى نفوس الاحرار فى انحاء العالم.. والذى جعل من رحيله ذكرى دائمة وبارزة من علامات التاريخ المعاصر.

سنواتى مع تشى جيفارا

(ليوناردوا تمايو نونيز) بطل ثائر، من أبطال الثورة الكوبية، ولد عام ١٩٤١ فى بايموت وأنضم إلى الثوار وعمره لم يتجاوز الخامسة عشرة تقريباً، وكان واحداً من المقربين إلى قائد الثورة جيفارا، رافق تشى إلى بوليفيا عام ١٩٦٦، حيث حاول خلق نموذج دائم للثورة، ولقد نجح بعد موت جيفارا فى بوليفيا أن يعود حيا إلى كوبا مع ثلاثة من رفاقه، وكان خبيراً استشارياً فى انغولا ونيكاراغوا.

(ليوناردو تمايو وسنواتى مع تشى جيفارا) كان عنوان الأمسية التى أقيمت له ضمن أسبوع أفلام أمريكا اللاتينية بمناسبة الذكرى الواحد والثمانين لميلاد الثائر الكوبى تشى جيفارا، فى المركز الثقافى للحزب الشيوعى النمساوى فى مدينة غراتس. امتلأت القاعة بالزوار وعشاق تشى جيفارا والحرية، وحين دخل الثائر ليوناردو القاعة وقف الجمهور تحية واحتراماً لهذا المناضل وصفق له طويلاً، سجل ليوناردو حافل بالنضال فى أمريكا اللاتينية، بالأضافة إلى مشاركته إلى جانب تشى جيفارا فى بوليفا حارب فى انغولا فى افريقيا من عام ١٩٧٥ ولغاية



١٩٧٨ حيث قاد العمليات ضمن صفوف الثورة، ويعمل الآن جنرالا فى وزارة الداخلية الكوبية.

قام بالترجمة من الإسبانية المترجم المبدع د. فيرنار فاسيلى، وبدأ الضيف بسرد ذكرياته مع تشى جيفارا الذى تعرف عليه عام ١٩٥٧ ?وظل بجانبه أكثر من ١٠ سنوات، وقال بأنه كان له الشرف والفخر بأن يرافق تشى جيفارا فى مهماته الخاصة، وكان يردد عبارة تشى جيفارا حين كان يقول (بانه مواطن كل العوالم وأنا ابن العالم وليس فقط الأرجنتين وكوبا).

لقد كان تشى جيفارا الباحث الطبيب والانسان يحمل مسؤوليات كثيرة، فلم يكن فقط وزير صناعة، بل كان هناك على عاتقه الكثير حيث كان يقضى أكثر من ١٧ ساعة فى خدمة وطنه، فقد قالها فيديل كاسترو (بأنه لو انصفنا وزيراً ما فعلينا ان لا ننسى تشى جيفارا أبداً). لقد قال تشى جيفارا لكاسترو ان عليه ان يهتم بوضع كوبا الداخلى، وأما أنا فواجبى التوجه إلى دول أمريكا اللاتينية لأنشر الحرية والعدالة الاجتماعية هناك، ولهذا قرر بأن يتجه صوب بوليفيا، واردف قائلا بأن تشى جيفارا كان يعلم بأنه يكبر عمرا وأن ليس بوسعه قيادة الثورة لو بلغ ٣٩ عاماً.

لقد نشر تشى الف باء الثورة فى بوليفيا، وبعدها تحدث ليوناردو عن وضع كوبا ومكانتها حاليا بين دول أمريكا اللاتينية، وقال بأن لكوبا علاقات دبلوماسية وسياسية واقتصادية مع هذه الدول، وشعب كوبا شعب مكافح ومقاتل من أجل حريته وأنه يتضامن مع كل الحركات التحررية وضد السيطرة على الشعوب والاضطهاد.

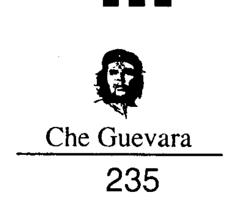
بعدها فتح باب النقاش وبروح رقيقة وصدر رحب أجاب على أسئة الحضور، وحينها سأله كاتب هذه السطور (بدل رفو) قائلاً: بأننا كنا

ننتظر ان تحدثنا أكثر عن ذكرياتك وطبيعة تشى جيفارا وتعامله مع الأسرى والرفاق، وكذلك طرح عليه هذا السؤال: من يعش ثورة فعليه ان يقف إلى جانب ثورات العالم، فمثلا لم نسمع يوما بأن كاستروا أو كوبا نطقت أسم كردستان يوماً أو الثورات الأخرى فما هو السبب؟؟

بعدها أجاب ليوناردو على اسئلة (بدل رفو) قائلاً: صحيح أنى لم أتحدث عن تشى جيفارا كثيراً، وبعدها بدأ بسرد بعض ذكرياته معه وطريقة تعامل تشى مع الأسرى حيث كان يعطى دواءه المخصص للربو لأسرى العدو، ولكن حين وقع فى الأسر لم يرحموا تشى جيفارا، بل وجدوه مقيد الأيدى والأرجل، وبالنسبة للحركات التحررية فنحن نقف مع فلسطين من أجل حقوقهم، وأما بالنسبة إلى كردستان (فللأسف ليست لدى معلومات عن كردستان!!) وهنا تألمت جداً، فمن حق الرجل أن لا تكون لديه معلومات، ولكن أليس من حقنا أن نصدر أبطال ثورتنا الكردية إلى العالم؟ فما الذى يقوم به مسؤولو الأحزاب والحكومة الكردية فى العالم؟ وبعد انتهاء المحاضرة كان الجمهور يرجو توقيعه والتقاط الصور معه، وأنا قلبى يكاد يتمزق متذكراً أبطال الثورة الكردية الذين ربما كل ثلاثة أشهر لا يستلمون الراتب سوى مرة واحدة، وأتذكر ممثلينا فى اوربا والعالم وهم بحاجة إلى أبجدية الكردايتى وغير قادرين على نشر ثقافتنا وأدبنا وثورتنا الكردية، ذلك التاريخ المشرف من نضال أبطال سجلوا تاريخ كردستان بأحرف من ذهب.

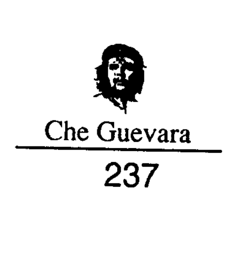
ومن هنا رسالتى إلى كردستان برئيسها وشعبها: ألم تحن الفرصة بعد أن نصدر تاريخ ثورتنا وأبطالنا إلى العالم؟ ربما ستدفن هذه الرسالة فى مقابر النسيان.

■■■



15

مشهد النهاية
جيفارا ثائر لا يموت



التاسع عشر من أكتوبر عام ١٩٦٧.. العاشرة مساءً

دخل الجندى المكلف بقتل جيفارا إلى الحجرة المقيد فيها ومعه أوامر مباشرة بقتله..نهض جيفارا على قدميه وهو على يقين تام أنه مقتول هذا اليوم وقال كلمته المشهورة لذلك الجندى المشهر سلاحه "اضرب.. أنت فقط تقتل رجلاً".

أى أنه من السهل أن تقتلنى ولكن من المستحيل أن تقتل ذلك الأثر الذى سأخلفه ورائى، وتلك الضوضاء والشغب والتحدى الذى يثيره اسم جيفارا ذاته.

أخذ ذلك الجندى وقتاً كبيراً لاستجماع شجاعته، ودون أن ينظر إليه هذه المرة أطلق عليه النار..وفى هذه اللحظة تحركت النزعة السادية الموجودة لدى الجميع، فراح الجنود الذين كانوا متهيبين منذ لحظات يفرغون طلقاتهم فى الجسد الساكن.

خبر كهذا لا يمكن كتمانه طويلاً...فقد خرجت الصحف بعدها وعلى صفحتها الأولى صورة جيفارا وهو مقتول وعلى ثغره شبه ابتسامة ساخرة ويبدو موشكاً على فتح عينيه بعد نوم مريح...



الحقائق تتضارب بصدد جثة جيفارا، فهناك من يقول إنه تم إحراقها، وهناك من يقول إنه تم دفنها بعد بتر اليدين ووضعهما فى الفورمالين ليتم مطابقة البصمات فيما بعد.

وبعد ثلاثين عاماً وتحديداً فى عام ١٩٩٧ تم العثور على هيكل عظمى مبتور اليدين وبتحليله بأسلوب D.N.A أثبت أنه رفات جيفارا.. ونقل بعدها لكوبا ليدفن فى ضريح فى سانت كلارا.

ليست الصورة الحقيقية لتشى هى صورته التى نراها فى البوسترات المتوهجة، ولا فى مؤلفات هوليوود ولا السير الذاتية التى أظهرته كأحد القديسين، ولكنها صورة رجل نذر نفسه للفقراء فى العالم كله، محاولاً مع عصبة من الرجال المسلحين إشعال فتيل انتفاضة ثورية يقوم بها الفلاحون والعمال من أجل خلق حياة أفضل يعيشونها، صورة رجل يقابل إحباطاً وراء الآخر، مع مصادفة بعض انتصارات قليلة بعيداً عن الانتصار الهائل للثورة الكوبية نفسها.

هكذا وضعت اللمسات الأخيرة لحياة رجل لم يعرف فى حياته كلها الدروب الخلفية..كان على يقين أن أقصر الطرق هو الخط المستقيم...تماما كما كانت هذه النظرة المميزة فى عينيه. أما المشهد قبل الأخير فكان فى يوم ٨ أكتوبر ١٩٦٧ وفى أحد وديان بوليفيا الضيقة عندما هاجمت قوات الجيش البوليفى المكونة من ١٥٠٠ فرد مجموعة جيفارا المكونة من ١٦ فرداً، وقد ظل جيفارا ورفاقه يقاتلون ٦ ساعات كاملة وهو شىء نادر الحدوث فى حرب العصابات فى منطقة صخرية وعرة، تجعل حتى الاتصال بينهم شبه مستحيل.

وقد استمر " جيفارا " فى القتال حتى بعد موت جميع أفراد المجموعة رغم إصابته بجروح فى ساقه إلى أن دُمّرت بندقيته وضاع مخزن



مسدسه وهو ما يفسر وقوعه فى الأسر حياً. حوصر جيفارا تماماً بعد أن فقد الكثير من قوته ودمه. فأحاط به أربعة جنود من رجال الحكومة فقال لهم: " أنا التشى....أنا تشى جيفارا ".

فلم يصدق الجنود أنفسهم، فأسروه ليتأكدوا من هويته، وبالفعل عرفوا أن هذا الأسد الجريح الذى سقط فى أيديهم هو من يكبدهم الخسائر منذ أن وطأت قدمه أرض بلادهم.

لم يصدق رجال القيادة فى (فالجيراندى) ببوليفيا أنفسهم عندما وصلتهم رسالة تقول "إن بابا معنا" ثم تبعتها رسالة أخرى تقول "بابا متعب"، وكانت هذه الشفرة المتفق عليها.. فبابا هو جيفارا، ومعنا تعنى أنه وقع فى الأسر، ومتعب تدل على أنه جريح.

بعدها دوت صيحات الفرح فى المكان..(جيفارا) أسير وجريح..الأسطورة فى قبضة رجالنا.

نُقل "جيفارا" إلى قرية "لاهيجيراس"، وبقى حياً لمدة ٢٤ ساعة، ورفض أن يتبادل كلمة واحدة مع من أسروه. وفى مدرسة القرية نفذ ضابط الصف "ماريو تيران" تعليمات ضابطيه: "ميجيل أيوروا" و"أندريس سيلنيش" بإطلاق النار على "جيفارا". دخل ماريو عليه متردداً فقال له " جيفارا ": أطلق النار، لا تخف؛ إنك ببساطة ستقتل مجرد رجل، ولكنه تراجع، ثم عاد مرة أخرى بعد أن كرر الضابطان الأوامر له فأخذ يطلق الرصاص من أعلى إلى أسفل تحت الخصر حيث كانت الأوامر واضحة بعدم توجيه النيران إلى القلب أو الرأس حتى تطول فترة احتضاره، إلى أن قام رقيب ثمل بإطلاق رصاصه من مسدسه فى الجانب الأيسر فأنهى حياته. وقد رفضت السلطات البوليفية تسليم جثة جيفارا لأخيه أو حتى

تعريف أحد بمكانه أو بمقبرته حتى لا تكون مزاراً للثوار من كل أنحاء العالم.

كان جيفارا بعد ان عاد من الكونغو قد اختار البلد الأكثر تعرضاً للهجمة الأمريكية فى أمريكا اللاتينية وهى بوليفيا، فدعم كاسترو قراره بكل احترام.

وافق فيديل كاسترو على مساعى جيفارا، فقدم له الدعم اللازم، وساعده فى تقديم كل ما يلزم لمتابعة مسيرته الثورية على طريقته. فانتحل جيفارا هوية رجل أعمال من أوروجواى وتوجه إلى بوليفيا التى وجد فيها نقطة انطلاق لحرب ثورية مناهضة للتوسع الأمريكى وتساهم بنشر الاشتراكية فى العالم أجمع.

ولكن المصاعب أخذت تتوالى على مشروعه الهائل، كانت الحياة صعبة، وفيها بعض الأمل، وكأن الفلاحين ترددوا فى السعى لتغيير الحالة السائدة. عندما وصل جيفارا إلى هناك مع رجاله يبحثون عن مجندين، لم يجدوا إلا قلة وقفت معهم نتيجة الحملات الدموية التى أعلنتها الحكومة المؤيدة للولايات المتحدة هناك، والتى أدرك الفلاحون والهنود أنها لن توفر أحداً فى دمويتها المعهودة.

كما ساهمت الدسائس الأمريكية فى خلق نزاعات فى أوساط اليساريين أنفسهم كثيراً ما تحدث عنها زعيم الحزب الشيوعى البوليفى ماريو مونهى فى عدة مناسبات محذّراً جيفاراً من حالة الجزر الثورية والانقسامات التى تعانيها البلاد فى تلك الفترة.

منذ بداية عام ١٩٦٧، وجد جيفارا نفسه مع مقاتليه العشرين، وحيداً يواجه وحدات الجيش المدججة بالسلاح بقيادة " السى أى إيه " فى



براری بوليفيا الاستوائية. أراد جيفارا أن يمضى بعض الوقت فى حشد القوى والعمل على تجنيد الفلاحين والهنود من حوله، ولكنه أجبر على خوض المعارك مبكراً.

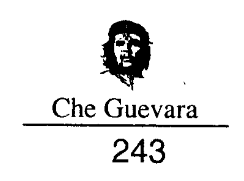
اشتبك المقاتلون مع وحدة من الجيش البوليفى بقيادة وتوجيه السى أى إيه فقتلوا سبعة جنود وأسروا عشرون آخرون. توقعت السى أى إيه وجود أعداد كبيرة من قوات حرب العصابات، فحركت قوات الجيش نحوها حتى اكتشفت موقع المعسكر، وصادروا وثائق تثبت هوية المقاتلين، تشمل صوراً شخصية خلفتها إحدى المقاتلات الثائرات وراءها.

اشتدت المطاردة لتجبر جيفارا ورفاقه على اتباع استراتيجية الكر والفرار سعياً للنجاة واستنزاف وحدات المطاردة المعادية.

ألقى القبض على اثنين من مراسلى الثوار، فاعترفوا تحت قسوة التعذيب أن جيفارا هو قائد الثوار. فبدأت حينها مطاردة لشخص واحد. بقيت السى أى ايه على رأس جهود الجيش البوليفى طوال الحملة، فتنشر آلاف الجنود لتمشيط المناطق الوعرة بحثاً عن أربعين رجلاً ضعيفاً وجائعاً.

قسم جيفارا قواته لتسريع تقدمها، ثم أمضوا بعد ذلك أربعة أشهر متفرقين عن بعضهم فى الأدغال. إلى جانب ظروف الضعف والعزلة هذه، تعرض جيفارا إلى أزمات ربو حادة، ما شكل عامل ساهم فى تسهيل مهمة البحث عنه ومطاردته.

ركب المقاتلون شاحنة ودخلوا إلى بلدة ساماباتا حيث استولوا على مركز الشرطة ودخلوا أمام الأعين المندهشة لشراء دواء من الصيدلية. وربما كانوا يجهلون بأن الطريق العام كوتشامبامبا-سانتاكروس كان وما يزال



شرياناً حيوياً فى البلد. فهو يربط شرق البلاد بغربها، أى أنهم عندما استولوا على سامابايتا لبضع ساعات كادوا يشلون حركة البلد بكاملها.

وبعد مطاردات عنيفة مع وحدات الجيش البوليفى بقيادة السى أى إيه قتلت تانيا ومقاتلى الفرقة الثانية الذين كانوا معها فى مجزرة وقعت على ضفة أحد الأنهار، فبقى مع جيفارا عشرين رجلاً. دفعه الجوع والعزلة إلى البحث عن ملاذ آمن لهم فى أحد الوديان السحيقة.

وكانت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية "السى أى إيه " قد توصلت عبر وسائلها التكنولوجية المتطورة إلى وجود جيفارا فى تلك المنطقة فأرسلت الضابط الشاب فى الجيش البوليفى الملازم جارى برادو، لينشر رجاله على السفوح المطلة، ومحاصرة المقاتلين هناك.

أوشكت المعركة الحاسمة على الوقوع هناك، ولكن جيفارا أصيب مرتين، كما أصيب سلاحه وتعطل فى يده. تسلق الجبال سعياً لاختراق الحصار، ليجد نفسه وجهاً لوجه أمام كمين للجيش الذى تمكن من إغلاق الحصار والقبض عليه حياً ولكنه مرهق ومريض ومجرد من السلاح.

ما أدهش السكان هو أنه رغم كل هذه الظروف الصعبة التى كان فيها تم اقتياده إلى بلدة لا هيغويرا موثوق اليدين والقدمين ليسجن فى مدرسة تحت حراسة الجنود وإشراف السى أى إيه مباشرة هناك.

ويقول الجنرال برادو الذى ألقى القبض عن تلك الواقعة فى إحدى المقابلات ما يلى: عندما رآنى متوتراً لأن هذه كانت أول عملية قتالية أقوم بها، حاولت التأكد من كل شىء، فوضعت الحراسات الأمنية حول السجناء للتأكد من عدم حصول شىء. فقال: لا تقلق أيها الملازم، هذه هى النهاية، انتهى الأمر.



لم يعترف أى ضابط بتلقى أوامر الإعدام. ومع ذلك تؤكد وثائق السى أى إيه المفرج عنها أن الأوامر صدرت عنها مباشرة وقد أمر بتنفيذها عملائها المشاركين بالعملية فدخل أحدهم إلى الغرفة، وصوب السلاح وأطلق النار على أسير أعزل مريض ومرهق. اغتيل تشى جيفارا وهو فى التاسعة والثلاثين.

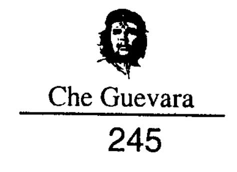
نقلت الجثث المضرجة بالدماء فى طائرة هليكوبتر عبر الجبال إلى بلدة فالى جراندى الجرداء بعد أن قطعت يداه انتقاماً وأرسلت إلى كوبا.

مع انتشار نبأ موته انتشرت حشود الهنود والفلاحين على الطرقات تودعه. هنا أدرك القتلة فداحة خطأهم، حين قرروا أن قتله يستحق الإعلان على الملأ فعرضوه فى غرفة غسيل تابعة لإحدى المستشفيات المحلية.

قاموا بغسله وتنظيفه كى لا يشك أحد فى هويته. لقد قتلوا جيفارا الإنسان، ولكن ما قاموا به أدى إلى ولادة جيفارا الشهيد، الذى هو أقوى من الموت والعذاب، فقد قالت سوزان أوسينجا إحدى ممرضات المستشفى الذى أودع فيه بعد اغتياله عن مشاهدتها فى تلك المناسبة ما يلى: كانت ملامحه شبيهة جداً بملامح السيد المسيح، لهذا ما زال الكثير من الفلاحين والهنود فى بوليفيا يقيمون القداس حتى اليوم على روح جيفارا قائلين إنه يحقق المعجزات.

لو لم يقتلوه، لو لم يغسلوه، لو لم يعرضوا جثته على الملأ بعد فشله فى صنع الثورة، لما ولد مسيح الوادى الذى يعرف بفالى جراندى. والذى يتحدث عنه فيديل كاسترو اليوم فيقول:

إذا أردنا أن نعرف كيف نريد أن يكون أبناؤنا، يجب أن نقول من أعماق قلوبنا كثوار، إننا نريدهم أن يكونوا مثل جيفارا.



الروايات عن مقتل جيفارا لم تنتهِ. الأخيرة منها ينقلها ميشال بوسكيه فى مجلة "نوفيل أوبسرفاتور"، بعدما قام بتحقيق موسّع عن نهاية " جيفارا ". فقابل فيديل كاسترو، واستمع إلى اعترافات ضباط وجنود من الجيش البوليفى رافقوا عملية "الصيد" كما اطّلع على اليوميات التى تركها " جيفارا " وتوصّل إلى الإطار الأقرب إلى الحقيقة". وهذه هى صورة النهاية:

"آخر عبارة كتبها " جيفارا " فى يوميّاته: "كنّا ١٧ نتقدّم فى ظلال ضوء القمر الخافت، ببطء. وكنّا نشعر بأنّ الخطر يرافق كلّ خطوة من خطواتنا، كأنّه يسير مع وقع حوافر الخيل على الصخور الناتئة. وتركنا وراءنا آثاراً عديدة...".

كان " جيفارا " يتألّم بشدّة، بعد القبض عليه إثر المعركة. لم يكن يستطيع العراك. حاول أن يقف على قدميه، لكنّ الألم انتابه.

"لم يستدعِ الجيش البوليفى أى طبيب لمعالجته، خلافاً لكلّ ما قيل. لم يفعل الجيش شيئاً لإنقاذه والإبقاء على حياته. قال له أحد الضباط الكبار: قتلت أكثر من ٥٠ جندياً وضابطاً بوليفياً منذ مارس الماضى.

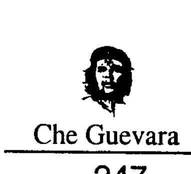
"لم تكن السلطات البوليفية تريده حياً، لأنّها كانت تخشى محاكمته علناً. كانت تخشى الأقوال والاتّهامات التى يمكنه أن يوجّهها.

العقيد " سلنيخ " هو الذى تحدّث مع جيفارا فى لحظاته الأخيرة أكثر من سواه. لازمه ساعتين ونصف الساعة. قال لجيفارا: أنتَ زعيم عصابة مجرمين، وقتلت ضابطاً بوليفياً أحبّه كابنى. تحدّثا عن الولايات المتّحدة. تناقشا طويلاً. حاول العقيد أن يعرف بعض الأسرار من " جيفارا "، لكنّه لم يقدر، صفعه جيفارا بيده اليمنى، فجاءت الضربة على فمه، حين أصرَّ العقيد على معرفة بعض الأسرار. وخرج العقيد ولم ينبس بكلمة.

فى التاسع من أكتوبر وصل مسئولون بوليفيون وأخذوا صوراً مع جيفارا، ومعهم فيليكس رودريجير، أحد مدربى الـ "سى آى إيه" للجيش البوليفى وهو كوبى الأصل. بحسب رواية فيليكس، ابعد استجواب جيفارا من قبل ضباط الجيش، اختلى معه واستجوبه بدوره وسلّمه تشى وصيتين، واحدة لفيديل تقول: فشلنا هنا لا يعنى نهاية الثورة التى ستعود وتنتصر حتماً فى مكان آخر من أمريكا اللاتينية. وأخرى لزوجته يطلب منها أن تتزوج ثانية وتكون سعيدة به. ويقول فيليكس بعد خروجى من الغرفة، دخل جندى، وبعد لحظات سمعت طلقات نيران.

دفن فى مكان سرى بالغابة خوفاً من أن يصبح قبره مبعثاً لثورة جديدة تهدد الأنظمة الرجعية فى أمريكا اللاتينية والعالم أجمع، وظل القبر مخفياً طوال ٣٠ عاماً إلى أن اكتشفت الرفات فى زاوية من مطار جالى جراندى القديم إلى جانب ٦ من رفاقه الثوار ونقلت إلى كوبا فى ذكرى اشتهاده الثلاثين ودفنت فى هافانا فى حفل وطنى ضخم يليق بثائر بعثت صورته كبطل تحرير، شرارة الثورة والتمرد والكفاح المسلح ضد الاحتلال واستغلال الإنسان.

■ ■ ■




محتويات

